الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

جامعة الجزائر (2) بوزريعة

قسم التاريخ

الحياة العلمية في حواضر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا بين القرنين الثامن و العاشر الهجري / الرابع عشر و السادس عشر الميلادي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر

تخصص : تاريخ إفريقيا

من إعداد الطالب :
عثمان منادي

إشراف الستاذ الدكتور :
مختار حساني

(2010 – 2009)

بسم الله الرحمن الرحيم

خطة البحث

المقدمة:

-طرح الأشكالية.

-أسباب اختيار الموضوع.

- أهمية الموضوع .

المصادر والمراجع المعتمدة:

الفصل التمهيدي : التعريف بالممالك الممالك الإسلامية.

مقدمة الفصل :

المبحث الأول: مملكة مالي.

1 -التسمية.

2- الموقع والحدود.

3-مرحلة تأسيس المملكة

-4- مرحلة التوسع والازدهار.

4- مرحلة تأسيس مملكة مالي .

5- مرحلة الضعف و الانهيار.

-المبحث الثاني:مملكة سنغاي :

1 -التسمية.

2- الموقع والحدود.

3-مرحلة تأسيس المملكة

-4- مرحلة التوسع والازدهار.

5- مرحلة الضعف و الانهيار.

خاتمة الفصل:

الفصل الأول : حواضر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا.

- مقدمة الفصل.
- **المبحث الأول:الحواضر التاريخية الكبرى:**

1- تنبكت :

2-حاضرة جنَى:

المبحث الثاني:الحواضر الأخرى:

3- ولاته .

4- غاو.

5- تغازا:

6- تكدا :

خاتمة الفصل.

الفصل الثاني :التبادل العلمي بين حواضر غرب إفريقيا والأقطار الإسلامية .

مقدمة الفصل .

المبحث الأول: التبادل العلمي بين حواضر غرب إفريقيا و المغرب الإسلامي.

1- ا لمغرب الأقصى.

2- المغرب الأدنى:

3- -المغرب الأوسط :

ليبيا(طرابلس،غدامس) .

المبحث الثاني:التبادل العلمي حواضر غرب إفريقيا وباقي الأقطار الإسلامية.

1-الأندلس .

2 مصر.

4- الحجاز.

خاتمة الفصل.

الفصل الثالث : مظاهر الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا .

مقدمة الفصل .

المبحث الأول: مؤسسات التعليم ووسائله.

المبحث الأول: علماء منطقة غرب إفريقيا.

- المبحث الثاني :

أ- علماء البلاد الإسلامية الأخرى :

أ-1-علماء المغرب الإسلامي .

أ -2- علماء الأندلس و المشرق الإسلامي .

الفصل الخامس أثر الحياة العلمية علىتطورالحواضرالإسلامية في غرب إفريقيا .

مقدمة الفصل .

المبحث الأول:أثر الحياة العلمية على نظام الحكم والعمران:

أ- نظام الحكم .

ب- 1- بلاط الحكم وتقاليده:

2- جهاز الإدارة وتنظيمه:

الوزارة:

الولاة.

ب- القضاء .

ج – العمران.

المبحث الثاني:أثر الحياة العلمية على الحياة الاجتماعية والعمران :

أ-الحياة الاجتماعية:

1- العادات والتقاليد:

2-العادات القديمة وتعاليم الإسلام الجديدة :

-المعتقدات .

3-القيم الأخلاقية والاحتفالات الدينية:

-3-1- القيم الأخلاقية .

3-2-الاحتفالات الدينية.

ب - المعاملات التجارية :

خاتمة الفصل :

المقدمة:

بسم الله الرحمان الرحيم و الصلاة وزالسلام على رسول الله.

بداية لايمكنني أن أبدأ دون ان أترحم على فقيدتنا المرحومة الأستاذة الدكتورة عائشة غطاس ، وقد عاهدت الله أن أكون ممن ثبت فيه حديث رسول الله أنه إذا مات اغلمرء إنقطع عمله إلا من ثلاث ((

لقد أخذت الحضارة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا بالظهور في نهاية القرن الأول الهجري/ القرن السابع الميلادي، وأسهمت حواضر السودان الغربي في نهضة شاملة ذات تنظيم خا ، وأنماط من النظم السياسية والعمران والحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وجهاز الحكم.

ولإدراك قدر هذا التطور العلمي جاء موضوع مذكرة الماجستير: "الحياة العلمية في حواضر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا بين القرنين الثامن والعاشر الهجري/ الرابع عشر والسادس عشر ميلادي"، حيث تناولت أهم الحواضر التي ازدهرت فيها العلوم مثل: تنبكت، جني، غاو، ولاتة ومراكز أخرى.

إن العلاقات الثقافية في غرب إفريقيا و باقي الأقطار الإسلامية، قد ساهمت في ازدهار التعليم حتى خصصت أماكن له كالمساجد والزوايا، وخصصت الإجازات العلمية للمتفوقين.

كان التعليم في حواضر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا على مراحل:

(أولي "ابتدائي متوسط" وتعليم عالي)، وكان بعض الطلبة يسافرون إلى حواضر المدن الإسلامية في المغرب و المشرق الإسلاميين، وتطورت الحياة العلمية بشكل أدى إلى تنظيمها حسب المواد المدروسة، كاللغة العربية والفقه والحديث والسيرة وعلم الكلام، ومبادئ علم الحساب وغيرها من العلوم.

ساهم في تطور الحياة العلمية علماء، وفدوا إلى المنطقة من الشمال وكان هدفهم الدعوة والإصلاح ونشر مبادئ الدين الإسلامي خاصة، وباقي العلوم الأخرى عامة.

انعكست حالة الازدهار في مجال العلوم و التعليم إيجابا، بظهور عدة علماء من المنطقة، فمارسوا التعليم وألفوا الكتب ودرسوا في المساجد والزوايا والكتاتيب.

ونتيجة هذه الحركة العلمية، عرفت حواضر الممالك الإسلامية تطورا في مجالات عدة ، مثل بناء المدن والتخطيط لها، وتغيرت المعاملات التجارية إيجابا، وتبدلت بعض العادات الاجتماعية، وتأثرت أنظمة الحكم بهذه التغيرات التي انتقلت إلى بلاط الحكم المركزي للممالك الإسلامية وإن اختلفت من حيث التأثير حسب كل مملكة وسلاطينها.

- فكيف كانت أوضاع الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا بين القرنين الثامن والعاشر الهجري/ الرابع عشر والسادس عشر ميلادي ؟
- وماهي مظاهر الحياة العلمية فيها ؟ وما مدى تأثير الحضارة الإسلامية عليها ؟ وماهي مؤسسات التعليم ومراحله ؟
- هل كانت للحواضر الإسلامية بغرب إفريقيا بين القرنين الثامن والعاشر الهجري/ الرابع عشر والسادس عشر ميلادي إنجازات أو موروث حضاري ؟
- إلى أي مدى أثرت الحياة العلمية على تطور الحواضر الإسلامية ؟

سأحاول من خلال هذه الدراسة أن أجيب على مجمل الإشكالية المطروحة معتمدا على مجموعة من المصادر العربية والأجنبية.

أسباب اختيار الموضوع :

إن ما لفت انتباهي هو كثرة الدراسات الإسلامية حول مناطق لم يعد الإسلام ولا المسلمون ولا اللغة العربية موجودة بها- مثل الأندلس -، في حين أن القارة الإفريقية و خاصة فيما وراء الصحراء يقل الاهتمام بها، رغم أن شعوبها لا تزال تحافظ على الإسلام.

إن اهتمام الأوروبيين بالتاريخ الإفريقي، واستغلال فترة ضعف العالم الإسلامي، قد جعل تاريخ إفريقيا يبدو دون حضارة، أو على الأقل دون موروث.

هذا الانشغال دفعني لدراسة هذا التخصص ، وما شد انتباهي هو الممالك التي تأسست خلال العصر الحديث، فقد ارتبط تاريخها كما كتبه المؤرخون الأوروبيون

خلال فترة الاستعمار على أنها مناطق الجهل والفقر و الأمراض والأدغال و الطبيعة القاسية.

إن هذا الإدعاء هو ما زادني إصرارا على تناول جانب هام من تاريخ إفريقيا ، و خاصة الحياة العلمية، فأردت أن أبرز أن لإفريقيا موروث حضاري هام، ظهر في حواضر تلك الممالك التي تأسست عقب انتشار الإسلام.

ومن منطلق الاهتمام بدراسة تاريخ إفريقيا فقد حرصت وأنا أسعى لاختيار عنوان مذكرة الماجستير أن يصب في هذا الاتجاه، ومما زادني شوقا لإنجازه تلك الصورة الخاطئة التي رسمها الدارسون والمؤرخون الأوربيون غير المنصفين عن تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء قبل وصول الأوربيين إليها ، وحاولت أن أوضح جوانب مضيئة من تاريخ غرب إفريقيا .

بعد اختياري للموضوع كان علي تحديد الفترة الزمنية لمجال الدراسة، بين القرنين الثامن والعاشر الهجري/ الرابع عشر والسادس عشر ميلادي، وذلك للأسباب التالية :

1- أن هذه المرحلة تشكل فترة ازدهار مظاهر الحياة الحضارية في غرب إفريقيا [1]، حتى أطلق عليها بعض الباحثين" العصور الوسطى الإسلامية بالسودان الغربي" [2]، وتعددت مراكز الإشعاع الحضاري فيها .

2- أن هذه الفترة شهدت أقوى الدول الإسلامية في غرب إفريقيا وهي مالي وسنغاي ، ومع اتساع المجال الجغرافي لها كان لابد من توسيع مجال الدراسة لتوضيح طبيعة الحياة العلمية في حواضر السودان الغربي، وهل تأثرت وأثرت في الحياة السياسية وباقي مناحي الحياة؟، وهل كان لها تأثير وصدى علمي في المناطق المجاورة وخاصة التي لم يصلها الإسلام؟، وما هو دور العلماء في أسلمة المجتمع ؟، ونشر الإسلام وإصلاح العادات التي وصفها ابن بطوطة بالغريبة، وهل كانت الحياة العلمية نهضة عرفتها أقاليم السودان الغربي؟، وما مظاهر التأثير العلمي عليها؟ .

---

1. نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،1974، ص 86.

2. محمد محمد أمين :علاقات دولة مالي وسنغاي بمصر في عصر سلاطين المماليك (1250،1517)،مجلة الدراسات الأفريقية،العدد390،القاهرة،1975، ص 280.

3- عندما حددت القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي نهاية لمجال دراستي فيرجع إلى أن نهاية هذا القرن شكل تراجعا وانهيارا لمملكة سنغاي، وهي التي ارتبطت بازدهار الحياة العلمية - مقارنة بما سبقها وما تلاها - وأن الصراعات والحروب على السلطة كانت أحد أسباب هذا التراجع .

4- كان اختياري لعنوان حواضر الممالك الإسلامية مقصودا من حيث المحتوى والشكل، فالمعنى الأول معروف تاريخيا على أن الحواضر مركز استقطاب للسكان والتجارة والعلم والعلماء والطلبة، وحيث كانت البداوة تراجعت الحياة العلمية، وقد قال ابن خلدون:" أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران"، وقد عقد لذلك **فصلا** في مقدمته، وهذه نظرية صحيحة فقد زاد العمران حيث انتشر الإسلام وقامت في هذه المدن حركة علمية[1] .

اعتمدت في دراستي على منهج البحث التاريخي في كلياته وجزئياته المتمثلة في جمع المعلومات ثم تصنيفها وتحليل ما يمكن تحليله منها، ما يجمع بين المنهج الوصفي والتحليلي معا ، وكان هذا العمل متعبا نظرا لتناثر عناصر الدراسة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وارتباطها في حلقات تجمعها الحياة العلمية .

خطة البحث :

قسمت البحث إلى: مقدمة وفصل تمهيدي و خمسة فصول وخاتمة.

تضمن **الفصل التمهيدي،** دراسة عامة عن منطقة غرب إفريقيا من الناحية التاريخية فعرفت بالممالك التي حكمت غرب إفريقيا خلال فترة الدراسة وتناولت بالتفصيل مملكة مالي وسنغاي، لأن التطورات التاريخية لها ارتباط وثيق بتطور الحياة العلمية، فالاستقرار السياسي كان عبر التاريخ مع الرخاء الاقتصادي عاملا ازدهار المجتمعات وتطورها.

[1]. حسن جبر: أسس الحضارة العربية الإسلامية ومعالمها ،ط2، دار الكتاب الحديث ،الكويت ،1999، ص 289.

وفي **الفصل الأول** الموسوم بـ "حواضر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا "، تناولت فيه أهم الحواضر مثل تنبكت و جنى و غاو، و مراكز أخرى مثل ولاتة و تغازا.

وقد تناولت تاريخ كل حاضرة من حيث التأسيس، والخصائص العمرانية، والسكان والنشاط الرئيسي فيها، وحالة التعليم، وسيرة بعض العلماء الذين ساهموا في تطور الحياة العلمية بها.

أما **الفصل الثاني** وهو بعنوان"التبادل العلمي في حواضر غرب إفريقيا والأقطار الإسلامية "، فقد تعرضت إلى تأثير الحضارة الإسلامية على هذه الحواضر وقسمت هذا التبادل إلى ثلاث مناطق هي:

- المغرب الإسلامي: المغرب الأقصى،الأوسط ،الأدنى، طرابلس.
- الأندلس و المشرق الإسلامي: مصر وبلاد الحجاز.

وفي **الفصل الثالث** وهو بعنوان "مظاهر الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا " تطرقت إلى أماكن تدريس العلوم المختلفة كالمساجد والكتاتيب، إذ على الرغم من بساطتها فقد كانت مكان تجمع طلاب العلم.

كما تناولت ارتحال بعض الطلبة إلى المشرق والمغرب طلبا للعلم، والمشقة التي كانت تواجه كل طالب، والفوائد التي كان يجلبها للمنطقة بصفة عامة، و الحياة العلمية بصفة خاصة.

تعرضت أيضا إلى الكتب المتوفرة التي كان يعتمد عليها المدرس والدارس، وأين كانت تخزن هذه الكتب – المكتبات – وما المواضيع التي كانت تتناولها، بالإضافة إلى الإجازات العلمية التي كان الطالب يتحصل عليها.

تناولت أيضا انتشار اللغة العربية، واتخاذها لغة تعليم مبادئ الإسلام في المرحلة الأولى، ثم لغة العلم عندما بدأت مؤسسات التعليم تنشط في الحواضر.

كما كان للمذاهب الإسلامية عند انتشارها في الحواضر دور في تنشيط الحياة العلمية، إذ كان الدعاة يبذلون جهدا في ترسيخ تلك المذاهب، وخاصة الطرق الصوفية، فكان الطلاب بدورهم يضاعفون الجهد لتعلم تلك الطرق في العبادة و المعاملات،

وغيرها من النظم الإسلامية، وخصصت في هذا الفصل جزءا مهما لمراحل التعليم ومستواه، والمواد المدروسة.

الفصل الرابع: وهو بعنوان: " علماء الحواضر و إنجازاتهم "

قسمت العلماء إلى فئتين: الأولى علماء حواضر غرب إفريقيا (أي الأفارقة)، والثانية: علماء البلاد الإسلامية الأخرى، الذين كان لهم تأثير في تطور الحياة العلمية في تلك الحواضر.

ركزت على أبرز العلماء بالنظر إلى إنتاجهم العلمي، وأتباعهم من الطلبة و المريدين، أو تأثيرهم على سياسة البلاد مثل الشيخ عبد الكريم المغيلي.

وجاء **الفصل الخامس** بعنوان " أثر الحياة العلمية على تطور الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا "، فإذا كانت مزدهرة فإن تأثيرها يظهر في مناحي الحياة المختلفة، كنظام الحكم والعمران والحياة الاجتماعية والمعاملات التجارية، و الموروث الحضاري لحواضر الممالك الإسلامية بصفة عامة.

وأشكر من شاركني في انجازها تدريسا ونصحا وتوجيها أساتذتي الكرام: المرحومة الدكتورة عائشة غطاس و الدكتور بن يوسف تلمساني، والدكتور منصف بكاي، والدكتور خالد صابر الشريف والدكتور عمار بن خروف ، والدكتور محمد الصالح حوتيه، فشكرا لصبرهم وتوجيههم ودعمهم لنا،وأجد نفسي مدينا لأستاذي الدكتور مختار حساني الذي بذل جهدا كبيرا مكنني من هذه المناقشة في ظرف وجيز بفضل تعبه وإتصالاته ، كما أرفع التحية والعرفان إلى الأستاذ الدكتور مسعود خالدي من جامعة قالمة الذي وضع مكتبته الخاصة - بمراجعها القيمة في تخصص تاريخ إفريقيا - تحت تصرفي .

الفصل التمهيدي : التعريف بالممالك الممالك الإسلامية.

مقدمة الفصل :

المبحث الأول: مملكة مالي.

1 -التسمية.

2- الموقع والحدود.

3-مرحلة تأسيس المملكة

4- مرحلة التوسع والازدهار.

5- مرحلة الضعف و الانهيار.

-المبحث الثاني:مملكة سنغاي :

1 -التسمية.

2- الموقع والحدود.

3-مرحلة تأسيس المملكة

-4- مرحلة التوسع والازدهار.

5- مرحلة الضعف و الانهيار.

خاتمة الفصل:

مقدمة الفصل :

إن التعريف بغرب إفريقيا والممالك التي حكمت المنطقة منهج تقتضيه الدراسة ، فتحديد الإطار المكاني والزماني وما تأثرت به وما أثرت فيه، يجعل الباحث يدخل في سياق الحياة العلمية لغرب إفريقيا بتسلسل منطقي للأحداث التاريخية، فالموضوع هو دراسة مقومات حضارة تتعلق بالفرد و المجتمع و البيئة و المنجزات العملية الثقافية طوال الفترة محل الدراسة .

فقد استطاع الإسلام في فترة وجيزة أن يستحوذ على قلوب الزنوج الأفارقة ، وانتقلوا بديانتهم المسيحية و الوثنية إلى الإسلام[1]، وكان من نتيجة هذا الدين الجديد إنشاء ممالك نظمت حياة السكان، وأنشأت العمران والحواضر، وازدهرت الحياة العلمية ، ونشط التبادل الثقافي بين إقليم غرب إفريقيا* و أنحاء العالم الإسلامي ، وأنتج كل ذالك حضارة واضحة المعالم.

كان موقف الإسلام هو تشجيع البحث والاجتهاد والسعي وراء العلوم [2] بإعطاء العلماء المكانة الأفضل، فانطلق العرب و المسلمون في العمل نحو العالم في كل الاتجاهات ومنها إفريقيا جنوب الصحراء التي أطلقوا عليها اسم السودان وقسموه إلى ثلاثة مناطق رئيسية هي :

- السودان الشرقي: الذي يمتد من البحر الأحمر إلى مشارف بحيرة تشاد من الشرق .
- السودان الأوسط : ويشمل المناطق المحيطية، ببحيرة تشاد على امتداد مساحات واسعة ارتبطت طبيعيا و تاريخيا بمصادر مياه هذه البحيرة .

---

[1] . عمار هلال: مساهمة بعض الشخصيات السودانية في نشر الإسلام في غرب إفريقيا السوداء، مجلة الأصالة، العدد 87 / 88 ذو الحجة .
1400 - 1401 / نوفمبر – ديسمبر 1980، ص 93.

*. من المصطلحات المستعملة في تسمية المنطقة السودان الغربي ، أفريقيا جنوب الصحراء ،غرب إفريقيا ، فالأول مصطلح تاريخي ارتبط بفترة انتشار الإسلام في هذه المنطقة والثاني مصطلح عام يخص إقليم جغرافي واسع، وقد فضلت استخدام هذا الأخير-غرب إفريقيا لسهولة تحديده بحكم أنه الأكثر تداولا اليوم مما يسهل على القارئ والباحث تحديد المجال الجغرافي للدراسة من خلال العنوان .

[2] . فؤاد سيزكين: محاضرات في تاريخ العلوم، ط1، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1399 هـ / 1989 م، ص 13

- السودان الغربي: ويمتد من مشارف بحيرة تشاد إلى غاية المحيط الأطلسي، حيث عرف قيام إمبراطوريات " غانة، مالي، سنغاي"، والتي لم تكن حدودها واضحة، ولم تكن متطابقة بالمفهوم المعاصر" المقاطعة أو الدولة " ولا توجد خرائط ثابتة تدل على ذلك [1] فكان لها امتداد لعدة قرون .

إن غرب إفريقيا، أو السودان الغربي كما سماه المؤرخون العرب و المسلمون، تعد منطقة منبسطة التضاريس، فالبناء الجيولوجي للقارة يعد بسيطا نسبيا مقارنة بباقي القارات [2]، ويسود هذا الإقليم الواسع المناخ المداري الذي يزداد أمطارا كلما اتجهنا نحوه جنوبا، ويميل إلى الجفاف كلما اتجهنا نحو الشمال، حيث ترتبط أهمية هذا الإقليم بمصادر المياه التي تتمثل في الأنهار.

إن المناطق الواسعة الممتدة من بحيرة تشاد إلى سواحل المحيط الأطلسي، بخصائصها التضاريسية والمناخية ونوعية التربة ومصادر المياه الموزعة بشكل غير منتظم أوجب على السكان تأمين وجودهم لوسائل وصفت بأنها بدائية .

وتعد المنطقة الأصلح هي التي تقع على بعد متساوي تقريبا بين المناطق الشمالية الشديدة الجفاف وبين المناطق الجنوبية ذات الأمطار الغزيرة المستمرة، وفي هذه المناطق الوسطى ازدهرت الزراعة .

وكلما اتجهنا شمالا أي الصحراء تبدأ حياة البداوة والترحال، حيث تنتشر القبائل المرتبطة بتوفير الكلأ للمواشي من جهة، و الابتعاد على الهجمات و الغزوات المفاجئة من جهة ثانية.

وفي المقابل فان الحرارة والرطوبة العالية في الأقاليم الجنوبية وارتباط القبائل بعبادة المظاهر الطبيعية والأوثان، لا يدفع هذه الأقاليم القيام بتنشيط الحياة العلمية أو على الأقل ممارسة التعليم، فالحياة في الغابة لا تحمد في شيء، فالصيد فيها صعب

[1] .Catherine Coquery-Vidrovitch: .Des frontières en Afrique du XIIe au XXe siècle Bamako, 1999، Publié par l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture،Stedi-Mèdia, Paris.2005،p39.

[2] . أحمد بوعتروس : الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء ، ط1 ، دار الهدى 2009 ، الجزائر إبان القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلاد ص 18.

و خطر، والمواصلات مرهقة والزراعة فيها صعبة تتطلب جهودا جبارة لتهيئة الأرض ولا يصلح للزراعة هناك إلا النباتات التي تألف الظل المستمر، ولذالك فالحياة الاقتصادية ضعيفة جدا في الغابة وعلى هوامشها، وبالتالي فالحياة البشرية منحطة[1] أيضا، وهو ما يدفع بعض المؤرخين إلى وصف هذه المنظمة بأنها تزداد ظلمة كلما اتجهنا إلى منظمة الغابات الكثيفة التي تعرف بالأدغال.

ومما سبق ذكره يمكن القول أن الخصائص الطبيعية هي بمثابة العامل الأساسي في التأثير السلبي على الحياة العلمية في غرب إفريقيا، ولا علاقة له بالخصائص البشرية ، التي يذهب إليها المؤرخون الأوربيون بالرغم من أن النظام القبلي السائد في غرب إفريقيا جزء من أسباب التخلف.

[1]. نعيم قداح: المرجع السابق، ص 14.

- **المبحث الأول: مملكة مالي.**

1- التسمية:

احتلت مالي* مكانة غانة كأعظم دولة حكمت السودان الغربي [1]، واختلاف الكثير من المؤرخين والجغرافيين المسلمين في ضبط اسمها فالبكري [2] يضبطها "مالل"، وابن بطوطة [3] سماها"مالى"، والعمري [4] يطلق عليها"مالي"، والوزان [5] ومحمود كعت [6] والسعدي [7] "ملى"، والمرجح أن التسمية الصحيحة هي" مالي" كما وردت لدى ابن بطوطة الذي زارها في فترة ازدهارها ووصفها وصفا يدل على إلمامه الكبير بأحوالها إضافة إلى ضبط مدنها وقراها وأسماء ملوكها وعلمائها وقضاتها [8].

ومؤسسو دولة مالي هم قبائل الماندينغو* MANDINGO ومعناها " المسلمون" بلغة الماندي، ولكن التسمية المتداولة بين قبائل الماندنجو: أو الماندكا MADINKA،

* اختلف الباحثون في لقب الدولة بين تسمية المملكة والدولة والإمبراطورية والإمارة ،وقد وجدت أن تسمية المملكة هو الأكثر تداولا في المراجع ،فرأيت أنه الأنسب بحكم أن النظام السائد هو الوراثة.

[1]. جمال زكريا قاسم : العلاقات العربية الأفريقية ،دراسة تاريخية في العلاقات السلبية للاستعمار ،مجلة الدراسات الأفريقية ،العدد 574،القاهرة،1970، ص 42.

[2] - البكري: المغرب في ذاكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك) دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، بدون تاريخ، ص 178.

[3] . ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة (المعروف بـ: تحفة النظار في غرائب الأمطار)،ج2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية ،الجزائر،2007، ص 354.

[4].ابن فضل شهاب الدين أحمد يحيى العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج4 ط1 ، مركز زايد للتراث والتاريخ، 2001، ص 59.

[5] . حسن بن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا – ترجمة محمد حجي محمد الأخضر ج2 ، ط2، دار الغرب الأسلامي ، بيروت، لبنان، 1983، ص 164.

[6] . محمود كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، طبع هوداس ودولافوس،1964، ص 38.

[7] . عبد الرحمان السعدي: تاريخ السودان ،وقف على طبع هوداس،مكتبة أمريكا والمشرق ،باريس، 1964، ص 09.

[8] . مطير سعد غيث: الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي (خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلادي) –ط1 دار الكتب الوطنية –بنغازي ليبيا 2005م، ص 67.

*. أنظر الملحق رقم 03 ص 206.

أوالماندي MANDI، أوالماننج MANING ، أو ماننجا MANENKA، أو ماندنج MANDENG وهي كلها متقاربة [1] .

ويتضح من خلال ما تم عرضه أن الكلمة واحدة وهي "الماندينغو" ولكن الاختلاف نتج عن تباين لهجات القبائل الأمر الذي يعطيها عدة تسميات هي في حقيقتها واحدة[(2)].

2- **الموقع والحدود* :**

مملكة مالي الإسلامية مملكة مترامية الأطراف، وهي أكبر وأبعد من حدود إمبراطورية غانا [3] ، وعاصمتها"نياني" بمعنى: المدينة الآمنة [4]، وأوضح القلقشندي حدودها قائلا: "وحدودها في الغرب البحر المحيط ومن الشرق بلاد برنو وفي الشمال جبال البربر وفي الجنوب الهمج* " [5] .

أما حسن الوزان [6] فقد ذكر أن مالي تمتد على أحد فروع النيجر* في مساحة نحو ثلاثمائة ميلا، وهي متاخمة لمملكة غانة في الشمال ومساحتها جبال وعرة وصحراء من الجنوب، أما من الغرب فتحدها غابات كثيفة حتى المحيط ومن الشرق يحدها إقليم كانو.

---

[1]. إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1973 ، ص 27.
*.أنظر الملحق 09 ص 214.

. Monteil Vincent : les empires du mali , Paris, 1930،p68.

[2]. الهادي مبروك الدالي: -مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا (من القرن 13 حتى القرن 15م) ط1-دار الملتقى للطباعة والنشر –بيروت-لبنان-1993م.– ص 23.

[3]. Yattara El mouloud et DIALLO Boubacar Séga :Le Mali précolonial .
www.histoire-afrique.org.06.11.2010.

[4] . نفسه- ص 25.
[5] .أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا،ج5،تحقيق وتعليق نبيل خالد الخطيب، ط1 ،دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان- 1407هـ/1987م. ص 271.
*. يقصد بالهمج القبائل الوثنية، وهذا المصطلح يقصد به الصفة، وليس اسم قبيلة أو مجتمع، فمنهم من يأكلون لحم البشر، بالأضافة الى الطقوس الغريبة التي ترويها كتب التاريخ.
[6] . حسن الوزان: المصدر السابق-ج2- ص 161.
* نهر النيجر من أهم ألأنهار يصل إلى أطراف الصحراء عند تنبكت وغاو و جني ،يأخذ اتجها شماليا غربيا من المنبع ثم جنوبيا غربيا .
-عبد الله عبد الرزاق،شوقي الجمل :تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، المرجع السابق، ص 16.محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية: المسلمون في غرب إفريقيا، ص 35. مار مول كربخال :المصدر السابق، ص 55.

وحدد الدكتور عبدالقادر زبادية بأنها تقع على جمهورية مالي الحالية، وعلى السنغال الشرقي وشمال كل من فولتا العليا و الداهومي والجنوب الأقصى من جمهورية موريتانيا [1].

تأسست مملكة مالي في بداية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، متصلة غربا بالمحيط الأطلسي، وشرقا ببلاد برنو، وشمالا بالصحراء الكبرى، وجنوبا بالقبائل الوثنية، وهي تشمل خمسة أقاليم، كل إقليم منها كان مملكة مستقلة، ثم اجتمعت كلها تحت حكم ملك مالي، وهذه الأقاليم هي:

- **مالي**: وسميت الإمبراطورية باسمه وهو جزء منها وقاعدته نياني.
- **صوصو**: ويسمونها (الإنكارية) وهو في الغرب من إقليم مالي.
- **بلاد غانة**: غربي إقليم صوصو تجاور المحيط وليس بمالي من يطلق عليه"ملك" إلا صاحب غانة.
- **بلاد كوكو**: شرقي إقليم مالي.
- **بلاد التكرور**: شرقي إقليم" كوكو" وقاعدته مدينة "تكرور " [2].

3- **مرحلة تأسيس مملكة مالي** * :

لا يعرف إلا القليل عن نشأة مملكة مالي، على الرغم من أنها تعد من أقوى وأعظم ممالك السودان الغربي ومن أوفرها غنى، وكل ما يعرف عنها أنه في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي اعتنق ملوك الماندينغو* في كانجيابا Kangiaba الإسلام، وفي أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي بدأوا يوسعون مملكتهم في الجنوب والجنوب الشرقي، وقد أثار قيام هذه المملكة عداء

---

[1] . عبد القادر زبادية: السودان الغربي وممالكه الإسلامية،(المجلة التاريخية-المركز الوطني للدراسات التاريخية ،العدد 9 الجزائر 1980)، ص 62.

[2] . القلقشندي: المصدر السابق-ج5،275، حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص 220، حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني. ط1، القاهرة 1991.، ص 119.

*تعرض لأحوالها ياقوت الحموي(626هـ/1229م)في كتابه معجم البلدان ، كما وافانا خلال القرن الرابع عشر الجغرافي العربي فضل الله العمري في موسوعته مسالك الأبصار بوصف أقاليمها ومدنها ، وتحدث عنها أيضا القلقشندي في الجزء الخامس من موسوعته صبح الأعشى ،وأرخ لها ابن خلدون بإسهاب خلال القرنين 14و15 م ،وذكر حكامها وإنجازاتهم ،في كتابه العبر .

*.أنظر الملحق رقم 03 ص 206.

ملك«صوصو» الذي يعمل للقضاء على المملكة الجديدة، وكادت جهود ملك صوصو أن تنجح ويقضي على الماندينغو وكاد أكثرهم أن يدخل في طاعته [1] .

و لما آل الملك إلى«سانديانا» سنة 628هـ/1230م الذي استطاع أن يجعل من مملكته الصغيرة دولة عظيمة هي إمبراطورية مالي [2].

وعن كيفية وصول سانديانا الحكم، تذكر الروايات أنه كان يمثل الابن الثاني عشر من أبناء"**نارى فاماغان**"من أسرة الكايتيين، وهوأصغرإخوته وعرف بلقب ماري جاطة ومعناها في لغة الماندينغو: ماري الأمير أو وزير و جاطة معناها "الأسد" أي الأمير الأسد[3] ، وفي سنة628هـ/1230م شن إمبراطور الصوصو ملك الوثنيين حملة عسكرية على الماندينغو، واستطاع قتل ملكها "كوشيوغو سمبا كيتا" وقضى على جميع إخوة سانديانا (ماري جاطة)، واستثنى هذا الأخير لصغره أو لضعفه ومرضه، إذ كان لا يتوقع أن يعيش هذا الصبي، حيث تمكن من الهرب [4]، واتجه نحو الجنوب، وجمع كثيرا من القبائل الباقية على ولائها نحو أسرة كيتا، وأخضع بعد ذلك القبائل المنشقة في منطقتي"سانكران"و "باولى"، ثم اخذ يستعد للزحف شمال إلى الصوصو المغتصبين [5].

وفي سنة633هـ/1235ما استطاع سانديانا بواسطة جيشه أن يهزم جيوش مملكة " كانياجا" أي- الصوصو- ويقتل ملكها، وبعد خمس سنوات أي في 638هـ/ 1240م استطاع أن يغزو مملكة غانة والممالك المجاورة، وينشئ مملكة مالي إحدى الإمبراطوريات العظيمة في السودان الغربي [6] ، وعند دخوله لعاصمة غانة خربها تماما ولكنه استبقى ملكها الذي رضي بالخضوع له، وبالاحتفاظ بلقب ملك غانة وحرم

---

[1] . حسن أحمد محمود: نفس المرجع- ص 120.

[2] . مالي: تسمى بلغة الفلاني" مالى" وبلغة البربر" مليت" وباللغة الفرنسية Mali.

[3]- عبد الرحمان ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ج6،ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1421ه/2000م – ص 266.

[4]. إبراهيم علي طرخان: مملكة مالي الإسلامية ،المرجع السابق، ص 39

Monteil Vincent : Op.cit, P 37.

[5]. نفس المرجع و الصفحة.

[6]. عبد الرحمان زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية ، ط1، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، 1961- ص 102.

على جميع حكام الأقاليم استعمال الألقاب الملكيةً[1] وقام ساندياتا الملقب بماري جاطة، بنقل العاصمة التي كانت تسمى"جريبا" إلى مدينة"نياني" [2] التي يقال أنها أسست سنة 646هـ/ 1248م ثم استولى بعد ذلك على مناجم الذهب وتوسع نحو الغرب، حتى وصل إلى وادي نهر غامبيا ومستنقعات بلاد التكرور[3].

ولم يعمل ساندياتا على توسيع مملكته فقط والاهتمام بالأعمال الحربية، بل عمل جاهدا على تدعيم نظام الإدارة في بلاده وتشجيع الزراعة ولاسيما القطن[4]، وتوفي ماري جاطة عام653هـ/ 1255م، بعد حكم استمر خمس وعشرين سنة [5] تاركا إمبراطورية إسلامية كبيرة لخلفائه.

تولى الحكم في دولة مالي منسى ولي(ابن ماري جاطة) بين سنتي(653-669هـ/1255-1270م) بعد وفاة أبيه ماري جاطة عام 653هـ/1255م[6]، ومن الحوادث الهامة في عهده، أنه بسط نفوذ مالي على دولة سنغاي الناشئة، غير أنه قتل عند احتلال مدينة"غاو" العاصمة وصارت سنغاي فيما بعد إمبراطورية عظيمة [7] ومن بين أعماله الاستيلاء على منطقة ونقارة الغنية بمناجم الذهب كما استولى على مدينتي"باموك" و"بندو" [8].

وتولى بعد وفاته سبعة من الملوك فيما بين 669 759هـ/1270-1307م تميزوا بالضعف، ولم يكن لهم دور يذكر إلى أن انتزع الحكم الملك ساكورة سنة684-700هـ/1285-1300م، حيث شهدت المملكة في عهده توسعات في الشرق والغرب [9]

---

[1]. الأمين محمود عوض: المغرب والسلالات الإفريقية ،الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ،1970، ص 60.

[2]. نياني: تقع قرب اتصال نهر النيجر بفرعه سانكرامى واشتهرت باسم مالي أو مل-أو ملى وصار اسمها علما على دولة الماندينغو وذكرها صاحب الفتاش باسم"دينج" (محمد كعت الفتاش - ص 56، إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق ، ص 42،37. Monteil Vincent : Op.cit. 37.

[3]. إبراهيم علي طرخان: نفس المرجع، ص 43،42.

[4]. عبد الرحمن زكي: نفس المرجع - ص 102.

[5]. إبراهيم طرخان: نفس المرجع، ص 43.

[6]. J.Spencer Trimingham: The influence of islam upon Africa –London,1968,p14.

[7]. الأمين محمود عوض: المرجع السابق- ص 52.

[8]. عبد الرحمن زكي: المرجع السابق– ص 103، إبراهيم علي طرخان: المرجع السابق- ص 65.

[9]. عبد الرحمن زكي: نفس المرجع ، ص 104.

كما استتب الأمن والنظام وانتعشت الحياة الاقتصادية بتوافد التجار العرب و المسلمين على مالي [1].

4- مرحلة التوسع والازدهار:

بدأت مرحلة الازدهار منذ تولي منسى موسى* الحكم [2] (712-738هـ/12307-1322م)، وهو أعظم سلاطين مالي على الإطلاق، وهو أبرز شخصية تاريخية في أسرة كيتا [3] له شهرة لإتصاله بالعالم الخارجي، كان مصلحا ومجاهدا من أجل إعلاء شأن بلاده، تميز حكمه بالثراء والرخاء اللذين تمتعت بهما دولته [4].

قال عنه القلقشندي [5]: « كان رجلا صالحا وملكا عظيما، له أخبار في العدل تأثر عنه، وعظمت مملكته في أيامه، وافتتح الكثير من بلاد السودان ذوات أعمال وقرى وصناع»، كما اشتهر بالكرم والعطاء لاسيما لعلماء المسلمين، واستمرت في عهده توسعات مالي، حيث استولت جيوشه على "ولاته" ودخلت "تنبكت" ومنطقة "غاو" في النيجر الأوسط، وامتدت من بلاد التكرور غربا على المحيط الأطلسي [6]، إلى منطقة دندني ومناجم النحاس في تكدة – مراكز القوافل – شرقا ، ومن مناجم الملح في تغازا في الصحراء شمالا إلى فولتا جالون ومنجم الذهب في ونقارا جنوبا ، وحاذت حدودها الجنوبية منطقة الغابات الاستوائية ، وشملت مناطق من الدول المعروفة اليوم بإسم جمهورية مالي في الوسط ، وجنوب جمهورية موريتانيا الإسلامية في الشمال و السنغال و غينيا في الغرب ، و شمال ساحل العاج وفولتا في الجنوب و النيجر في الشرق [7] .

---

1. عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق،ج6، ص 267.

*. وصفه ابن خلدون بقول الملك العظيم صاحب العز الذي شاعت أخباره في الآفاق وسما المجد الذي وصل الى الى مسمع ملوك المغرب، أنظر ابن خلدون: العبر،نفس المصدر ،ج7، ص 352،353.

2. عبد الصمد عبد الله : فجر الإسلام في غرب إفريقيا ،مجلة التجديد ، العدد06 ،السنة 03 ،1420هـ/1999م ، الجامعة الإسلامية، ماليزيا ،ص 143.

3. Alfonse Gouille : l'islam dans l'Afrique occidentales française- paris 1952.- P55.

4. الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها، المرجع السابق- ص 30.

5. القلقشندي: المصدر السابق-ج5- ص 283.

6. نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 18 .

7. محمد محمد أمين : علاقات دولة مالي و سنغاي في عصر السلاطين المماليك (1250 – 1517) ، مجلة الدراسات الأفريقية ،العدد 390،القاهرة ،1975، ص 273.

امتدت الدولة في آخر عهده إلى بلاد التكرور في الغرب وولاته، وأروان و تادمكة في قلب الصحراء، وأوغل نفوذها جنوبا حتى فوتا جالون [1] وقد عدد القلقشندي [2] الأقاليم التي انضوت تحت لواء هذا الملك الواسع وذكر منها: ملى، وصوصو، وغانة، و كوكو و تكرور.

ووصف ابن بطوطة [3] الذي زار مالي بعد وفاة منسى موسى، مآثر هذا السلطان بأنه كريم يحب العلماء البيضان ويجزل لهم العطاء، وظهرت قوة منسى موسى وزادت شهرته بعد رحلته المشهورة إلى الحج، حيث نالت هذه الرحلة مكانا بارزا في المصادر التاريخية المعاصرة لها، ففي سنة 725هـ/1324م سافر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج في رحلة طويلة أقام خلالها بالقاهرة [4] .

فقد كان لهذه الزيارة دوي كبير* في مصر وبلاد المغرب، فكانت حاشيته تضم خمسمائة عبد، وقيل أنه أخذ معه خمسين ألف أوقية من الذهب وزع أكثرها على الناس كهدايا، وقيل من عشرة الى إثنى عشر طن من الذهب لتغطية نفقات سفره[5].

وتوفي منسى موسى عام 722هـ/1322م بعد حكم دام خمسة وعشرين سنة، تاركا دولة محمية الجانب متقدمة على دول المنطقة في اتساع رقعتها وفي منزلتها الاقتصادية والثقافية فضلا عن نظمها الاجتماعية.

5- مرحلة الضعف و الانهيار:

بدأت مظاهر الضعف تظهر بعد موت منسى موسى لضعف شخصية أحفاده، وظهور الاضطرابات الداخلية، و إعلان بعض الأقاليم عن استقلالها.

---

[1]. حسن أحمد محمود:المرجع السابق- ص 221-222.

[2]. القلقشندي: المصدر السابق،ج5، ص 281.

[3]. ابن بطوطة: المصدر السابق- ص 363، الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية،المرجع السابق، ص 33.

[4]. العمري: المصدر السابق، ص 71، عبد الرحمان ابن خلدون:المصدر السابق،ج6، ص ،267، كعت: المصدر السابق، ص 41،

السعدي: المصدر السابق، ص 7.

*. تعددت أسباب شهرة هذا الملك ولعل أهمها أنه كان أول حاكم سوداني بهذا الوزن الذي يزور المشرق ، وثانيا الوفد الكبير الذي رافقه ، مع ما كان من مال وخاصة الذهب ، ويبدوا من خلال الروايات التاريخية أن غرب إفريقيا كان ينتج كميات هائلة من هذا المعدن ، وبقاءه الى اليوم دليل على ذلك.

[5]. ك.مادهو بانيكار: الوثنية والأسلام ،ترجمة وتحقيق أحمد فؤاد بلبع،ط2، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة ، 1995،ص 95.

فقد انتقل الحكم إلى ابنه "ماغان" الذي حكم أربع سنين فقط[1]، وفي عهده(728ه742ه/ 1337-1341م) قامت قبائل الموشى المقيمة في "بانتجا" بمداهمة مالي ونهب وتخريب مدينة تنبكت وإبادة حاميتها من الماندينغو وأحرقتها[2].

كما وقعت حادثة أخرى كانت لها نتائج وخيمة على مملكة مالي: إذ سمح"ماغان" دون حرس لأميرين من سنغاي على كولن" و سليمان نار" بالحرية التامة، وكان أبوه قد احتفظ بهما رهينة عند الاستيلاء على غاو، وسرعان ما رأى الأميران في تغيير الملك فرصة لبلادهما ليسترد استقلاله.

وخلف "ماغان" عمه سليمان الذي حكم الفترة الممتدة من (743 ه762ه) إلى(/1342-1360م)، حيث شهدت مالي في عهده حضارة إسلامية راقية، واتسعت الثقافة الإسلامية في كافة أنحاء البلاد، وتوطدت علاقات علماء مالي بعلماء الأزهر في مصر والجامعات الإسلامية في القيروان والزيتونة و فاس وبعض الجامعات الأوروبية، كما طبعت الشريعة الإسلامية في مالي وانتشر العدل الإسلامي وكان منسى سليمان محبوبا لدى شعبه، فيقول عنه العمري[3]: "وملكها اسمه سليمان، أخذ السلطان بيده ما كان قد جمعه أخوه مما فتحه من بلاد السودان وأضافه إلى يد الإسلام ، وبنى المساجد والجوامع والموإذن ، وجاب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الأمام مالك"

ولما عاد إلى بلاده حضر معه طائفة من مشاهير العلماء، عاشوا في مالي "تنبكت" ومنهم: أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجين، ويرجع له الفضل في إدخال فن البناء بالآجر في غربي السودان[4].

وعرف حرصه على بناء المساجد وإقامة الشعائر فأكثر من بناءها ، وحرص على إكرام الأئمة والمدرسين- كما حرص السكان على حضور الدروس التي تقام بها-،

---

[1]. معنى مغا : محمد، أنظر ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 239. القلقشندي: المصدر السابق، ج6، ص 285.

[2]. بوفيل: الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا-وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى-ترجمة زاهر رياض - مكتبة الأنجلو المصرية 1968- ص 123.

[3]. العمري: المصدر السابق- ص 59

[4]. ابن بطوطة :المصدر السابق ص 694 ، القلقشندي : المصدر السابق .ج5 . ص 283

و أقام الجمع والجماعات والآذان وتكرم على العلماء [1] ، فلما زار ابن بطوطة مملكة مالي وتنقل بين مدنها وقابل السلطان والتقى طائفة كبيرة من العلماء، لاحظ اهتمام هذا الملك بتشييد المساجد والمدارس وجلب الفقهاء إلى بلاده من مذهب الإمام مالك [2].

وتوفي الملك منسى سليمان سنة 762هـ /1360م، وبموته ازدادت مالي ضعفا وبدأت سنغاي تنمو وتزدهر.

إن تدهور مالي السياسي والاقتصادي مرده إلى عدة أسباب يمكن تلخيصها في ضعف خلفاء ممن تولوا الحكم بعد منسى موسى*، وكثرة الفتن الداخلية واختلال الأمن، بالإضافة إلى انفصال سنغاي وإعلان استقلالها عن مالي حوالي عام 790هـ/ 1388م بزعامة على "كولن" وأخيه "سليمان نار" [3] .

تولى الحكم بعد وفاة "منسى سليمان " ابنه " قنبتا "، لكنه لم يلبث في الحكم سوى تسعة شهور ومات بعدها [4]، فخلفه ماري جاطة الثاني(762-776هـ/1360-1374م) وهو ابن مغا بن موسى فحكم ماري جاطة الثاني أربعة أشهر، وكان رجلا مسرفا، باع حجر الذهب الغير المعالج إلى تجار مصر بأبخس الأثمان، كما عرف بمجونه ووصفه ابن خلدون [5] :

« وكان أشر وال عليهم بما سامهم من النكال و التعسف و إفساد الحرم».

وملك بعده ابنه "موسى" مخالفا طريق والده وأقبل على العدل وحسن السيرة، وتغلب عليه وزيره الذي قام بتدبير الدولة وكان له فيها حسن تدبير، وحارب سنغاي ولكنه لم يستطيع الاستيلاء عليها، كما أن الجيش الذي بعثه لإعادة سلطان مالي على مناجم النحاس في تكده قد قتل [6] .

---

[1]. حسن عيسى عبد الطاهر:الدعوة الأسلامية في غرب إفرقية، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1991، ص 129.

[2]. ابن بطوطة: المصدر السابق،ج2، ص 355، عبد الرحمن زكي: المرجع السابق، ص 113.

*. أنظر الملحق رقم 06 ص 209.

[3] . إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية- ص 100، الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق- ص 56.

[4]. ابن خلدون: المصدر السابق،ج6، ص 267، القلقشندى:المصدر السابق،ج5، ص 285.

[5] .ابن خلدون: نفس المصدر ،ج6، ص 239، الهادي مبروك الدالي:مملكة مالي الإسلامية، المرجع السابق، ص 40. .إبراهيم علي طرخان: نفس المرجع السابق ص 107.

[6]. القلقشندي: صبح الأعشى،ج5، ص 283، الهادي مبروك الدالي: المرجع السابق، ص 40.

وتوفي موسى الثاني سنة789هـ/1387م، وخلفه أخوه"منسا مغا" ودامت فترة حكمه سنتين، تميزت بكثرة الفتن الداخلية و الاضطرابات التي استمرت في عهد خلفه صندكى (791-793هـ/1388-1390م) [1] .

وفي هذه الظروف استغلت كثير من المقاطعات الفرصة واستقلت عن مالي منها "غاو" و"أروان" و "ولاته"، تنبكت، ومعظم الأقاليم الشمالية التي أصبحت في قبضة الطوارق، أما قبائل التوكولور و الولوف فهاجموا مالي بوحشية في الجنوب، وانتهزت قبائل موسى الفرصة واستولت على منطقة واسعة [2] .

وتعاقبت على حكم مالي بعد ذلك سلسلة من ملوك أسرة كيتا [3]، ازدادت مالي في عهدهم تدهورا، وبرزت في نفس الوقت قوة مملكة سنغاي حيث استطاع ملكها سني علي أن يستولي على تنبكت وقتل كثيرا من سكانها [4] .

ورغم فتوح سنغاي في أملاك مالي [5] ، بقيت مالي ذات كيان سياسي ومساحة واسعة إلا أن قوتها اضمحلت، وبنهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وأوائل القرن العاشر الهجري، زادت قبضة سنغاي عليها رغم استعانتهم بحامية برتغالية نزلت على الشاطئ الغربي في إفريقيا، وخلال القرن السابع عشر الميلادي انحصر حكم مالي في منطقة دولتهم القديمة كنجايانا [6] .

-المبحث الثاني:مملكة سنغاي: -1- التسمية:

إن النطق الصحيح للفظ سنغاي هو بالسين المضمومة بحركة(o) اللاتينية بعدها حرف مركب من نون وغين مخففين مع إطباق مؤخرة اللسان بالتجويف العلوي، ينتج

---

[1]. الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق- ص 58.

[2].بوفيل: المرجع السابق- ص 125.

[3]. عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق-ج6- ص 268، القلقشندي: المصدر السابق، ص 285.

[4]. عبد الرحمن زكي: المرجع السابق، ص 125.

[5]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 17.

[6].عبد الرحمن زكي: المرجع السابق، ص 126، Monteil Vincent, Op.cit. p 93

عنه غنة، يمد ذلك الحرف المركب منها بفتحة قصيرة، وهو حرف موجود فيعد من كلمات هذه اللغة [1] .

واسم سنغاي هو نسبة إلى قبائل السنغاي التي كانت تسكن على شواطئ نهر النيجر في الجزء الممتد من الانحناء إلى قرب المصب، في الأراضي الواقعة شمال غربي دولة نيجيريا الاتحادية الحالية وشمال داهومي (بنين حاليا) [2] .

وكلمة سنغاي، ضبطت بهذا الشكل في أغاب المصادر التاريخية خاصة منها السودانية منها كتاب تاريخ السودان للسعدي [3] ، وكتاب الفتاش لكعت التنبكتي [4] ، ويذكر الرحالة الأوروبي «فيليكس ديبوا، أن السكان يرفضون تسميتهم بالسنغاي [5] ، والملاحظ أن هذا الاسم لم يذكره «ليون الإفريقي» (حسن الوزان)، إلا مرة واحدة في كتابه وصف إفريقيا من خلال فقرة من سطرين، أما الرحالة بارث فقد أشار إليهم بإسهاب [6] .

و السنغاي هم زنوج لهم أصالتهم، لعبوا دورا هاما في تاريخ القارة الإفريقية، تتكون من قبلتين هما **السوركو وجيربي**، عملت الأولى في صيد الأسماك، واشتغل الآخرون في الزراعة، كان موطنهم الأصلي في دندي أسفل «**نيجر**» وشمال «**بوسة**» قليلا [7] .

ولا يستبعد أن تكون كلمة «**سنغي**» أو «**صنغاي**» من *أصل بربري* وتحريف لكلمة «**صنهاجة**» لها ارتباط بقبيلة « **لمطة**» والتي استوطن فرع منها في منطقة «**الإير**» وهاجر فرع آخر من ليبيا واستطون شواطئ النيجر [8] .

2- الموقع و الحدود :

---

[1]- هارون المهدي ميغا :إمبراطورية سنغاي ،دراسة تحليلية في الترتيب التاريخي للإمبراطوريات الإسلامية في غرب إفريقيا ،مجلة دراسات افريقية،العدد37،مركز الدراسات الأفريقية ،الخرطوم،*2010/07/12. www.mubarak-inst.org.*

[2]. مطير غيث: المرجع السابق، ص 71.

[3].عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 3.

[4]. محمود كعت: المصدر السابق-11

[5]. فيليكس ديبوا: تنبكت العجيبة –ترجمة عبد الله عبد الرزاق إبراهيم-مراجعة شوقي عطا الله الجمل-المجلس الأعلى للثقافة –القاهرة-2003، ص 81.

[6]. حسن الوزان : المصدر السابق ، ص 162.

[7].عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 133.

[8]. Robert cornevin : Histoire des peoples de l'Afrique noire –Paris 1969-, p 51.

قبائل السنغاي كانت تسكن نهر النيجر في الجزء الممتد من الإنحاء إلى قرب المصب في الأراضي الواقعة شمال غربي النيجر [1] و شمال داهومي، إمتدت مملكة سنغاي * منذ القرن السابع ميلادي في المناطق المحيطة بمدينة كوكيا العاصمة القديمة للدولة، والتي تقع على شواطئ نهر النيجر الأدنى، وهي لا تبعد عن غاو سوى بحوالي مائة و خمسين من جهة الجنوب [2] .

و بعد انهيار مملكة مالي أخذت مملكة سنغاي حدودها الجغرافية تقريبا، وبلغت أقصى اتساعها خلال حكم الأسقيا محمد الكبير [3]، و بدأ بمملكة الموسى (موسى) فأعلن الحرب عليها ، مستشيرا الفقهاء و أهل العلم [4] .

واستطاع أن يظم إلى مملكته بقية مملكة مالي القديمة، فأتجه نحو الشرق من بلاد الهوسا و توغل في بلاد الايبر (بلاد الطوارق) وفرض عليهم دفع الجباية [5] ، وفي الشمال الشرقي تمكن من إخضاع تغازا وأغاديس [6]، وكان من نتيجة هذه الفتوحات أن توسعت الدولة في حدودها الجغرافية وتعددت مداخيل خزائنها ، وعم الاستقرار والرخاء وانعكس كل ذالك على الحياة العلمية والثقافية في عهد الأسقيا محمد الكبير .

3- مرحلة التأسيس و البناء :

- عهد حكم أسرة ضياء (dia):

---

1 . جاك ماكي : الافريقانية و مصيرها ، مجلة الثقافة الإفريقية الشركة الوطنية ، مطر غيث : المرجع السابق ، ص 71 .

*إن الباحث في تاريخ ممالك السودان الغربي ، يجد الكثير من الاختلاف في استخدام عبارات الوصف مثل أعظم ، اكبر ، أقدم ، أوسع ، أكثر ، من قبل المؤرخين و الباحثين هو عدد مملكة غانا الأقدم تليها مالي ثم سنغاي ، وان هذه الأخيرة وريثة الأولى و الثانية من حيث الجغرافيا و الثروة و مفاهيم الحضارة وهناك فريق ثاني يرى إن سنغاي هي أقدم من حيث النشأة من غانة ، إذ يقول احمد شلبي إن سنغاي أطول الدول عمرا ، فقد بدأت بذورها في القرون الميلادية الأولى و وعاصرته إمبراطورية غانا و مالي ، و انتهت غانا و مالي ، و بقية سنغاي حتى 1003 ه – 1594م أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج 06،ط7،مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1984 ، ص 101 .

2. عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيفيين1443- 1591 . الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1971 ، ص 25 .

3. عز الدين عمر موسى : دراسات غرب افريقية ، ط1 دار الغرب الإسلامي ، بيروت 2003 ، ص 81 .

4. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 73.

5. عبد القادر زبادية : نفس المرجع ، ص 143 .

6. عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 143.

ڧي حوالي القرن السابع الميلادي، أخذت تظهر للوجود مملكة ذات مقومات سامية تمركزت ڧي كوكيا، وكان البيت الحاكم هو عاǞلة«**ضياØء**» أو «**Dia**» التي تأسست على يد «**ضياØء الأيمن**» «**Dia-Aliaman** » [1] ، ويƌكد السعدي أن « زا الأيمن» أول ملوك سنغاي جاء من اليمن [2] .

ڧفي سنة700/81م هاجرت قباǞل لمطة من البربر ǚلى مناطق الفلاحين من قباǞل «سنغاي»، وكان قاǞد المهاجمين اسمه «زا الأيمن» ڧأستطاع هذا أن يهاجم الصيادين ڧي المكان الذي يسكنون به وطردوهم بعيدا ǚلى الشمال، وقد ڧرح ڧلاحو سنغاي بهذا البطل الذي أنقذهم وجعلوه قاǞدا لهم وأصبƟ أول ملك من أسرة ملوكها، وهكذا أصبƟ لملوك سنغاي من البربر «البيƯ ƞ» وظلوا كذلك ڧترة طويلة حتى انتقل الحكم ǚلى السود [3] ، وكانت مدينة كوكيا هي العاصمة الأولى لهم تقع على شواطƐ نهر النيجر الأدنى بين «غاو» الحالية و«تيلابƞير»، وهي لا تبعد عن «غاو»* سوى بحوالي ماǞة وخمسين ميلا من جهة الجنوب [4] .

ومنذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تحولت «غƞاو» ǚلى عاصمة جديدة للمملكة [5] ، ومن أسباب نقل عاصمتهم من «**كوكيØØا**» ǚلى «غƞاو» وقوعها وسط البلاد، وأقرب ǚلى طرق القواڧل.

ومن المرجƟ أن مملكة سنغاي كانت ڧي بدايتها دولة صغيرة وأصبحت رقعتها تتوسع، بعد أن جاءتها هجرة من بربر صنهاجة «**لمطØة**» صوب النيجر الأوسط ، خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي [6] .

---

[1] - Robert cernevin : Op.cit., p51.

. الأمين محمد عوƯ اŸ: المرجع السابق، f 65.

[2] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، f 4.

[3] . أحمد شلبي : موسوعة التاريƺ الإسلامي المرجع السابق، f 122.

*. أنظر الملحق رقم 01 f 204.

[4] . عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ڧي عهد الاسيقيين 1493-1591-الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزاǞر، 1971، f 26.

[5] . المرجع نفسه، f 25.

[6] . الأمين محمد عوƯ اŸ، المرجع السابق، f 65.

وأطلق عليها في البداية اسم عائلة « زا» أو «ضياء» وهي عائلة انتقلت من منطقة طرابلس وحكمت حتى سنة 736هـ/1335م [1].

وكانت مملكة «غاو» في أيام عظمة غانة، ذات أهمية، وأشار إلى ذلك اليعقوبي عندما ذكر أن كل ملوك الزنوج يدفعون الجزية لكوكو أو «غاو» [2] .

ويروى أنه في نهاية القرن الرابع الهجري /العشر الميلادي، كان الملك ونبلاءه يعيشون على ضفة النهر الغربية، وتوجد الأحياء التجارية على الضفة الشرقية ويتردد عليها التجار من كل مكان وبها مساجد ومدارس [3] .

4- إسلام مملكة سنغاي (400هـ/1009،1010م):

في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشرالميلادي بدأت مرحلة جديدة في تاريخ هذه الدولة حين أعتنق ملكها «**زاكسي**» الإسلام [4] ، يذكر السعدي في هذا الصدد أن: « أول من تملك فيها من الملوك زا الأيمن ثم زازكي ثم زانكي.. هؤلاء أربعة عشر ملوكا ماتوا جميعا في جاهلية، وما أمن من أحد منهم بالله ورسوله **صلى الله عليه وسلم** والذي أسلم زاكسي يقال له في كلامهم مسلم دم معناه أسلم طوعا بلا إكراه رحمه الله تعالى وذلك في سنة أربعمائة من هجرة النبي **صلى الله عليه وسلم**.. »[5].

وحسب تاريخ الفتاش فإن أربعة عشر من ملوك «**زا**» تولوا الحكم «**بكوكيا**» قبل أن يحول «**زاكسى**» المسلم العاصمة إلى «**غاو**» سنة أربعمائة هجري، بسبب وجود هذه المدينة على الطرق التجارية وكثرة التجار بها، مستعبدا وجود قبائل « **سوركو**على طول النهر [6] . ويذكر «**بازل دافدسون**» أن ملك «غاو» كان اسمه «**كوسوى**» «Kossoi» تحول إلى الإسلام سنة 400هـ/1009م، وحدث ذلك قبل

---

[1]. عبد القادر زبادية: المرجع السابق، ص 26.
[2] . اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ،ج1، دار صادر –بيروت، 1977،1397، ص 193-194.
[3]. ياقوت الحموي :معجم البلدان ، دار صادر، بيروت،لبنان، 1977،1397،ج4،مادة كوكو، ص 495.
[4] . الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص 66.
[5] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 3.
[6] . محمود كعت: المصدر السابق، ص 43.

Robert cornevin, op- cit, p 52.

غزو المرابطين لهذه المناطق، ومن المؤكد أن كثير من الدعاة والتجار قد سبقوا هذا الغزو وعملوا على نشر الإسلام بين حكام « **سنغاي**» وتدل التنقيبات الأثرية على ذلك، حين وجدت مقبرة قديمة سنة 1939 بها شواهد لقبور يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، كتب على إحدى هذه الشواهد ما يلي: « هنا جثمان الملك الذي دافع عن دين الله ويرقد في رعاية أبو عبد الله محمد سنة 494هـ(1100م) [1] .

وعم إسلام ملك « **سنغاي**» خلال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إلا أن غالبية الأهالي بقوا على وثنيتهم [2] ، وأدت الحركة التي قام بها المرابطون إلى انتشار الإسلام في كل منطقة السودان الغربي، وأزداد عدد الداخلين إليه في مملكة سنغاي[3] .

ولا يعرف سوى القليل عن تاريخ سنغاي فيما بين القرنين الخامس والثامن الهجريين/ الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين باستثناء ملوكها القدامى، ففي عهد مملكة مالي تعاقب واحد وثلاثون أميرا على حكم سنغاي حكما اسميا، ولم يشملهم أي تعسف أو اضطهاد من ملوك مالي لأنهم كانوا على دين الإسلام وأن تجار « سنغاي» كانوا سادة التجارة بفضل سوق مدينة غاو ، التي اشتهرت في تلك الفترة ببيع العبيد مقابل المصنوعات القادمة من البحر المتوسط.

وفي سنة 724هـ/1323م استولى ملك مالي « **منسى موسى** » على «**غاو**» وذلك أثناء عودته من الحج، ودخل أهل سنغاي في طاعته وبني بعاصمتهم مسجدا، يقول السعدي أن السلطان «**كنكن موسى**» أي « منسى موسى» هو أول من حكم سنغاي من سلاطين مالي» [4] .

---

[1]. Basil Davidson : l'Afrique ancienne T1-François Maspero- Paris-1973،p 109.
أحمد شلبي: المرجع السابق، ج6، ص 123.

[2] .عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 134.

[3].عصمت عبد اللطيف دندش : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا 430-هـ/1083-1121م، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ، ص 127.

[4] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 7.

وكان من عادة ملوك السودان عند فتح أي إقليم أن يأخذوا أبناء ملك المنطقة المفتوحة رهينة عندهم، ويضعوهم في بيت الملك يراقبونهم حتى لا يفلتوا ويرجعوا لأوطانهم ويؤسسوا ممالكهم المغتصبة [1] .

وبعد الانتصار الذي حققه «منسى موسى» أخذ على «كولن» و« سليمان دار » ولدي -الملك الراحل- رهينة لضمان سيطرته عل تلك المنطقة يقول السعدي :«فلما بلغا مبلغ الاستخدام أخذهما سلطان ملى لأنهما في طاعته حينئذ للخدمة على عاتقهم لأولاد الملوك الذين في طاعتهم» [2] .

5- عهد حكم عائلة سني (736ـ792هـ/ 1335ـ1493م) :

واحتجز الأميران لفترة طويلة واضطلعا بوظائف مختلفة في بلاد مالي وعرفا طرقاته ومسالكه، وتمكنا بفضل مهارة، على كلن من الفرار من نياني في عهد «منسا مغا» عندما بدأ يصيب مملكة مالى [3] الضعف، فلما فطن لهما سلطان مالي قام في أثرهما بعض رجاله ليقتلوهما وكلما دنوا منهما تقاتلوا فيكسرانهم، وتكرر القتال بينهم فما نالوا منهما نيلا حتى وصلا بلادهما، فكان «**علـي كلـن**» سلطانا على أهل

«سنغاي»، وسمي بـ «**سـن**» [4] أي المحرر وقطع صلتهم بسلطان مالي [5] .

وبمجيء «**علـي كلـن**» انتقل الحكم بعدها إلى عائلة سني، وهي فرع من فروع عائلة «زا» أو «ضياء» الأمازيغية الطرابلسية السابقة الذكر، و استطاع «**علي كلن**» أن يتخذ هذا اللقب ليظهر التزامه بسنة الرسول الكريم **صلى الله عليه وسلم** وقد يكون لقب «**سنـي**» مشتق من كلمة السنة المحمدية [6] .

وقد حكم من أسرة «**سنـي**» ثمانية عشرة أميرا منهم: **«علي كلـن»و «سليمـان نـار»** «**إبراهيـم كابـاي»،«عثمـان كانافـا**»، «**بـاري كينـا**»،

---

[1] .محمد الأمين عوض الله: المرجع السابق، ص 66.

[2]. عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر ، ص 6.

[3]. عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق، ص 6.

[4] . كعت: المصدر السابق، ص 43.

[5]. عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 136.

[6]. الأمين محمد عوض الله: المرجع السابق، ص 66.

«محمد دا محمد كونيجا» «محمد فاري»، «كابيغو»، «مارفاي كول»، «ماري هاي ماردانو»، «سليمان دم» «علي بير»، «بكاري دا» [1].

ومن الواضح أن الدور الهام لمملكة «**سنغاي**» بدأ مع تولي علي بن سليمان (سني دام) الملقب بعلي بير الكبير، والذي تولى مقاليد الأمور في سنغاي عام 889هـ/1464م [2].

فقد استطاع تحرير سنغاي من سيادة الماندينغو، ووسع رقعة البلاد واستولى على تنبكت 832هـ/1468م، فاتسعت رقعة مملكته وضمت معظم القبائل المجاورة [3]، وتحولت سنغاي من دولة صغيرة إلى إمبراطورية كبيرة، كان هو أول إمبراطورا لها [4].

ورغم الدور الكبير الذي قام به « سني علي» كمؤسس فعلي لمملكة سنغاي الإسلامية فتح معظم أرجاء نهر النيجر[5] فإنه تعرض لهجوم العديد من المصادر التاريخية.

وربما يرجع ذلك إلى خلطه بين المفاهيم الإسلامية والموروثات الوثنية حسب رأيهم، قال عنه **محمد بلو** في كتابه إنفاق الميسور: « وكان من صفته أن ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين ويصوم رمضان ويتصدق كثيرا بالذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها، ومع ذلك يعظم الأشجار والأحجار بالذبح عندها والصدقة والنذر والتضرع وطلب قضاء حوائجه منها، ويستعين بها وبالسحرة والكهان في أموره كلها أو جلها...» [6]، إلا أن بعض المؤرخين يرون أن هذا الوصف لـ «**سنى علي**» لم يكن حقيقيا فهو ملك طموح ومتشدد وهي صفة لكل

---

1. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 26، عبد القادر زبادية: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1989، ص 21.
2. محمود كعت: المصدر السابق، ص 44، السعدي، المصدر السابق، ص 64.
3. محمد أمين عوض الله: المرجع السابق، ص 67.
4. محمد محمد أمين:المرجع السابق، ص 275.
5. Djibril Tamsir niane et J.suret-canal :Histoire de l'afrique occidentale,edition pre'sence africaine,p49.
6. محمد بلو (بن عثمان بن فودي): إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، القاهرة، 1383هـ/1964، ص 206.

الرجال العظماء في عصره[1] ، استطاع إخضاع قبائل الطوارق وسيطر **على تنبكت** ودخل «**جنØي**» (881هـ/1476م) وتصدى لحملات «الموسى» وقبائل «**البØول**»[2] .

ويقول عنه «**ديبوا** Dubois في كتابه «تنبكت العجيبة» أن هذه الأوصاف القبيحة التي وصف بها هي في الحقيقة من الفقهاء الذين أتوا بعد موته، وحاولوا تشويه سمعته رغم ما فعله من أعمال، وذكر أن إعدامه لعدد كبير من الرجال غير صحيحة فهو أساء معاملة بعض رجال الدين ليس لأنهم مسلمين أو رجال دين ولكن لأنهم تدخلوا في سياسته وتآمروا ضده واتهموه بارتداده عن الدين[3] ، ويعتبر البعض أن التشكيك في دينه يحتاج إلى إعادة نظرا لأنه لم يعطى أحد الدليل القاطع[4] .

ومات سني علي سنة 898هـ/1492م، بعد أن قام بدور بارز في إرساء قواعد مملكة سنغاي وخلفه على العرش ابنه الأكبر أبو بكر داعو[5]، ولم يبق أبو بكر في الحكم إلا بضعة أشهر، حين اغتصب الحكم منه محمد توري، أحد قواد سني علي.

فقد أشهر القائد محمد توري عدم التزام أبي بكر داعو بالتعاليم الإسلامية، فجعل من ذلك مبررا لإقصائه، ونتيجة لذلك أرسل إليه كبار العلماء والأعيان لإشهار إسلامه أمامه، وإعلان ولائه للإسلام دينا ودولة[6]. ولما رفض أبو بكر الاستجابة لدعوة محمد توري التقى به في معركة حاسمة أطاحت بحكمه وكان ذلك في قرية «**أنكØη**» قرب «**غØاو**» وتوفى بعدها سنة 899هـ/1493م[7] ، يذكر السعدى أنه توفي في تلك المعركة[8] .

---

[1] Alfonse Gouilly : op-cit, p 59.

[2]. Robert cornevin : op-cit, p 253.

[3]. فيليكس ديبوا: المرجع السابق، ص 96.

[4]. W.E.F Ward :A history of Africa, russion house, london, p 62 , .wwwikipedia.org/wiki/Daily_Maili.

[5]. عبد الرحمان السعدي: تاريخ السودان، ص 71.

[6]. محمود كعت: المصدر السابق، ص 53.

[7]. مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص 77.

[8]. عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 72.

وبذلك بدأ عهد جديد لأسرة جديدة، قدر لها أن تقود هذه الدولة وأن تعيد للبلاد وجهها الإسلامي، ويلقب سلاطينها بلقب «اسقيا»[1] .

6- مرحلة التوسع و الازدهار:

في سنة 897 /1492م مات «سني علي»، وكان من الضروري أن يتولى الملك أحد أبنائه، ولكن «محمد بن أبي بكر» نادى بنفسه ملكا على البلاد وخاض الحرب ضد أبناء سني علي كما أسلفنا ذكره.

وكان «**محمد توري**» قائدا من قبيلة «**السوركي**» السودانية، ولكن أساطير سنغاي تؤكد أنه ابن أخت «سني علي»، يذكر تاريخ الفتاش أن سني علي ومحمد تورى لهما أصل مشترك حيث يقول:"فأعلم أن **في واسكى محمد ومور هوجار** جد أهل **مور كنر** وفقهاؤها كلهم من أصل واحد"[2] ، وتذكر والروايات كذلك عندما وصلت أنباء اغتصاب السلطة إلى القصر صاحت أخوات «**سنى**» قائلات «**اسقيا**» ومعناها «المغتصب ويقال اتخذ هذه الكلمة لقبا لأسرته الحاكمة[3] .

وصعد محمد الأول (الكبير) إلى الحكم وعمره خمسون سنة، واتخذ لنفسه لقب أسكيا[4]، وحكم سنغاي من (899-934هـ/1493- 1528م) عكف منذ توليه الحكم على إعطاء البلاد مؤسسات قارة، فأدخل على الحكومة كثيرا من الإصلاحات[5] أعطت للمملكة وجهها الإسلامي[6].

ويتحلى الأسقيا محمد الأول بصفات طيبة جعلته بالمركز الذي اغتصبه إذ كان كفاءة في التنظيم السياسي، ميالا إلى الدين والعلم شهد حكمه انتعاشا إسلاميا، كما شهد العلماء حوله حالة لم يتمتعوا بها من قبل، وسار مع انتعاش العلم –كما هي العادة

---

1. محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص 277.
2. محمود كعت: المصدر السابق ، ص 48.
3. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 72.
4. حسن أحمد إبراهيم : بلاد السودان الغربي والأوسط في المصادر الإسلامية ،مجلة التجديد ،الجامعة الإسلامية ماليزيا،العدد11، السنة06 ،2002، ص 101.
5. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ،المرجع السابق، ص 32.
6. عبد الصمد عبد الله: المرجع السابق، ص147.

في السودان، انتعاش في التجارة الخارجية التي أضافت ثروة جديدة إلى «غاو» وتنبكت.

قال عنه صاحب الفتاش * «وله من المناقب وحسن السياسية والرفق بالرغبة والتلطيف بالمساكين ملا يحصى، ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده وحب العلماء والصالحين والطلبة، وكثرة الصدقات وأداء الفرض والنوافل وكان عقلاء الناس ودهاتهم والتواضع للعلماء وبذل النفوس والأموال لهم، مع القيام بمصالح المسلمين وإعانتهم على طاعة الله وعبادته وأبطل جميع ما عليه من البدع والمناكر والظلم وسفك الدماء وأقام الدين أتم قيام وأطلق على كل من أدعى الحرية... ورد كل مال غصبه شيء إلى مواليهم وجدد الدين وأقام القضاة والأئمة» [1].

ويضيف صاحب الفتاش أن الأسقيا محمد يصلح حتى لحكم دولة بني العباس موضحا الكثير من خصاله [2] ، وحاول الأسقيا محمد محاربة الفساد فاستدعى محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني واستعان بنصائحه الشرعية.

وقام الأسقيا محمد الأول بفتوحات كثيرة بدأها بمملكة الموسى (موسى) فأعلن الحرب عليها، وأستشار الفقهاء وأهل العلم [3] ، واستطاع أن يضم إلى مملكته بقية مملكة مالي القديمة، واتجه نحو الشرق من بلاد الهوسا وتوغل في بلاد الايبر (بلاد الطوارق) وفرض عليهم سلطانه [4] ، وفي الشمال الشرقي وضع الأسقيا يده على تغازا وأغادس البربريتين [5] ، وأمدت هذه الفتوحات دولة سنغاي بثروة هائلة، إذ امتدت دولة سنغاي من صحراء النيجر وبحيرة إيتشر شرقا، إلى حوض السنغال غربا، ومن « **سبدو**» على النيجر جنوبا إلى الصحراء الكبرى شمالا، وكانت مدينة غاو عاصمة هذه الإمبراطورية الواسعة [6].

*. مدحه محمود كعت كثيرا وعدد خصاله ودعا له بالخير، أنظر :محمود كعت: المصدر السابق ، ص 59.

1. محمود كعب: المرجع السابق، ص 59.
2. نفسه، ص 22.
3. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 73.
4. عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي ، المرجع السابق، ص 38.
5. عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 143.
6. محمد محمد أمين: المرجع السابق، ص 278.

وتسرب نفوذ سنغاي إلى شمال نيجيريا حيث خضعت كل إمارات الهوسا لمملكة سنغاي وهي: : «**كانو**» **(أو كاتسينا)** و«**غوبير وكانو**»، وزنفرة وزاريا سنة 1513م[1] ، وكان الأسقيا محمد الكبير مضرب الأمثال فعم العدل وانشر الأمن، ودرب جيشا كبيرا ليحمى به الدولة، ثم أنه شجع إنشاء المدارس في تنبكت، وأشتهر في أيامه مسجد سنكرى، وصارت تلك المدينة منارا للعلم والثقافة الإسلامية، كما أنه أقام في جني وغاو معاهد للعلم، وقدر مكانة رجال الدين والعلماء وقربهم إليه وكان ممن أجتذبهم إليه العالم محمد المغيلي[2] .

وما أن اطمأن الأسقيا محمد الكبير وأحرز رضا سكان مملكته بعد جهوده في تنظيم المملكة، حتى قرر السفر إلى المشرق لأداء فريضة الحج والإطلاع على أحوال ممالك الشرق وطرق تسييرها وبذلك يضمن في أعين شعبه الأمور المعنوية من وراء الحج ثم يكسب خيرات أخرى من مشاهداته لممالك الشرق[3] .

وغادر بلاده قبل موسم الحج بعشرة أشهر (901هـ/نوفمبر 1495م) وكان في ركبه ألف وخمسمائة فارس و مجموعة من العلماء والأعيان، وأخذ معه ثلاثمائة ألف دينار[4] .

واستقبل في القاهرة استقبالا رسميا حافلا، وفي مكة قلده شريفها بردة وعمامة وسيفا ونظم على شرفه حفلة خاصة تسلم خلالها (من الخليفة العباسي المتوكل) آخر الأمراء

العباسين لقب الخليفة الأول على بلاد التكرور[5] .

---

[1]. G. P. Murdock, *Africa, its Peoples and their Culture History* .new York, 1959, p 138. www. *wikipedia.org 12.11.2010 .*

[2]. عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 140.

[3]. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ، المرجع السابق، ص 37.

[4]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 73.

[5]. محمود كعت: المصدر السابق، ص 12، عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 73، عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ، ص 37.

وفي مكة ابتاع حديقة وأقام مكانا ينزل به الحجاج القادمون من بلاد السودان [1] ، وأمضى الأسقيا وقته بين العلماء والتقى بالسيوطي الذي تأثر كثيرا بآرائه، واستطاع إغراء عائلة من الإسراف لمرافقته عند عودته، وقدم الولاء للخليفة العباسي المتوكل ، الذي عينه من قبله واليا على بلاد التكرور [2] ، كما ذكر سالفا.

واشتهر الأسقيا محمد في رحلته إلى الحج بكثرة الإنفاق إلا أنه لم يظهر بالأبهة التي ظهر لها موكب منسى موسى قبل قرن ونصف قرن من ذلك [3] .

ومما يلاحظ أن هذه الحجة لها آثار إيجابية، فعند رجوعه صب اهتمامه كله على محاربة الوثنيين في الجنوب لحملهم على اعتناق الإسلام وعلى تنظيم الدولة بمقتضى ما شاهده في الديار الشرقية، وتنصيب قاضي تنبكت للقضاء والإفتاء، وقضاة مدن المملكة الآخرين [4] .

وكانت خاتمة حياة الأسقيا الكبير مشبعة بالمآسي فقد ثار ضده ثلاثة من أولاده برعاية أكبرهم عندما بلغ من الكبر عتيا (96 سنة) فاستنجد بشقيقه يحي فقتلوه وتخلصوا منه وساروا إلى «**غاو**» وأجبروا أباهم على التخلي عن العرش لابنه موسى، ثم نفوه إلى جزيرة نائية سنة 934هـ/ 1527م في النيجر وبعد أعوام أعاده ابنه إسماعيل إلى جاو، حيث عاش بقية حياته وقد كف بصره وقاسى خلالها الألم واليأس ثم قضى نحبه عام 949هـ/1542م [5] .

7- مرحلة الضعف و الانهيار:

اعتلى عرش سنغاي ثمانية ملوك من 935هـ/ 1528 إلى1000هـ/ 1591م، وكان جلهم يتصفون بالقسوة والأنانية والفجور ورجع يقتل بعضهم بعضا، وتركوا العمل

1. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 73.
2. محمود كعت: المصدر السابق، ص 12، السعدي: المصدر السابق، ص 73.
3. عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 139.
4. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 75، محمد الغربي: المرجع السابق، ص 56.
5. عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 143.

العظيم الذي خلفه لهم المؤسس الحقيقي لمملكة سنغاي الاسكيا محمد "فتقوى أركانه، ركنا بعد آخر"[1].

وخلفاء الأسقيا محمد الكبير هم*:

-الأسقيا موسى 935هـ-937م/1528-1531م.[2] **-الأسقيا محمد الثاني 937-943هـ/1531-1537م**[3]. **-الأسقيا إسماعيل 943هـ-946هـ/1537-1539م**[4].

-الأسقيا إسحاق الأول 946-956هـ/1539-1549م[5] **-الأسقيا داوود 965هـ-990م/1539 -1582م**[6].

-الأسقيا محمد الثالث: 990هـ-995هـ/1583-1586[7]، **-الأسقيا محمد بان: 995هـ-997هـ/1586-1588م**[8]. **-إسحاق الثاني: 997-1000هـ/1588-1591م**[9].

8- الغزو المغربي ونهاية مملكة سنغاي :

انطلقت الحملة يوم 29 أكتوبر 1590، وتضم جيشا تعداده ثلاثة آلاف مقاتل وألف من الفرسان والمشاة وخمسمائة من الخيالة الخفيفة المسلحين بالرماح، وستة مدافع كبيرة وأخرى صغيرة حملت على الإبل، وكانت غالبية رجال المدفعية من أصل أوروبي (إسبان، وبرتغاليون، أتراك) يقودهم القائد «**جودر**» ، وضم الجيش مجموعة من المسيحيين الذين يحملون البنادق كانوا من أسرى معركة القصر الكبير، فمن خلال هذا الوصف نلاحظ أن عدد المغاربة في الحملة لا يتعد ألف وخمسمائة مقاتل وبذلك تم

---

[1]. الأمين محمد عوض: المرجع السابق، ص 73.
*. أنظر الملحق رقم 06 –ب- ص 210.
[2]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 81-86، محمود كعت:نفس المصدر ، ص 83.
[3]. محمود كعت:نفس المصدر ، ص 85.
[4]. نفسه، ص 92 ، عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ، ص 43.
[5]. محمود كعت: نفس المصدر ، ص 93، مطر سعد غيث: المرجع السابق، ص 96.
[6]. محمود كعت: نفس المصدر ، ص 95، مطير سعد غيث:نفس المرجع ، ص 96.
[7]. عبد الرحمان السعدي:نفس المصدر، ص 114.
[8]. محمود كعت: نفس المصدر ، ص 126 ،عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، نفس المرجع ، ص 51.
[9]. عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 153.

استخدام اللغة الاسبانية بين أفرادها [1] ، وتنتقل مع الحملة ما لا يقل عن ثمانية آلاف من الإبل والجواد محملة بقراب الماء والخيام [2] .

وأسندت قيادة الجيش **للقائد جودر***[3] ، وكان هدف الحملة السيطرة على غاو وتنبكت والقضاء النهائي على دولة سنغاي وضم حدودها للمغرب، وجاء في تذكرة النسيان أن: «جودر فتى أزرق وهو أول من مراكش إلى سنغاي طلوعه في العام التاسع وتسعون ومدة سلطته تسعة أشهر من المحرم إلى الشوال السادس وعشرين منه ثم عزل، وفي مدته تحرك إلى سنغاي وقاتل مع أسقيا إسحاق بن اسقيا داوود وكسر جيشه طرفة عين» [4] .

وانطلقت من مراكش متجهة نحو جبال الأطلس ثم درعه، ومن بعدها تمر بتغازا وتاوديني إلى ولاته ثم أروان [5] ، وقطع الجيش تلك المسافة في حوالي شهرين على الأقل، وأصابه خلال السير الجوع والعطش مات بسبب ذلك ثلثي الرجال ولم يبق إلا ألف رجل[6] ، وفي فبراير 1591 وصل **جودر** مع جيشه إلى نهر النيجر عند قرية كوبار واقتربوا من العاصمة غاو.

وبالمقابل لم يستعد أهل سنغاي للحرب ولم يأخذوا احتياطاتهم الكافية لاعتقادهم أن الجيش المغربي لا يمكن له أن يجتاز الصحراء، ولم يقوموا بتسميم الآبار وتحضير الأسلحة مما سهل الأمر على المغاربة، وزحف **جودر** على غاو، واستعد إسحاق الثاني بجيش صغير، والتقى الجيشان في «تندي قرب نهر النيجر» [7] ،

---

[1]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 138، عبد الرحمان زكي، المرجع السابق، ص 151.
Alfonse gouilly : op-cit, p 63

[2]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 138.

[3]. هو من أصل اسباني، وقع في أسر المغاربة وهو صغير وربى في القصر الملكي في مراكش امتاز بجباية الخراج وحسن الإدارة والتنظيم، ولم تكن درايته كبيرة على قيادة الجيش ، السعدي: المصدر السابق، ص 94.

[4]. مجهول: «تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان-نشره هوداس –مكتبة أمريكيا والشرق-باريس،1966، ص 2.

[5]. عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 152.

[6]. محمود كعت: المصدر السابق، ص 125.

[7]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 139-140.

وتم تدمير مملكة سنغاي شهر فبراير1591 في معركة « Tondibi » من طرف المغاربة ليفتح بعدها غرب السودان على فترة كبيرة من عدم الاستقرار[1] .

ولم يصمد جيش سنغاي وانهزم بسرعة فائقة بسبب قلة تدريب وضعف الأسلحة وظل بعضهم يضرب برماحه حتى فني عن آخره [2] .

ودخل **جودر** العاصمة (غاو) أو (جاو)، وحاول إسحاق الثاني التفاوض معه بدفع الجزية السنوية وتقديم هدية من مائة ألف مثقال من الذهب ومائة من العبيد، وقد قبلها **جودر** ولكنه بقي ينتظر رد السلطان [3] .

وأرسل **جودر** بعثته إلى السلطان بها العبيد وحمولة من الذهب ثم استولى بعد ذلك على مدينة تنبكت دون مقاومة [4] .

وأكد **جودر** في مراسلته إلى السلطان عن خيبة أمله بوجود بلاد فقيرة وليست مدنها إلا قرى صغيرة يلتقي فيها التجار، أما الذهب فلم يكن موجود بها فهو يستخرج من مناطق بعيدة [5] وقصر ملكهم هو أبسط من منازل العامة.

ورغم ذلك فقد أقام المنصور الذهبي الأفراح والاحتفالات في مراكش لمدة ثلاثة أيام وجاءت الوفود من كل أجزاء الدولة لتقديم التهاني، وألقى الشعراء قصائد لتمجيد عظمه المنصور، ووصفوه بأنه أساس هذا المجد الذي ينتمي إليه [6] ولم يصل إلى علم أحد ما حدث للجيش ذكره من مآسي وحوادث والمعلومات التي وصلت إلى السلطان مفادها أن البلاد على تعاسة وفقر [7] .

---

[1] . Diallo Boubacar Séga: L'empire Songhoy،p01، www.histoire-afrique.org10.11.2010.

[2]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 148، محمود كعت: المصدر السابق، ص 147، مجهول: تذكر النسيان، المصدر السابق، ص 2.

[3]. عبد الرحمان السعدي:نفس المصدر ، ص 141، محمود كعت:نفس المصدر ، ص 147.

[4]. عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 148،147.

[5]. عبد القادر عبد زبادية: مملكة سنغاي ،المرجع السابق، ص 95.

W.E.F Ward : op-cit ،p69.

[6]. فليكس ديبوا: المرجع السابق، ص 115.

[7]. عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 156.

وغضب السلطان مولاي أحمد المنصور من قائده على توقيف القتال والتفاوض مع إسحاق الثاني، فأزاحه ونصب مكانه القائد محمود بن زرقون[1] .

وعند وصول هذا الأخير إلى مملكة سنغاي وجد أن مشكلة محاربة الأسقيا هي مشكلة قوارب، فقطع كل الأشجار التي حول تنبكت، واقتلع أبواب المنازل ووضع السفن التي تمكنه من أن ينقل جيشه إلى الشاطئ الآخر[2] ، والحق بعد ذلك هزيمة أخرى بإسحاق الثاني في المناطق التي التجأ إليها، وانسحب هذا الأخير وأصحابه ومات بقليل بعد ذلك سنة 1592م [3] ، وعندما لاحظ خاف **إسحاق الثاني**، «**محمد كاغ**» سيطرة المغاربة على البلاد اتصل بالقائد محمد بن زرقون، وحضر مع جيشه ليقدم الولاء للمنصور، فقبض عليهم جميعا ووضعوا في الأغلال ثم قتلوا [4] .

وواصل المقاومة الأسقيا نوح بن الأسقيا داوود، فطارد القائد محمود بن زرقون وأوقع به الهزيمة في عدة مواقع[5] .

ولم يصمد الأسقيا طويلا بل قتل سنة 928هـ/1594م، وبموته انتهت مملكة سنغاي، وانهارت حدودها من أعالي السنغال إلى حدود نيجريا الحديثة بعد الغزو المغربي[6] ، وبذهابها لم تبق بعدها قوة ذات خطر في بلاد السودان الغربي[7].

---

[1]. عبد الرحمان السعدي:نفس المصدر، ص 144.

[2]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 145،166.

[3] – Robert cornevin, Op-Cit, p 255.

. محمد عبد الفتاح إبراهيم، المرجع السابق، ص 149.

[4]. عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 151، عبد الرحمان زكي: المرجع السابق، ص 158.

[5]. عبد الرحمان زكي: نفس المرجع و الصفحة.

6. مجهول: تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص 3.

[7]. أ . د. مور أوليف : تاريخ إفريقيا في العصر الحديث ، ت المركز الثقافي للتعريب و الترجمة ط1 دار الكتاب الكتاب ، الحديث ، القاهرة ، 2009 ، ص 27 .

الفصل الأول : حواضر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا.

- مقدمة الفصل.

-المبحث الأول:الحواضر التاريخية الكبرى:

1- تنبكت :

2-حاضرة جنّى:

-المبحث الثاني:الحواضر الأخرى:

3- ولاته .

4- غاو.

5- تغازا:

6- تكدا :

خاتمة الفصل.

مقدمة الفصل :

لم تظهر الحواضر في التاريخ المعروف فجأة، ولكن سبق ظهورها فترات ممتدة من الزمن كان الإنسان يجمع فيها الثروة ويقنن المعارف، ويرقي القدرة التنظيمية له ولذويه ممن اتفقت أهواؤهم وتوحدت مصالحهم في التجمع والارتقاء .

فالمدينة كمفهوم اجتماعي إنساني تعد مرحلة كبرى على سلم مراحل التطور البشري، لم يكن يصلها الإنسان دون أن يكون قد تخطى المراحل السابقة، وهي المراحل التي اعتمدت في الأساس على مرحلتي الرعي والزراعة.

وعندما تمكن الإنسان من جميع ذلك تراه قد استقر في مدن ، فقد ضمن شرابه وغذاءه وكساءه وتسنى له أن ينظر بعقله الى أمور الحياة الدنيا، فظهر الفكر والتاريخ والابتكارات و من ثم توسعت المدن وأصبحت نواة قوية ومتكاملة انبثقت منها صور الحضارة المعنوية والمادية التي نعرفها الآن عن الإنسان في العصور التارخية المختلفة [1] .

تعد دراسات الحواضر من الدراسات المهمة * ، وذالك لأن المدينة و تطوراتها الاجتماعية والاقتصادية و الفكرية و السياسية تمثل الوحدة الحيوية و الجزء الفعال من حركة التقدم الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات.

و المدينة هي حضارة وهي تعادل تعبير الأمة [2] لأنها تمثل رقعة حضارية، يتجمع فيها الناس من مختاف الأجناس ينشغلون في أغلبيتهم بأنماط إنتاجية غير زراعية [3].

---

[1] . عبد الحكيم العفيفي: موسوعة 1000مدينة،ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،200/1424.

* . أخذت بعض الجامعات العربية و الغربية على عاتقها أقسام علمية و مواد دراسية تتناول دراسات المدن، وتركزعلى الحياة الفكرية و العلمية بها ، فجامعة قسنطينة مثلا فتحت عام 2006 دراسات عليا (ماجستير) بتخصص عنوانه " المدينة " ، و كان من نتائج هذا التوجه الاهتمام بهذا النوع من الدراسات و البحوث المتعلقة بالحواضر من مختلف القارات والمراحل التاريخية.

[2]. عبد الجبار ناجي: دراسات في تاريخ المدن العربية والإسلامية، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، 2001، ص 05 .

[3]. نفس المرجع ، ص 17.

كانت الحاضرة تبدأ بنواة عمرانية فتتطور وتتشكل لتأخذ الملامح الأخيرة، وإن اختلفت في بعض التفاصيل ارتباطا بالنشأة أو العوامل البيئية والمحلية [1].

كان المدينة الإسلامية والممالك التي نشأت في غرب افريقيا دور كبير في تأسيس الحواضر ولعبت القبائل العربية والبربرية الدور الأهم في عمارة وازدهار تلك المدن ، حتى سمي العرب القاطنون في مدن افريقيا عادة حضرا [2] وقد تناولت مصادر الرحلة والتاريخ أهم هذه الحواضر التي نشأت، ووصفوا موقعها وعمرانها وشوارعها ومهن سكانها وتضاريسها ونباتها .

فتكلم ابن خلدون مثلا عن هذه الحواضر قائلا هي:"بسائط يتكون مزاجها تارة بمزاج التلول ، وتارة بمزاج الصحراء بهوائها ومائها ومنابتها "[3]، وظلت كتابات البكري والإدريسي وابن حوقل وابن بطوطة وابن خلدون والوزان وغيرهم ، الى وقت قريب تحل الصدارة وحدها في هذا المجال ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي أضيفت للمصادر العربية ، ما كتبه العلماء السودانيون ، أمثال القاضي محمود كعت وعبد الرحمان السعدي [4].

وقد تعدد أسباب تأسيس حواضر السودان الغربي* وتنوعت عوامل ازدهارها ، من الموقع الذي يعد طريق لتجارة الذهب او القرب من المجاري المائية، او محطات قوافل التجار التي تخترق الصحراء باتجاه الشمال [5] أو العوامل السياسية الأخرى، التي حولت غاو وولاته تنبكت و جني إلى مراكز وهج فكري في القرن السادس عشر[6].

---

[1] . الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا في وراء الصحراء في نهاية القرن الخامس عشر ، إلى بداية القرن الثامن عشر ، ط2، طرابلس ، 2001 ص 98 .

[2]. مار مول كربخال : إفريقيا –الجزء الثالث-ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي، عمار زبير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،ط1 –الرباط ،المغرب،1984 ، ص 97.

[3]. عبد الرحمان ابن خلدون : العبر،المصدر السابق، ص 132 .

*. أنظر الملحق رقم 02 ص 205.

[4] . الهادي الدالي، عمار هلال: دراسة حركات التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2002، ص 15،16 .

[5]. كولين ماكيفيدي : أطلس التاريخ الإفريقي ، ت مختار السويفي ، ط1 الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1987 ، ص 105 .

[6] . Maurice Delafosse: Les noirs de L'afrique. Collection Payot, Payot et Cie, Paris, 1922. Édition numérique réalisée le 11 avril 2010.p57.

وانطلاقا من وظيفة الحواضر القائمة على الارتقاء المعنوي بالإنسان الذي يرتبط بازدهار الحياة العلمية، كان إدراج هذا الفصل الخاص بحواضر غرب إفريقيا من اجل إبراز حقائق تتعلق بحواضر السودان الغربي، ودورها في الحياة العلمية، ومدى التأثير الإسلامي عليها، مع إبراز وظائف المدينة في مجال التطور الفكري والعلمي والحضاري ، ورسم صورة واضحة عن تلك الحواضر التي لم يبق من آثارها إلا القليل على اعتبار أن الكيان المادي للمدينة أضعف من الحضارة المعنوية التي تخرج منها ، بفضل العلماء الذين عاشوا فيها وبقيت آثارهم عبر التاريخ .

المبحث الأول:الحواضر التاريخية الكبرى:

1- تنبكت :

تأسست هذه الحاضرة على أيدي قبيلة مغشرن أو مقشرن (إحدى قبائل الطوارق[1] ، في بين أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وأوائل القرن الثاني عشر[2]، كان الطوارق ينزلون بهذه المدينة الطيبة الطاهرة الزكية الفاخرة، في وقت الصيف ثم يرتحلون وقت الخريف [3].

تقع المدينة على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى[4] ، على الضفة اليسرى من خليج نهر النيجر[5]، حيث يبعد عنها في الصيف بـ16 ميلا أما في الخريف فان ماء النهر يقترب منها فيصل إلى بعد سبعة أميال من المدينة ، وهي تنحصر بين دائرتي عرض 17°-40° وخطي طول 3° -50° [6].

أما تسمية المدينة فيقال انه كانت هناك سيدة من الطوارق أو أمة لهم ، كانت تعيش في الموقع الحالي لتنبكت وكان اسمها (بكت)، وكان رجال قبيلة مقشرن

---

1 . Jean Suret-canal : Afrique noire ,gèographie civilisations histoire,èditions sociales,paris,1973,p181.

2 . Maurice DELAFOSSE: Op.Cit.p43.

3. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق. ص20، مطير سعد غيث :المرجع السابق،185.

4 . محمد فاضل علي باري ، سعيد إبراهيم كريدية : المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ حضارة ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت 2007 ، ص 96.

5 . Faidherbe :le Sénégal la France dans l Afrique occidentale ‘paris ‘1889’p 340

6 .Barth ‘(h)’travels and discoveries in north and central africa ‘vo 13 ‘London ‘ 1859’p 264 .

الطارقية ينزلون في ذلك المكان في فصل الصيف راتعين حيواناتهم على ضفاف نهر النيجر ويرتحلون في الخريف شمالا [1] وأحيانا يتركون أمتعتهم الزائدة لديها [2] .

ولذا سميت المدينة تنبكت أي مكان أو مأوى بكت - المرأة – حيث لفظ (تن) تعني في لغة الطوارق المكان أو المأوى أو المسكن .

إن اسم تنبكت ينير في الأذهان الماضي المشرق لإفريقيا، فهو رمز لقاء افريقيا السوداء مع افريقيا البيضاء ، والاتحاد المثمر الذي مكن من تطوير حضارة عالمية أخذت عناصرها من ضفاف البحر المتوسط ، فظلت تنبكت نقطة اتصال وتعارف بين الناس ومهدا للثقافة الزنجية البربرية في السودان الغربي اكتسبت حاضرة تنبكت مكانة متميزة بفضل موقعها الجغرافي، فهي ذات موقع وسيط للمسافرين في طريق القوافل [3] ونقطة تقارب بين الشمال والجنوب [4] .

انطلاقا من موقعها الجغرافي الهام، بدأت المدينة تكبر وتتحول اليها الطرق التجارية فأدت دور المناء للقوافل الصحراوية[5]، واستمر شأن تنبكت في التعاظم طيلة القرن الثامن الهجري /الرابع عشر ميلادي، حيث شهدت المدينة رخاءا ورفاهية في أواخر القرن التاسع الهجري /الخامس عشر ميلادي[6] وقد شهد المؤرخ الفرنسي "ديبوا" بان القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي كان أزهى العصور التي مرت بتنبكت، التي وصلت في ذلك الحين الى أوج المجد الأدبي والعلمي حيث كانت سوقا لكتب تنسخ فيها المخطوطات وتوزع في البلاد[7]، اكتسبت تنبكت مكانة مميزة خلال حكم مالي، وخاصة في عهد ملكها منسى موسى حيث عم الأمن والرخاء البلاد كلها [8].

---

1. مطيرسعد غيث : نفس المرجع ، ص 186 .
2. عبد الرحمان السعدي : المصدرالسابق ، ص 21 .
3. شوقي عبد القوي عثمان: التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، ط1، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، مصر 2000، ص 52.
4. .Boubou (h): histoire des songhay ‘Paris’1968’ pp321-32 .
5. .Jean Suret-canal : Op-Cit,p181.
6. إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها ، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 ، ص 312
7. عبد الرحمان زكي : المرجع السابق، ص 221.
8. محمد عبد الفتاح إبراهيم : افريقية من السنغال إلى نهر جوبا ، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1961، ص 104.

وأصبحت في القرن السادس عشر العاصمة الثقافية والدينية للسودان الغربي، وابتداءا من ذلك الوقت ظلت تؤدي وظيفة مزدوجة تجارية وثقافية، حيث بلغ عدد سكانها في ذلك العهد حوالي ستين ألف أو سبعين ألف، وكان يرتفع في فصل الأعمال، فيبلغ على الأرجح مائة ألف نسمة [1]، انتشرت سعة تنبكت ووصلت أوج عظمتها في عهد أسكيا محمد من حيث المعاملات التجارية وكثرة الحوانيت المملوءة بالكتب [2]، فكانت مركزا ثقافي كبيرا، كان بها مسجدان كبيران يعتبران جامعتين إسلاميتين تضمان المتشوقين للعلم وكانت الدروس فيها تستمر طيلة النهار، ولا تنقطع إلا وقت الصلاة وكان بعض الاساتذة يدرسون في الليل على نور الحطب المشتعل الذي يتبرع به الطلاب وكان بهذه المدينة نحو مائتين وثمانين مدرسة [3].

ظلت تنبكت أهم طريق لنقل الثقافة إلى باقي حواضر غرب السودان[4] ، فكانت ذات إشعاع حضاري وتجاري واسع [5]، إلى غاية نهاية القرن السادس عشر حيث بدأت تضعف بعد أن غزى المغاربة البلاد [6]، وهو عمل منعزل ليس له هدف ديني لا يعني أن الإسلام توغل عن طريق السيف الذي كان يحمله العربي، بل قد انتشر بواسطة القوافل الاسلامية في جميع العصور في غرب إفريقيا [7].

ويكفي أن نختم مع المثل القديم في غرب أفريقيا والذي يقول : "ملح يأتي من الشمال و ذهب من الجنوب ، ولكن كلمة الله وكنوز الحكمة لا يمكن العثور عليها إلا في تنبكت" [8].

---

1 . سكيني مودي سيسوكو : نزعة تومبوكتو في وحدة العالم الأفريقي مجلة الثقافة الإفريقية ، الجزائر 1969 ، ص 265 .

2 . زينب احمد هاشم : علاقة مصر بالدول الإسلامية في حوض نهر النيجر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية القاهرة ، 1982 ، 102

3 . نعيم قداح : المرجع السابق، ص 159 .

4 . محمود خيري: العلاقات العربية الإفريقية، مجلة البحوث والدراسات الأفريقية، العدد 513، القاهرة1977، ص 18.

5 . عبد الحكيم العفيفي : المرجع السابق ، ص 178

6 . عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي ،المرجع السابق، ص 100.

7. سيكيني مودي سيسوكو : نفس المرجع والصفحة.

8 . Jackson, Mississippi. Sankore University: Rediscover the Glory

2- حاضرة جنى:

1- التسمية:

تعددت الآراء في سببية إطلاق اسم جنَى على هذه المدينة العظيمة الميمونة المباركة ذات السعة والبركة والرحمة الذي جعل الله في أرضها خلقا كثيرا، إذ يذكر أن اسمها من اسم ملكها الشهير جنور رئيس قبيلة مرك [1] ، وهو أول ملك مكث في مدينة جنَى وعاش بعد البناء أربعون سنة، فتم عمره مائة سنة، ومن نسله كيكمبرو الذي فتح الله عليه بالإسلام، ويسميه السعدي كنبر ويرى البعض ان اسم جنَى جاء من ملكها كنبر، ولكن ليس من صلة بينهما ولم يتحدث السعدي قط عن ذلك، كما يعتقد انه مشتق من الجنة لوقوعها في منطقة زراعية وفيرة الخيرات، حيث تتخللها فروع عديدة من نهر النيجر وهذا ماجعلها ميمونة مباركة كثيرة الخيرات من الزراعة والملح والذهب [2] .

2- التأسيس:

اختلاف الباحثون عن من قام بتأسيس المدينة وان كان هناك شبه إجماع على أنهم السونينكي، فيذكر السعدي أنها كانت على الكفر في أواسط القرن الثاني للهجرة ، واسلم أهلها عند تمام القرن السادس للهجرة /الثاني عشر للميلاد [3] ، في حين يقول الرحالة بارث أنها أنشئت عام 435هـ/1033م [4] ، ولكن مع تطور الدراسات الأركيولوجية والأثرية المسحية حلت لنا مشكل التأسيس، فقد توصلوا ان أقدم تواجد بشري في جنَى يرجع الى القرن الثالث قبل الميلاد، ومنذ القرن الأول الميلادي بدأت زراعة الأرز، وفي حوالي القرن الثاني الميلادي كانت جنَى مدينة كبيرة تتبعها قرى زراعية صغيرة ، ونحو 500م كانت توجد بها تجارة عابرة للصحراء[5] .

---

[1] . الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، المرجع السابق، ص 112.

[2] .عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 11.

[3] . نفس المصدر ، ص 12.

[4] . عبد الرحمان زكي :المرجع السابق، ص 224.

[5] . حسين مهدي صالح: جني من المملكة الوثنية إلى المملكة الإسلامية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة،1977، ص 02 .

3- الموقع:

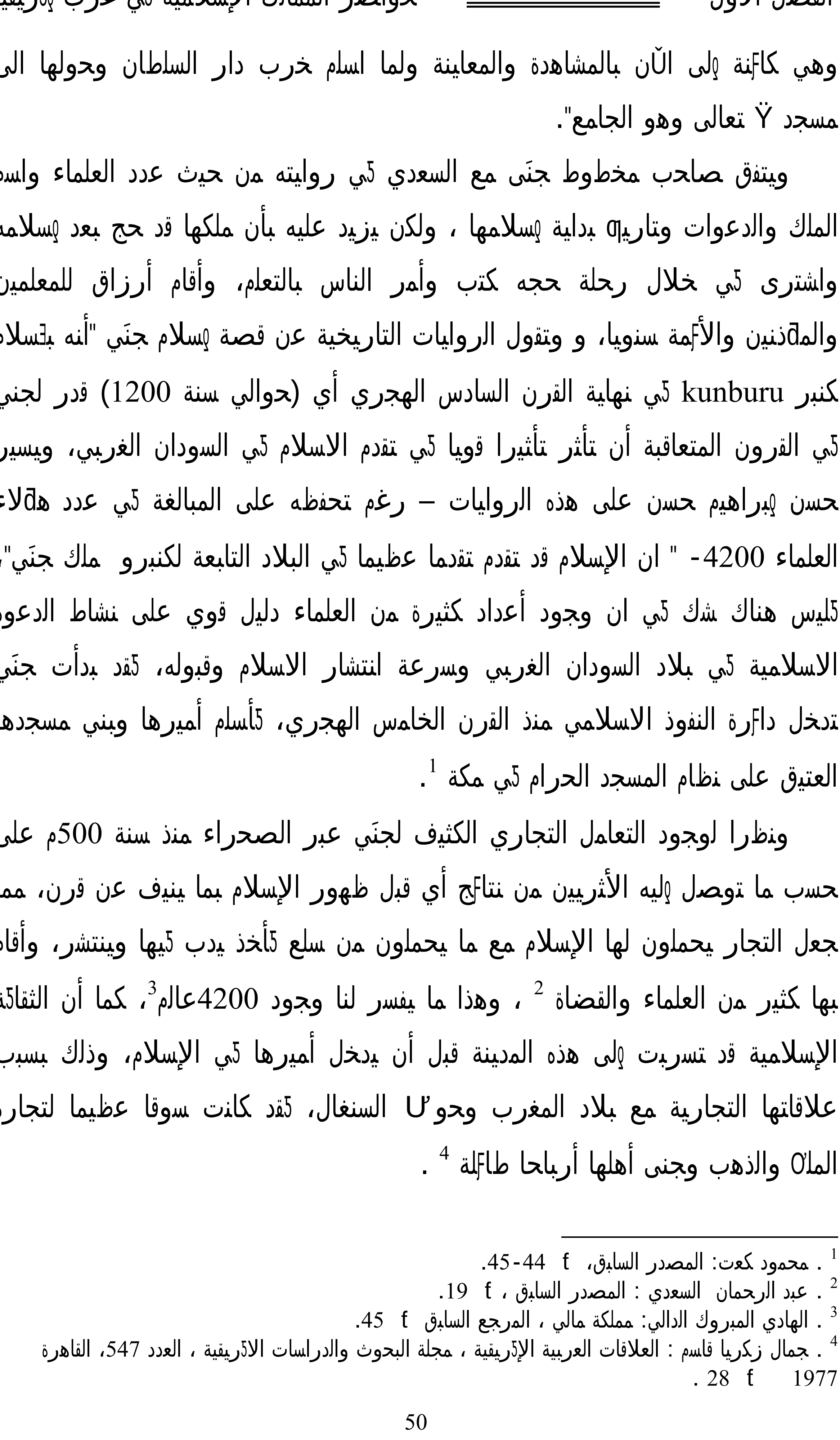
يذكر السعدي أن جنى تقع الى تنبكت في وراء البحرين بين المغرب واليمن في جزيرة البحر[1] ، وهي تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت [2] ، وكانت قد بنيت على نهر بني bani من جهة اليمين على أحد روافد نهر النيجر، وتقوم على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه في فصل الأمطار [3] .

وتقع على مقربة من مدينة موبتي أو مبتي Mopti في شمالها وهي اليوم من المدن الرئيسية في جمهورية مالي، وإن لم تكن كما كانت وتقع إلى الشرق من سلا silla برحلة قصيرة قوامها يومان، والمسافة بين جني وتنبكت رحلة مدتها اثنا عشر يوما ويقال إنها زاخرة بالسكان، وسكانها أكثر عددا من سكان سيجو sego بل وأكثر عددا من سكان أي مدينة اخرى من مدن بمبارا bambarra، وكلما أوغلنا شرقا من سلا أصبحت لغة البمبارا أقل استخداما، حتى اذا وصلنا الى جنى نجد معظم الناس يتحدثون لغة مختلفة يسميها الزنوج لغة جني كومو jennekummo ويسميها البربر لغة السودان (كلام السودان kalam soudan).

4- إسلام جني: يذكر السعدي [4] قصة إسلام جني : " ثم أسلموا عند تمام القرن السادس مع السلطان كنبر وهو الذي اسلم واسلم أهلها بإسلامه، ولما عزم على الدخول في الاسلام أمر بحشد جميع العلماء الذين كانوا في ارض المدينة فحصل منهم أربعة ألاف ومائتان عالما فأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعوا الله تعالى " بثلاث دعوات لمدينته تلك" وهي أن كل من هرب اليها من وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة ويسرا حتى ينسى وطنه ذلك، وأن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها، وأن يسلب الصبر من الواردين اليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها، فقرؤوا الفاتحة على هذه الدعوات الثلاث فكانت مقبولة

---

[1] . عبد الرحمان السعدي: المصدرالسابق، ص 12.
[2] . الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي الاسلامية ، المرجع السابق، ص 43.
[3] . عبد الرحمان زكي : المرجع السابق ص 224.
[4] . عبد الرحمان السعدي : نفس المصدر ، ص 13 .



وهي كائنة إلى الآن بالمشاهدة والمعاينة ولما اسلم خرب دار السلطان وحولها الى مسجد لله تعالى وهو الجامع".

ويتفق صاحب مخطوط جنَى مع السعدي في روايته من حيث عدد العلماء واسم الملك والدعوات وتاريخ بداية إسلامها ، ولكن يزيد عليه بأن ملكها قد حج بعد إسلامه واشترى في خلال رحلة حجه كتب وأمر الناس بالتعلم، وأقام أرزاق للمعلمين والمؤذنين والأئمة سنويا، و وتقول الروايات التاريخية عن قصة إسلام جنَي "أنه بإسلام كنبر kunburu في نهاية القرن السادس الهجري أي (حوالي سنة 1200) قدر لجني في القرون المتعاقبة أن تأثر تأثيرا قويا في تقدم الاسلام في السودان الغربي، ويسير حسن إبراهيم حسن على هذه الروايات – رغم تحفظه على المبالغة في عدد هؤلاء العلماء 4200- " ان الإسلام قد تقدم تقدما عظيما في البلاد التابعة لكنبرو ملك جنَي"، فليس هناك شك في ان وجود أعداد كثيرة من العلماء دليل قوي على نشاط الدعوة الاسلامية في بلاد السودان الغربي وسرعة انتشار الاسلام وقبوله، فقد بدأت جنَي تدخل دائرة النفوذ الاسلامي منذ القرن الخامس الهجري، فأسلم أميرها وبني مسجدها العتيق على نظام المسجد الحرام في مكة [1].

ونظرا لوجود التعامل التجاري الكثيف لجنَي عبر الصحراء منذ سنة 500م على حسب ما توصل إليه الأثريين من نتائج أي قبل ظهور الإسلام بما ينيف عن قرن، مما جعل التجار يحملون لها الإسلام مع ما يحملون من سلع فأخذ يدب فيها وينتشر، وأقام بها كثير من العلماء والقضاة [2] ، وهذا ما يفسر لنا وجود 4200عالم[3]، كما أن الثقافة الإسلامية قد تسربت إلى هذه المدينة قبل أن يدخل أميرها في الإسلام، وذلك بسبب علاقاتها التجارية مع بلاد المغرب وحوض السنغال، فقد كانت سوقا عظيما لتجارة الملح والذهب وجنى أهلها أرباحا طائلة [4] .

[1] . محمود كعت: المصدر السابق، ص 44-45.
[2] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 19.
[3] . الهادي المبروك الدالي: مملكة مالي ، المرجع السابق ص 45.
[4] . جمال زكريا قاسم : العلاقات العربية الإفريقية ، مجلة البحوث والدراسات الافريقية ، العدد 547، القاهرة 1977 ص 28 .

فإذا كانت التجارة قد ساهمت في نشر الإسلام فقد أدى الإسلام إلى مضاعفة النشاط التجاري"، وهذا ما حدث في جنَي حتى وصلت درجة سماحة الوثنيين من الملوك والأهالي أن تركوا المسلمين في جنَي يتبعون أنشطتهم التجارية والدينية بحرية كاملة، ويعلمونهم اللغة العربية وعلومها فازدهرت فيها الثقافة الإسلامية إزدهارا بعيد المدى، واقبل أهلها على الاغتراف منها حتى برع منهم كثيرون ، وأضحت مكتظة بالعلماء والفقهاء لدرجة وجود العدد الذي ذكره السعدي[1] فتدفقت من خلالهم المؤثرات الثقافية العربية الإسلامية حتى صارت جنَي مركزا ثقافيا هاما، وصار مسجدها مشهورا في كل وادي النيجر وكان مثل أهمية المسجد الحرام في مكة ذاتها [2].

5- جني خلال حكم مالي :

اختلف المؤرخون والباحثون حول الوضعية السياسية لجنَي في عهد دولة مالي، فمنهم من يرى استقلال جني السياسي والاقتصادي... في عهد مالي لعدم قدرة الأخيرة على الاستيلاء عليها، رغم محاولاتها العديدة [3] ومنهم من يرى تبعية جني السياسية لمالي، حيث استولت عليها دولة الماندينغو في عهد ماري جاطة أو منسى موسى ، ومنهم من نهج الطريق الوسط حيث جعلها تتبعه فقط بدفع الجزية لمالي، وربما هذا ما دعي السعدي للتركيز على حملات سني علي لفرض سيطرته على المدينة خلال بداية حكم سنغاي، وأن ذلك السلطان الذي وصفه السعدي بالفاجر حاصر المدينة أربع سنين ولم يدخلها [4]، كما أن المصادر السودانية لم تشر إلى تبعية جني لمالي إلا من خلال التجارة ودفع الجزية، بحكم أنها مدينة داخلية عنيت باستقبال البضائع المستوردة[5].

5- جنَي خلال حكم سنغاي : يتحدث السعدي [6] عن كيفية غزو سني علي لجنَي

---

[1]. الهادي المبروك الدالي : التاريخ الحضاري ، المرجع السابق، ص 112 .

[2]. سيكيني مودي سيسوكو : سنغاي من القرن الثامن عشر الى القرن السادس عشر، تاريخ افريقيا العام، المجلد 4، اليونسكو،المطبعة الكاثولكية،بيروت،1977، ص 204 .

[3]. سيكيني مودي سيسكو : المرجع السابق ، ص 218 .

[4]. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 15 .

[5] . Jean Suret-canal : Op-Cit, p181.

[6] . نفس المصدر، ص 14.

ويقول: " انه ما غاب أحد من قبل هذه المدينة سوى سني علي فاستولى على المدينة بعد حصار دام 7 سنوات و7 أشهر و7 أيام، وخلالها كان يقاتلهم يوميا في مكان نهري جاف من المياه يسمى زبر، حتى ترتفع مياه النهر فيعود الى موقع بري يدعى " نبكه شن " يزرعون حتى تنخفض مياه النهر فيعودون مرة أخرى للمقاتلة وهكذا مدة سبع سنوات، حتى أن وقعت المجاعة في جني، ورغم ذلك لم يعلم أحد من جنود وقوات سني علي فظلت تكابر حتى نقصت الأقوات إلى الذروة .

وفي هذه الأثناء فقد سني علي أمل استيلائه على المدينة وعزم على الرجوع إلى غاو، حتى حدثت خيانة من بعض قواد جنَي وأخبر سني علي بما يدور من مجاعة في المدينة، فأمتنع الأخير عن الرجوع حتى يرى الأمر، ثم شاور سلطان جني قيادات وكبراء جيشه في التسليم لسني علي فوافقوه، فبعث رسوله بذلك وبعدها خرج سلطان جني الصغير مع كبراء جيشه ونزل على قدميه ورحب بسني علي ، فلما رآه شابا صغيرا أجلسه بجانبه وأكرمه، وسرعان ما خطب منه أمه فتزوجها[1] ، وقد اختلف الباحثون في تاريخ دخول سني علي إلى حاضرة جني ويبدوا أن عام 1476 هو الأصح لسقوط المدينة ، لاتفاق كثير من المؤرخين عليه.

وهكذا سيطر سني علي على جني (881هـ/1476م) وتصدى لحملات الموسى وقبائل البول [2] ، ومات هذا السلطان الذي وصف من طرف مؤرخي السودان الغربي بأبشع الأوصاف عام (898هـ/1492م) وخلفه ابنه الأكبر أبو بكر داعو [3].

وهكذا يجد الباحث ان مدينة جنَي مثال مصغر لتنبكت، وقد عجت فيها وفود الطلاب نظرا لكثرة مدارسها [4] ، فكانت بها جامعة لتدريس العلوم الدينية والعلوم المدنية الأخرى وبلغ عدد الطلاب فيها نحو ألف طالب ، فكانت بذلك ذات قيمة دينية

---

[1]. عبد الرحمان السعدي : المرجع السابق ص 15 .

[2] . Robert cornevin, Op-Cit. p 253.

[3]. عبد الرحمان السعدي: المرجع السابق، ص 71.

[4]. نعيم قداح: المرجع السابق، ص 159 .

وعلمية معروفة [1].

فكانت جنَي ما نالته تنبكت من مظاهر إسلامية من حيث وجود العلماء والفقهاء ووفرة المساجد الجامعة والكتاتيب والمدارس والجامعات الإسلامية، والأساليب والأدوات التعليمية ، حيث ساوتها في شكل الاجازات العلمية، وأصبحت جنَي ونطاق تأثيرها الثقافي بجانب ولاته الممول الأساسي الذي لا ينضب لتنبكت بمجموعات العلماء والفقهاء لتجديد النظام الديني .

وكانت قد ظهرت في جنَي أسرة علمية شهيرة توارثت علوم الفقه والحديث والتفسير والتشريع واللغة والادب هي أسرة(بغيع او بغيع او بغيوغو او بغيوعو) على نسق أسرة أقيت العلمية في تنبكت، حتى أن أسرة أقيت تعود أصولها إلى إقليم ماسنه(ماسينا) والذي كان في كثير من حقبه الزمنية امتدادا حضاريا للتأثيرات الثقافية الجينية، حيث كانت جني في كثير من الأوقات تمثل العاصمة الثقافية الثانية للسودان الغربي، ويرجع هذا الازدهار العلمي أيضا إلى رخائها الاقتصادي، ووفرة الثروات الطبيعية والحيوانية والزراعية، ونستدل على ذلك أن المدينة قاومت منسى علي قرابة سبع سنوات[2] كما كانت سوقا تجارية كبيرا، تتدفق إليها السلع من الذهب والملح والغذاء عبر الطرق الصحراوية ،والطرق المائية لتتجمع في النهاية في مدينتي جني وتنبكت[3] .

المبحث الثاني:الحواضر الأخرى:

3- ولاته *:

تأسست في القرن الأول الهجري عرفت باسم " بيرو" لدى الكثير من الرحالة ، والتسمية تعني عند أهل المنطقة المدينة الكبيرة قال عنها الرحالة مانجو بارك أنها أكبر من تنبكت[4]، تم العثور فيها على شواهد تاريخية متمثلة في الألواح الحجرية على

---

[1]. جوان جوزاف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء،ترجمة مختار السويفي،ط 1،دارالكتاب المصري ، القاهرة ،1984 ، ص 84

[2] . زينب احمد هاشم: المرجع السابق، ص .104

[3] . كولين ماكيفيدي : أطلس التاريخ الإفريقي ، ت مختار السويفي ، ط1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، 1987 ، ص 105.

* مدينة تقع في موريتانيا حاليا، تقع في مقاطعة الحوض الشرقي .

[4] .Mungo Park:Voyage dans l’Intérieur de l’Afrique, Editions la Découverte, Paris ,1996,p185.

القبور تحمل أسماء زنجية وأخرى عربية والكتابات كلها بالعربية [1] ، تبعد عن العاصمة نوا قشط بحوالي 1200كلم إلى الشرق ، وهي تبعد عن تنبكت بنفس المسافة تقريبا [2]، أما تاريخ تأسيسها فلم تشر إليه الدراسات والمصادر التاريخية إلا أن خليل النحوي يضن أنها شيدت في القرن الهجري الأول [3] .

وتسمية ولاته يقال ان معناها : الأرض المرتفعة ، وتقع إلى الشمال الغربي من مدينة تنبكت، تأسست على أنقاض مدينة "بير" ولذلك يسميها البعض "بير" او"بير" [4] وذلك عقب هجرة العلماء والتجار المسلمين إليها بعد سقوط عاصمتهم كومبي صالح، والذين هربوا من مدينتهم خوفا من بطش قبائل الصوصو لهم و خشوا على أموالهم من النهب والضياع، فدخلوا إلى المدينة في بداية القرن السابع للهجرة /الثالث عشر الميلادي [5]، ويذكر ابن بطوطة ان هؤلاء التجار كانوا من قبيلة مسوفة[6] ، وأشار السعدي [7] إلى أنها كانت مأوى للتجار المسلمين بقوله : "وسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة " .

وعلى ضوء ما ورد ذكره كان يعيش بولاته عدد كبير من التجار المسلمين عرب وبربر وخاصة من قبيلة مسوفة حيث كان يفد اليها التجار وأصحاب الأموال من كل بلد، وتحول النشاط التجاري قليلا الى تنبكت فكانت عمارة تنبكت في خراب بير[8]، وزارها ابن بطوطة [9] وسماها " إيوالاتن " بمعنى نبتعد في لغة السوننك وهو ما قاله

---

[1] . أبو بكر أحمد المصطفى المحجوبي : منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور ، دراسة وتحقيق وتقديم ، الهادي المبروك الدالي ،ط1، 2001 ، بدون مكان. ص 122.

[2] . ولد حمادي : ولاته ، حاضرة العلم وحاضنة الدين ومنارة الثقافة في موريتانيا جريدة الراية موريطانيا2010/08/07 www.ereyde.com

[3] . الهادي المبروك الدالي : قبائل البرابيش ، ط1 ، دار الكتب الوطنية ، 2002 ، بدون تاريخ، ص 28.

[4] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق ، ص 21 .

[5] . عبلة محمد سلطان : العناصر المغاربية في السودان الغربي – دورها السياسي والحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاية دولة سنغاي، رسالة دكتوراه، مركز البحوث والدراسات الإفريقية جامعة القاهرة،1999، ص 156.

[6] . ابن بطوطة : المصدر السابق ،ج2، ص 361 .

[7] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 21.

[8] . نفس المصدر والصفحة .

[9] . ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص 351 .

المهاجرون الذين تركوا كومبي صالح واتجهوا إلى ولاته [1]. احتلت ولاته دورها كبوابة غربية لعبور التجار الى السودان الغربي وذكر ابن بطوطة [2] "أول عمالة السودان " وكان أخر الثغور لمملكة مالي .

وتحولت ولاته إلى سوق كبير في عام 600هـ /1203 م يرد إليها التجار من سائر البلاد المغربية من ورجلان و فزان و غدامس وتوات ودرعه و تافليلات و فاس والسوس [3]، بالرغم من بعدها عن نهر النيجر وعدم توفر الماء في طريقها .

ومن عوامل تردد التجار واستقرارهم بها هو الأمان الذي يشعرون به أثناء وجودهم بهذه المدينة كما قال ذلك ابن بطوطة [4] :

"فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من السارق ولا الغاصب، مع عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان بالقناطير المقنطرة، وإنما يتركون بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقيه " .

وكان وجود تجار العرب والبربر في ولاته بارزا، فقد ذكر ابن بطوطة [5] لما عزم الدخول الى هذه المدينة قام تاجر من سلا وهو صديق له من تأجير منزلا له قبل وصوله، وقد يكون أكثرية التجار من الطوارق وهم الذين أسسوها قبل تنقلهم إلى تنبكت [6].

وقد استنكر ابن بطوطة بعض تصرفات أميرهم واسمه فربا بعد المعاملة السيئة ، فعندما توجه إليه مع رجال قافلته كان جالسا في سقيفته وبين يديه أعوانه ، ويكلمهم بترجمان على قربهم منه واحتقارا لهم ، وعند ذلك خرج ابن بطوطة من بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للبيض [7].

---

1. مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص 204.
2. ابن بطوطة: نفس المصدر ، ص 353 .
3. عبد الرحمان السعدي :المصدر السابق ، ص 21 ، حسن الوزان : المصدر السابق ، ص 530 ، عبلة محمد سلطان: المرجع السابق ، ص 92 . - Mungo Park ,Op,cit,p158
4. ابن بطوطة :المصدر السابق،ج2، ص 364 .
5. نفس المصدر ، ص 353.
6. عبد الرحمان السعدي:نفس المصدر ، ص 21.
7. ابن بطوطة : نفس المصدر ، ص 352.

كما وصف ابن بطوطة أهل ولاته بالكرم، وأن سكانها محافظون على الصلوات وتعلم الفقه، وحفظ القرآن وأخبرنا أنه أمضي بضعة أيام أخرى في ولاته ووجدها : " شديدة الحر ، وفيها يسير نخيلات يزرعون في ظلالها البطيخ وثياب أهلها حسان مصرية " [1] .

فولاته تبدوا من حديث ابن بطوطة، بمثابة مركز للتجارة من سوادنين ومغاربة على السواء، وبحكم موقعها كانت تعد مركز استقبال القوافل، التي في طريقها إلى السودان الغربي[2]، وهي التي اجتذبت التجار بعد سقوط المدينة الغانية القديمة ، وتكلمت المصادر إلى انتقال التجارة إلى ولاته walata [3] .

وبذلك شهدت ولاته أوج إزدهارها الاقتصادي في عهد مملكة مالي، كما أشار إلى ذلك ابن بطوطة خلال القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي، إلا أن أحوالها تغيرت بعد ذلك وهاجرها سكانها الى مدينة تنبكت ولذلك قال عنها السعدي[4] : " فكانت عمارة تنبك من خراب بير".

ومن خلال ما عرف نستنتج أن ولاته اشتهرت بأنها حلقة للعلم ومنطلق لقوافل الحجيج وأيضا كميدان للحركة التجارية النشطة .

فقد وفد إلى ولاته الكثير من العلماء والصالحين، وأصحاب الأموال من كل فج ومن قبائل شتى، من سلجماسة ودرعة وتافيلالات وفزان وغدامس ومصر وغير ذلك.

ومن هنا تتضح العلاقة بين تطور التجارة وانتشار الإسلام في المنطقة فقد اشتهرت هذه المدينة أيضا بزراعتها وبساتينها التي عرفت ازدهارا كبيرا، فهي تقع في واد مشهور بخصوبة تربته وغزارة مياهه، مما جعل من ولاتة ملتقى لطرق القوافل التي كانت وسيلة ربط بين بلاد المغرب والسودان الغربي ، حيث كانت المدينة تمثل المرجعية الدينية والعلمية لسكان منطقة الحوض بصفة عامة .

---

[1] . نفس المصدر ، ص 364.
[2] . جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص 28.
[3] . Boubou (h): Op.cit. .P 353
[4] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 21.

4- غاو(أو جاو أو كوكو*):

تقع غاو ضمن الحدود السياسية الحالية لدولة مالي شرق العاصمة باماكو، وتبعد عنها ألف وأربعمائة كيلومتر.

وإلى الجنوب الشرقي من تنبكت بحوالي أربعمائة وخمسين كيلومترا [1] وعلى الضفة اليسرى لنهر النيجر حيث يتصل به وادي تلمسي[2] وهي تقع شرق تنبكت [3].

وكثيرا ما يقع خلط بينها وبين مدينة كوكيا عاصمة السنغاي القديمة الواقعة على نهر النيجر إلى الشرق من غاو حيث تبعد الثانية عن الأولى بحوالي مائة ميل شمالا [4].

تعد غاو أول مدينة لها اتصال مع الإسلام في الشمال الشرقي من مالي [5] ، كانت موجودة قبل مدينة تنبكت ذكرها البكري [6] بقوله:« أهلها مسلمون و حاوليها مشركون وهي أكثر البلاد ذهبا» اعتمد اقتصادها على معدن الذهب الذي اشتهرت به فشكل بها ازدهارا اقتصاديا.

نمت مدينة غاو كمركز تجاري مهم في عهد مملكة غانة واستمر هذا الدور في عهد مملكة مالي، وربما هذا ما أهلها أن تكون فيما بعد عاصمة لمملكة سنغاي من أكبر الدول الإسلامية السودانية .

ومما زاد من أهمية الحاضرة إرتباطها بأعمال التجارة ورحلات القوافل التي تسير في أوقات محدودة في مسالك معلومة ، وكان لموقع غاو أهميته المتعددة المنافع

---

*. وردت بهذا الاسم عند ابن خلدون،أنظر العبر،ج6، ص 266، .Jean Suret-canal :Op-Cit,184

[1] . الهادي مبروك الدالي:التاريخ الحضاري السياسي ،المرجع السابق، ص 106، إسماعيل العربي: المرجع السابق ، ص 317

[2] . مطير سعد غيث : المرجع السابق، ص 201.

[3] . عبد الحكيم العفيفي: المرجع السابق ، ص 18.

[4] . عزالدين عمر موسى:المرجع السابق، ص 76.

[5]. Yattara El mouloud : L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du VIIIème au XVIème siècle. P02.www. histoire-afrique.org

[6]. ابن عبد الله ابن عبد العزيز البكري:المغرب في ذاكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك) مكتبة أمريكا والمشرق –باريس 1965، ص 179.

تعبرها السلع القادمة من الجنوب من ذهب وملح ومواد أولية، بالإضافة إلى الحجاج المتوجهون إلى الحجاز و تصلها السلع من الشمال الأفريقي والمشرق العربي والهند [1].

ولذلك ازدهرت غاو لموقعها الإستراتيجي الهام، فهي تقع في الطريق التجاري الرابط بين بلاد السودان والمغرب، ففي سنة 400هـ/1009م أسلم على أيديهم ملكها "زاكسي"[2]، وازداد عدد سكانها بعد ذلك حتى وصل إلى تسعة آلاف وثمانية وعشرون منزلا كبيرا مجهزا، بالإضافة إلى البيوت التي يسكنها الفقراء وعامة الناس، فضلا عن ستة وعشرين بيتا -من بيوت- مبنية من غير الأخصاص وبها مائة وخمسون مدرسة[3].

وسجل حسن الوزان ازدهار غاو أوائل القرن العاشر الهجري من الناحية الاقتصادية، فقد كانت تعج بالتجار الذين كانوا يتاجرون في مختلف البضائع وعلى رأسها الأقمشة التي يحضرونها من المغرب وأوروبا [4]، وأطلق عليها اسم كاغو التي يقول أنها أدت دورا حضاريا متميزا، فكانت أكثر من قريناتها في الحضارة باستثناء مدينة تنبكت، وسكانها خلطاء من الزنج والعرب والفلان والطوارق[5].

وقد أصبحت غاو عاصمة مملكة السنغاي مركزا تجاريا هاما في تلك المنطقة، وجاءها التجار العرب والمسلمين، وسرعان ما أصبحت هذه المدينة مثل تنبكت من ناحية الدعوة الى اعتناق الديانة الإسلامية، فقد امتلأت العاصمة بمجالس العلم، ووفد إليها العلماء المسلمون من الدول الإسلامية، كما وفد اليها طلاب العلم من مناطق المملكة والمناطق الأخرى المجاورة [6].

ويتضح من خلال ما ذكر أن غاو مركز تجاري كبير يضاهي المراكز التجارية الأخرى بالسودان الغربي مثل تنبكت وجني في عهد مملكة مالي، فازدادت غاو مكانة بعد تحولها إلى عاصمة سياسة لمملكة سنغاي، ومقرا لرجال الدولة وطلاب العلم والأساتذة والتجار، واشتهرت بتجارة الرقيق وأصبح سكانها من الأثرياء، إلا أن

---

1. الهادي مبروك الدالي: التاريخ الحضاري ، المرج السابق، ص 108.
2. عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق، ص 03.
3. محمود كعت:المصدر السابق، ص 146،عبد القادر زبادية:مملكة سنغاي ،المرجع السابق ، ص 109.
4. حسن الوزان: المصدر السابق، ج 2، ص 169، 170، مطير سعد غيث:المرجع السابق، ص 203.
5. الهادي المبروك الدالي: قبائل البرابيش ،ط1، دار الكتب الوطنية،2002،بدون مكان، ص 29.
6. جوان جوزيف:المرجع السابق ، ص 82.

أهميتها تعاظمت بعد تحولها إلى عاصمة في عهد الإسيقيين، حيث حاول سني علي في توسعاته التحكم في تجارة الذهب بالسيطرة على محور جني تنبكت [1]، وبلغت غاو أوج ازدهارها في عهد الأسقيا الحاج محمد الأول، فوفد عليها التجار من عدة مناطق وأصبحت مقرا لحكم السلاطين[2].

وعندما زارها عبد الكريم المغيلي التلمساني سنة 908هـ/1502م على أيام الأسقيا محمد الكبير، كان الأجانب يشكلون فئة كبيرة بالمدينة وكان منهم التجار بالإضافة إلى الأئمة والفقهاء والقضاة الذين يختصون بالنظر في الجرائم العامة والجنح والخلافات بين المواطنين [3].

وأصبحت حاضرة تضاهي المدن الأخرى مثل تنبكت وجني، فقد تنازع أناس من أهل كانو وجماعة من أهل غاو أيهما أكبر وذلك في عهد سلطة أسكيا الحاج محمد، إذ يقول محمود كعت:" وأخذو ورقة ودواة وقلما ودخلوا بلد كاغ (غاو)، و إبتدأوا من أول بيت بمغربها يعدون القصور واحدا واحدا إلى ثلاثة أيام إلى انتهاء البلاد من المشرق، فجاءت سبعة ألاف وست مائة وعشرون غير بيوت مبنيات بالحشيش [4].

5- تغازا*:

تقع تغازا جنوب المغرب الأقصى، قرب البحر المحيط على الطريق الرئيسي بين المغرب، و تنبكت تمتد في صحراء وحشة يمر بها التجار من تلمسان إلى تنبكت [5].

تكتسي أهميتها من معدن الملح المستخرج منها ولوجودها على الطريق الرئيسي التجاري الذي يمر بها والمسمى"طريق الذهب " ، وهي عبارة عن قرية صغيرة كانت ملتقى للتجار القادمين من السودان[6].

---

[1] . عز الدين عمر موسى:المرجع السابق، ص 100.

[2] . الهادي المبروك الدالي:التاريخ الحضاري ، المرجع السابق، ص 108.

[3]. نعيم قداح: المرجع السابق ، ص 171.

[4]. عزالدين عمر موسى :المرجع السابق، ص 146.

* يقول الأدريسي ومنها يحمل الملح الى جميع بلاد السودان، ويذكر بلاد التكرور ، ثم يضيف أنه لا يوجد الماء إلا بعد مسير إثنى عشر يوم، من التكرور الى سجلماسة ، أنظر الشريف الإدريسي : المغرب وأرض السودان و مصر و الأندلس (مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، طبع ليدن بريل،1863، ص 02، 03.

[5] . حسن الوزان : المصدر السابق ، ص 150 .

[6] عبد الرحمان ابن خلدون: المصدر السابق، عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 11.

وكان الرقيق هم العاملون بهذه المناجم [1]، ولما زارها ابن بطوطة وجدها عبارة عن قرية صغيرة إلا أن بها تبادل تجاري كبير حيث يقول : إن قرية تغازا على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب ، ويتبادلون الملح مقابل الفضة [2] .

لتغازا أهمية اقتصادية كبيرة نتيجة تبادل السلع بها، ولذلك أضحت مركزا كبيرا للجالية المغاربية من تجار العرب والبربر وعن طريقها انتقلت مؤثرات الثقافة العربية الاسلامية الى المناطق المجاورة .

وظلت تغازا المصدر الرئيسي للملح ببلاد السودان لعدة قرون، وكانت مركزا مهما لتجارة الذهب يتم فيها تبادله بالملح وقد أشار إلى ذلك ابن بطوطة بقوله : "...وقرية تغازا على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من الذهب ".

ولم تدخل تغازا تحت سيطرة احد بل كانت السيطرة فيها لقبيلة مسوفة الصنهاجية، ولم تخضع لسلطة مركزية إلا في عهد مملكة سنغاي أثناء حكم محمد الكبير(899هـ-935هـ/1493م-1528م)وتم الاستيلاء عليها نهائيا عام 1000هـ/1591م عند دخول السعديين بقيادة احمد المنصور الى بلاد السودان ، وتحولت بعد ذلك السيطرة عليها من القبائل البربرية الصنهاجية الى السودانيين.

6- تكدا :

اشتهرت تكدا بإنتاج النحاس الذي يستخرج من مناجمها، ويحمل إلى بلاد السودان ويسبك لصك العملة، ومن تكدا تسير القوافل الى برنو حيث يجلب العبيد والثياب .

وكان كثير من سكانها تجارا، فيروي ابن بطوطة أنه التقى ببعض التجار العرب منهم سعيد بن علي الجزولي، هؤلاء التجار كانوا يسطرون على تجارة النحاس الذي يحملونه الى كوبر وزغاري وبلاد برنو على مسيرة أربعين يوما من تكدا ويأتون من هناك بالثياب والجواري الحسان[3]، ولم تستمر هذه الصناعة فيما بعد، فقد ذكر الرحالة

---

1. محمد عوض : المرجع السابق ، ص 121-128
2. ابن بطوطة: المصدر السابق ،ج2، ص 348 .
3. نفسه ، ص 370.

بارث (القرن 19م) انه لم يجد أثرا لمناجم النحاس خلال زيارته لتكدا [1]، وهذا راجع إلى أن المدن ككيان مادي أضعف من الحضارة المعنوية التي تخرج منها، فالأفكار والعقائد والمثل العليا لا تموت ولا تندثر، ولكنها تنتقل بطرق أخرى لتدخل في البنيان العقلي للبشر[2].

خاتمة الفصل:

إن تاريخ الحواضر هو تاريخ الشعوب الذين اجتهدوا في التطور الحضاري الذي انتج مظاهر الحياة العلمية، فكان منها العمران الذي ساهم في تجمع السكان، فنشط التبادل الفكري بفضل تجمع الطاقات من التجار والدعاة والعلماء وساعد هذا كله على استقرار القبائل في المدن .

ولم تكن المدن التي أخرجت الحضارات لتصمد لولا قوة سكانها معنويا وماديا، فأهم سنة من سنن التاريخ، هي سنة الصراع بين البشر بسبب تباين أفكارهم وتفاوت ثرواتهم، وكان التنظيم والقوة [3] جزء من عقيدتهم الإسلامية التي رسخت حب العلم والاجتهاد في التطور.

فالحاضرة هي المكان الطبيعي للفرد المتمدن المتحضر، وذلك لأنها تمثل رقعة حضارية يجتمع فيها الناس من مختلف الأجناس، ينشغلون في أكثريتهم بأنماط إنتاجية غير زراعية [4].

لقد استندت حواضر غرب إفريقيا في تأسيسها وازدهارها على أربع عناصر هي :

أولا: العنصر الخاص بالمسائل المالية والصرف، والتي ترتبط بجمع الضرائب وحركة النقود بين التجار والسكان في المدينة.

ثانيا : وجود السوق التي تجتمع فيها المعاملات التجارية من بضائع ومهن ، سواء كانت أسواقا ثابتة كالمحلات التجارية التي يضمها مكان مسقوف ولها مداخل، أو الأسواق الأسبوعية التي تكون معلومة الزمان والمكان، حيث يتبادل سكان الحواضر

---

[1]. Barth : op.cit .t1.p365.

[2]. عبد الحكيم العفيفي : المرجع السابق . ص 08.

[3]. نفس المرجع ، ص 07

[4]. عبد الجبار ناجي : المرجع السابق ، ص 17.

مع سكان الأرياف والقرى البضائع و المنتوجات، فتكون في الغالب بضائع الحواضر ما جلبته قوافل التجار، بينما بضائع الأرياف مواد زراعية أو أولية كالصوف أو الجلود .

ثالثا: وجود المدارس التي تكون في العادة ملاصقة للمسجد الجامع في المدينة، مثل المدارس التي وجدت في تنبكت وغاو، ولعل مسجد سنكري المعلم البارز في تاريخ الحياة العلمية بحواضر السودان الغربي .

رابعا: وجود تنظيم داخل الحاضرة من حيث الشوارع والمهن وتوفر الأمن، وتلبية حاجيات الكثافة السكانية بصفة عامة ، ويحيط بالمدينة في الغالب سور كبير لحمايتها من الأخطار الخارجية .

وعموما فإن حواضر غرب إفريقيا تميزت بسعة المساحة، والرخاء الاقتصادي، والموقع التجاري الهام، كما توفرت على المياه، فساهمت هذه المميزات في ارتفاع كثافة السكان ، وازدياد نشاط أسواقها ، وانتظام عمرانها .

الفصل الثاني :التبادل العلمي بين حواضر غرب إفريقيا والأقطار الإسلامية .

مقدمة الفصل .

المبحث الأول: التبادل العلمي بين حواضر غرب إفريقيا و المغرب الإسلامي.

1- ا لمغرب الأقصى.

2- المغرب الأدنى:

3- -المغرب الأوسط :

4-ليبيا(طرابلس،غدامس) .

المبحث الثاني:التبادل العلمي حواضر غرب إفريقيا وباقي الأقطار الإسلامية.

1-الأندلس .

2 مصر.

4- الحجاز.

خاتمة الفصل.

مقدمة الفصل:

لقد هيأ الإسلام للقارة أن تتصل بحضارات جديدة في وقت مبكر، وجعل المجتمع الإفريقي منتسبا إلي المجتمع العالمي الإنساني، يؤمن بالقيمة الإنسانية والمساواة ويحث علي التعاون و التعاطف والعمل والعلم.

وقد أحدث الدين الإسلامي نشاطا ثقافيا عظيما فأتاح للمناطق المختلفة صلات التزاوج و الجوار و الثقافة، و حمل اللغة العربية على الانتشار في أوسع نطاق، و ظلت المدارس القرآنية واللغة العربية في غرب إفريقيا نبراسا لتقاليد اجتماعية وأمجاد أصيلة، أمدت المفكرين السودانيين بمادة أصيلة عن أمجادهم التاريخية واعتبروها جزءا من تراثهم الذي لا ينفصل عن تاريخهم[1] .

لعبت حواضر المغرب الإسلامي دور لا يمكن إغفاله في نقل المؤثرات العربية الإسلامية إلى شعوب غرب إفريقيا، وتم ذلك عن طريق الصحراء الكبرى التي لم تكن عاملا من عوامل الانفصال، بقدر ما كانت حلقات الاتصال الثقافي والحضاري بين المناطق الواقعة في شمالها وبين المناطق الواقعة إلى جنوبها في بلاد غرب السودان [2].

وتطورت الروابط العلمية والثقافية بانتقال التجار والدعاة والفقهاء، الذين كان يدفعهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حمر النعم"، إلى عمق أقاليم غرب إفريقيا وحواضرها المترامية الأطراف المتباعدة المسافات المتنوعة الأجناس والقبائل والأعراف، وكان من هذه الحواضر (بير) التي كانت مأوى العلماء قبل أن تبنى تنبكت، إذ يؤكد المؤرخ السعدي ذلك بقوله "وسكن بير الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل البلاد من أهل مصر و أوجلة و فزان و غدامس وتوات، ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليلا قليلا "[3].

والباحث في تطور الحياة العلمية والثقافية في إقليم غرب إفريقيا يجد أن فترة الازدهار تمتد بين القرنين الثامن والعاشر هجري/ والرابع عشر والسادس عشر

---

[1]. نعيم قداح: المرجع السابق، ص 08

[2]. جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص 29.

[3] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 21.

ميلادي حيث كانت السفارات إلى تونس الحفصية، وفاس، و غدامس وتوات وطرابلس وتلمسان وبجاية « Bijayya » تتجه نحو تنبكت في مالي، وغاو في سنغاي [1] .

وقد ساهم العرب والمسلمون في إطلاع العالم على ما كان يجري في السودان الغربي ، فخلال القرن الخامس عشر ميلادي كان الجغرافيون والمؤرخون المسلمون الذين جاءوا من مناطق المغرب و الأندلس ومصر وشبه الجزيرة العربية، هم من كتبوا عن إفريقيا جنوب الصحراء ، باللغة العربية حيث تعد المعلومات التي أوردوها حقائق محايدة و" إن كانت مجزأة جدا وتقتصر على بلدان العبور - limitro- من الصحراء أو من الساحل الشرقي لأفريقيا "[2] .

ولهذا رأيت أن أقيم فصل التبادل العلمي بين الأقطار الإسلامية وغرب إفريقيا لأوضح أهمية هذا التواصل والتأثير في تعميق روابط الاتصال الذي ساهم بشكل فعال في نقل قواسم مشتركة دفعت المنطقة إلى الخروج من ظواهر طالما ارتبطت بالفرد الأفريقي، وقد قسمته إلى مناطقتين رئيسيتين:

المبحث الأول:

- التبادل العلمي بين حواضر غرب إفريقيا و المغرب الإسلامي.

كانت العلاقات في جميع الأوقات بين إفريقيا جنوب الصحراء، وما يسمى عند هيرودوت ليبيا أو التي نسميها الساحل البربري (طرابلس، تونس، الجزائر، المغرب) تتم عبر الصحراء لتبادل غبار الذهب – التبر- بمواد أخرى[3].

لقد زاد التبادل العلمي وقويت العلاقات الثقافية بين المغرب الإسلامي وغرب إفريقيا أكثر بعد قيام دول مستقلة، وأخذت الصلات الحضارية تزداد، ومعرفتهم بتلك الأقاليم البعيدة تتسع.

---

[1] . Sambe, Bakary (IEP. Institut d'études politiques. Lyon. France): L'Islam dans les relations Arabo-africaines. *www.arabpsynet.com.17.12.2010*

[2] . Maurice Delafosse: LES NOIRS DE L'AFRIQUE. Collection Payot, Payot et Cie, Paris, 1922. Édition numérique réalisée le 11 avril 2010.p24.

[3] . Maurice Delafosse .Op.Cit.P26.

ومع ازدياد الرحلات وتواتر الروايات من المشاهدة بفضل الرحالة، ومن السماع به بما ينقل عمن لم يشاهدوا، ومن المبالغات و التهويل في أدب العجائب و الغرائب الذي اقترن بأدب الرحلات والأسفار.

فالأرضية التي نمت عليها الصلات المغاربية مع غرب إفريقيا هي أولا أرضية الصلات التي كانت تربط بين أجزاء تلك المنطقة قبل انتشار العرب و ظهور حضارتهم مع الإسلام، ومهد ذلك إلي تلاحم حضاري و تداخل عرقي بين مجموعات السكان من شمال القارة إلي المناطق الاستوائية .

وربما هذا التداخل ما جعل المؤرخين يذهبون إلى أن بعض الأسر الحاكمة في غرب إفريقيا أصلها من الشمال مثل أسرة ضياء في سنغاي، فالعرب الذين دخلوا إلى شمال إفريقيا في المراحل الأولى للإسلام هاجروا كعائلات إلى داخل القارة[1] فكان البدو والرعاة المتجولون في الصحراء الوسطاء الأساسيون في حركة الاتصال بين شمال و جنوب الصحراء [2] .

يمتد التأثير المغربي عبر عدة قرون من دولة الأدارسة (182هجري/788 م) إلى دولة المرابطين التي كان لها الفضل في نشر الإسلام وحضارته على الساحل الإفريقي والغربي لبلاد السودان [3]، وتعمقت الروابط الاجتماعية بهجرة البربر وتمت التجارة، ونشطت القوافل عبر الصحراء، ونشأ جيل جديد كان له الفضل في قيام إمبراطورية إسلامية سودانية واسعة [4] .

إن التبادل العلمي والثقافي بين الدول الإسلامية وغرب إفريقيا التي كانت تعرف بالسودان الغربي لم تبدأ مع المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي التي عمقت انتشار الإسلام في هذه البلاد كما هو مشهور، بل إن الصلات المتنوعة كانت موجودة قبل عهد المرابطين بما لا يقل عن أربعة قرون .

---

[1] . -J.Spencer Trimingham: Islam in west africa –London-1970,p09.

[2]. مور اوليفر: المرجع السابق ص 16 ..أ. د

[3]. حسن إبراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ،مكتبة النهضة العربية ،ط3، 1984، ص 17.

[4] . عبد الرحمان ابن خلدون :المصدر السابق ، ص 181

إن هذه العلاقات لها جذور تاريخية ترتبط بظهور الإسلام في شمال إفريقيا ثم الأندلس ، وهناك من يرجع بعض المؤرخين هذه العلاقات إلى عهد عقبة بن نافع سنة 50 للهجرة .

يذكر ابن عذارى أن عقبة انحدر في حملته الثانية من بلاد المغرب إلى السودان وفتح كورة من كور السودان وبني مساجد في هذه البلاد[1]، ولعل هذا الرأي مبالغ فيه بالنظر إلى الأحداث التاريخية التي طبعت فتح شمال إفريقيا والأندلس، ولكن ذكر المصادر لهذا الحدث يدل على معرفة المسلمين بتلك البلاد، ورغبتهم في نشر الاسلام فيها، وتزداد الروابط العلمية والاتصال الثقافي في عهد موسى بن نصير[2] ، الذي ولى طارق بن زياد إمارة طنجة بالمغرب وأنزل معه سبعة آلاف من العرب، و اثني عشر من البربر و أمرهم بأن يعلموا البربر والمسلمين السودانيين المجاورين لهم القرآن والفقه [3]، وذلك في الربع الأخير من القرن الأول الهجري، ثم توالت الاتصالات والروابط بين المسلمين وسكان غرب إفريقيا، وخاصة المدن القريبة من المناطق الأولى التي استوعبت الدعوة الإسلامية، و من هذه المدن أودغشت إذ يبين المؤرخون أنها اقرب الأماكن الإسلامية إلى بلاد السودان الغربي، وأنها مدينة كبيرة بها مساجد يوجد في جميعها المعلمون الذين يقومون بتعليم التلاميذ القرآن الكريم وان فيها علماء فاقو في علمهم عبد الله بن ياسين فقيه المرابطين [4].

ويشير ابن خلدون إلى دور المرابطين في نشر الإسلام وثقافته عندما يقول:"وأسلم الملثمون واتحدوا تحت لواء الإسلام وأرسلوا الدعاة إلى بلاد الإسلام ينشرون الإسلام وثقافته [5]" كما يعزى إليهم تأسيس مدينة تنبكت التي أصبحت من أعظم الحواضر الإسلامية في بث الثقافة الإسلامية والعربية ببلاد السودان الغربي.

1 . ابن عذارى المراكشي:البيان ا لمغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،تحقيق ومراجعة ج س كولان و إ ليفي بروفنسال ج1،ط3، دار الثقافة ،بيروت ،لبنان 1983م ، ص 28، ياقوت الحموي : المصدر السابق، ص 486.

2 . Yattara El mouloud : L'islam et les voiesOp-Cit. P02.www. histoire-afrique.org

3 . عبد الرحمان ابن خلدون: العبر، المرجع السابق، ص 144 .

4 . البكري : المصدر السابق، ص 157 .

5 . عبد الرحمان ابن خلدون :نفس المصدر ، ص 181 .

وفي عهد الموحدين* كان تأثيرهم على الحياة العلمية والثقافية اقوي، ويعود هذا أساسا إلى اهتمامهم ببناء المساجد وأماكن العلم في المغرب الإسلامي والأندلس، ومن ثم انتقل تأثيرهم إلى أقاليم غرب إفريقيا، فامتدت الثقافة الإسلامية وانتشرت المراكز العلمية من طرابلس شرقا حتى غانة و إلى قلب القارة الإفريقية، وكان للموحدين فضل كبير في نشرها[1].

ومما لاشك فيه أن الوضع الجغرافي للصحراء الكبرى و امتداداها الطبيعي للشمال الإفريقي، قد ساعد على تطعيم و تغذية الجو التعليمي بما يحمل الرحالة من أنباء وأفكار عن العلم والعلماء والكتب والتأليف الجديدة وحلقات التدريس والمناظرات التي تؤكد مدى التواصل الفكري و التتبع الدقيق لكل ما هو جديد، ولاشك أن شعوب غرب إفريقيا اتبعت المذهب المالكي محمولة أصلا إلى التطلع للشمال الإفريقي ذي المذهب المالكي بدل المشرق، وكذالك الحال بالنسبة للكتب والمؤلفات التي كانت تدرس حيث تبنوا نفس النسق المنهجي للتعليم بأصنافه المغربية أو التونسية التي كانت معروفة لديهم [2] .

وكان لتشجيع العلم من جانب حكام المغرب الإسلامي تأثير غير مباشر في انتقال هذا الاهتمام إلى أقاليم غرب افريقيا، فقد وصف ابن بطوطة هذا التشجيع عندما يتكلم عن أمير تونس أبي يوسف بن عبد الحق بقوله "كان يحضر مجلس الفقهاء والقضاة فيرد إليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية "، ويقول في موضع آخر:"لو أن عالما ليس له شغل إلا بالعلم ليلا ونهارا لم يكن يصل إلى أدني مراتب مولانا أيده الله مع اشتغاله بأمور الأمة "[3]، وقد يكون هذا الكلام فيه نوع من المبالغة ، لكنه دون شك يدل على اهتمام الحكام بالعلم وما يتصل به من الحكم على الرعية وعامة الناس .

---

* دولة الموحدين عام (1121-1269)امتد نفوذها وتمكنت من توحيد المغرب الإسلامي والأندلس كان ابن تومرت(/1121-1129) مؤسسها وعبد المؤمن بن علي قائدها العسكري.

[1]. حسن إبراهيم حسن:المرجع السابق، ص 18 .

[2] . عبد الجليل التميمي : الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ، ووسط و غرب إفريقيا خلال العصر الحديث ، مجلة المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، تونس 1985 . ص 67.

[3]. ابن بطوطة :المصدر السابق ، ص 646-647.

ويزداد التبادل العلمي بين المغرب الإسلامي وغرب إفريقيا بتأصل الإسلام وانتقاله إلى مختلف ميادين الحياة، ويبدو هذا واضحا في عهد مملكة مالي وسنغاي فالمدارس في غرب افريقيا كانت تشبه المدارس المغاربية من حيث الوسائل وطرق الكتابة والخط، فقد جاء كتاب من سلطان مالي الى الحضرة السلطانية بمصر، وهو بالخط المغربي* في ورق عريض[1]، ولا يبدو هذا غريبا بالنظر الى العامل الجغرافي والتاريخي في علاقات المنطقتين التي تعود الى القرن الخامس الهجري /الحادي عشر ميلادي، لذا نجد أن سلاطين الممالك الاسلامية في غرب افريقيا كانوا يرسلون الطلاب إلى مدن المغرب الإسلامي بهدف التحصيل العلمي، وفي عهد السلطان المالي منسى موسى اشتهر فقيه (كاتب منسى موسى) الذي أرسله السلطان ليتابع حلقات العلم ، ثم رجع إلى بلاده وقد تمكن من مادته العلمية وبدأ يدرس في المدارس السودانية [2].

1- المغرب الأقصى:

كان هذا التبادل العلمي يعكس شهرة المعاهد والمدارس المغاربية مثل جامع القرويين بفاس الذي قال عنه حسن الوزان: في هذه المدينة (فاس) جامع كبير يسمى جامع القرويين، وهو كبير للغاية ويلقي الدروس فيه الأساتذة الأكفاء بموادهم المختلفة وشجعهم الأمراء والسلاطين، فيعطونهم مرتبات مجزية كما تقدم لهم الكتب والإضاءة الكافية ، ثم يتكلم عن وقت الدراسة فيقول:" تبدأ الدراسة في فصل الشتاء بعد الفجر بقليل وتنتهي بعد شروق الشمس بساعة أما في فصل الصيف فلا تلقى الدروس وإبتداءا من منتصف الليل حتى الساعة الواحدة والنصف نهارا"[3] وهذه هي أوقات الدراسة في حواضر الممالك الإسلامية في غرب افريقيا تقريبا .

أما عن المناهج التعليمية فيخبرنا حسن الوزان بان التدريس يكون في مواد متعلقة

*. أنظر الملحق رقم 10 ص 215.

1 . ابن فضل الله العمري :المصدر السابق، ص 74.

J.Spencer Trimingham: The influence of islam upon Africa –London,1968,p10.

2 . عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق، ص 57.

3 . حسن الوزان: المصدر السابق،ج2، ص224.

بالعلوم الأخلاقية والروحية المتصلة بالشريعة الاسلامية [1] وهو الشائع في ذلك العصر بأغلب الدول الاسلامية وهذا يدعم رأينا في قوة التأثير المغاربي على الحالة العلمية في أقاليم غرب افريقيا .

ويوضح الوزان أن الأمراء كانوا يهبون الأملاك وينفقون الأموال على المعاهد والمساجد وتعلم الأولاد بسخاء فيقول : "وفي فاس أحد عشر معهدا للتلاميذ حسنة البناء للغاية وأنها مجهزة ونظيفة ومتسعة"، وأعطى مثالا على ذلك بمدرسة أبي عنان قال أنها تحوي أكثر من مئة غرفة [2] .

وهكذا أصبحت مدينة فاس مدينة من مدن العالم المشهورة و كعبة يحج اليها الطلاب من كل البقاع واشتهرت بكثرة مساجدها، ويعود سبب ازدهار فاس إلى هجرة علماء قرطبة بسبب الاضطرابات السياسية حتى لقبت فاس ببغداد المغرب [3] ، و من الطبيعي إذا أن تكون بدورها قبلة لطلاب حواضر المماليك الإسلامية في غرب إفريقيا .

لقد كانت مدينة فاس في إشعاعها الحضاري و أثرها الثقافي تمثل حقيقة "المدينة الأم" حيث كان لها أثرها الثقافي في المنطقة المحيطة بها فكما كان قيام القيروان هو الخطوة الأولى في انتشار الإسلام في المغرب كان قيام فاس الخطوة الاولى في قيام افريقيا الاسلامية [4].

2- المغرب الأدنى:

إن موضوع تبادل التأثيرات بين تونس وغرب إفريقيا ذات أهمية بالغة إذ تعتبر الجسور الثقافية والعلمية تاريخية وعميقة بين الدولة الحفصية و بلاد السودان، خلال القرن الخامس عشر ميلادي و استمرت طوال القرن السادس عشر، ونشطت قنوات الاتصال عن طريق التجارة و الحج والتعليم[4]. وكذالك كان علماء تنبكت خلال

---

[1] . حسن الوزان: المصدر السابق،ج2، ص224..

[2] . حسن الوزان : المصدر السابق، ج2 ، ص 225، نعيم قداح:المرجع السابق، ص 147.

[3] . جمال أحمد طه :مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين(448ه/1065مالى 668ه/1229م) ، ط1:دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الإسكندرية (بدون تاريخ)، ص 304 .

[4]. عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ص 62 .

رحلاتهم كثير الزيارات لجامع الزيتونة، وقد اشتهرت عالميا تنبكت ببيع المخطوطات المغربية والتي أصبح التجار عن طريقها يحصلون على أكبر ربح على الإطلاق و هو الربح الذي فاق السلع الأخرى.

واستمر التبادل الثقافي باقتناء الكتب و طلب العلم واشتهر علماء من تونس مثل العالم أبي إسحاق إبراهيم الرياحي والإمام محمد حسن الشريف، و الشيخ إسماعيل التميمي و أبي عبد الله محمد بن بكار الصدام القيرواني[1]، و أثرت الموسيقى السودانية في الأعراس و طابع الرقص المصاحب للذكر الديني في الزوايا و غيرها وهو ما يترجم التأثير الموسيقي في وسط وجنوب تونس[2].

ومن القيروان انطلقت الفتوحات الى المغرب و الأندلس و اشتهرت بعلماء منهم ابن رشد القيرواني صاحب الرسالة المشهورة في الفقه المالكي، والتي كانت تدرس ضمن المناهج التربوية في بلاد السودان، و قد أشار السعدي إلى أهمية هذه الرسالة و تداولها بين أيادي العلماء الكبار في السودان الغربي [3].

وقد تتلمذ العديد من الطلبة الذين تحولوا الى أساتذة وعلماء ساهموا في ازدهار الحياة العلمية في المغرب والأندلس، فوصف الحميري مدينة القيروان بأنها قاعدة الإسلام الأولي في البلاد الإفريقية وأم مدائنها ويغلب على أهلها التفنن في العلوم ،ورأت من الممالك والملوك والدول والفقهاء والعلماء ما لم يكن مثله في قطر من الأقطار، ولعل الحقيقة التاريخية توضح فضل هذه الحاضرة بالفعل على انتشار الاسلام فقد كانت عاصمة للفاتحين الأوائل، وهي المنارة العلمية الأولى التي امتد شعاعها إلى هذه البقاع [4]، وهو ما أهلها لان تكون إحدى روابط التبادل العلمي مع حواضر غرب افريقيا وسفر الطلاب السودانيين إلى مدارسها .

3-المغرب الأوسط :

1. عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ن ص 68 .
2. نفس المرجع ، ص 70.
3. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 53.
4. محمد محمد زيتون : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط 1،دار المنار بالقاهرة 1408-1988، ص 32.

إن أثر الصحراء في الوصل بين المناطق الواقعة على أطرافها يشبه من بعض الوجوه اثر البحر، الواحات فيها كالجزائر والقوافل كالسفن وعلى أطراف الصحراء تظهر الحاجة إلى قيام المدن حيث يتم تبادل السلع والأخبار ومعها العلوم و الكتب و الثقافات [1] .

تعتبر مدينة تلمسان من أهم مراكز الإشعاع الثقافي في المغرب الأوسط على السودان الغربي، إذ أنها تمثل إحدى أهم العواصم التاريخية و الحضارية منذ الفتح الإسلامي، فقد عرفت الحركة الفكرية بها نشاطا هاما في عهد المرابطين ومنها بدا نشر علوم الإسلام[2] .

ومن تلمسان[3] انطلق الإمام عبد الكريم المغيلي(909ه/1503م) إلى أقاليم السودان الغربي، حيث تنقل واعظا ومجاهدا ضد الخرافات والأباطيل التي مزجها الأفارقة بقيم الإسلام ومعاملاته الاجتماعية واستقر به المقام في غاو عاصمة إمبراطورية سنغاي .

حيث ارتبط اسمه بسلطانها الحاج محمد أسقيا وألف له تأليف أجاب فيه عن مسائل مهمة في شريعة وأصول الحكم سماه "أسئلة الأمير وأجوبة المغيلي " [4]، وله تأليف كثيرة، كانت له اتصالات مع بعض العلماء في البلاد الاسلامية مثل السيوطي .

4- ليبيا(طرابلس،غدامس) :

- طرابلس*:

إن الموقع الجغرافي لطرابلس الغرب والمدن المحيطة بها بالنسبة للسودان الأوسط كان أكثر تأثيرا من السودان الغربي وان كان هذا الأخير مرتبط بقوافل الحجيج و

[1]. عبد العزيز كامل : العروبة و الحضارات الإفريقية في منظور جديد ، مجلة الدراسات الإفريقية ، العدد الثالث ،. القاهرة، 1396هـ / 1972.

[2]. الجيلالي شقرون : تلمسان مركز حضاري في المغرب الأوسط ، مجلة الفقه و القانون ، ص01 ، www.majalh.ne

[3]. أورد البكري تلمسان على أنها حاضرة العلماء والكرام ،البكري: المصدر السابق ،ص 87،77 .

[4] . محمد عبد الكريم المغيلي: أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي-تحقيق عبد القادر زبادية، المطبعة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر 1974.

*. وصفها اليعقوبي أنها مدينة قديمة جليلة على ساحل البحر عامرة أهلة، أنظر اليعقوبي: المصدر السابق، ص 66.

التجارة التي تعبر هذه الأقاليم ، فان الاتصال ظل مستمرا في جوانبه العلمية و الثقافية وحتى السياسية حتى ذهب بعضهم إلى ذكر أن بعض الأسر الحاكمة في سنغاي أصلها من طرابلس الغرب .

وقد مكن انهيار الإمبراطورية المالية من ظهور مملكة سنغاي بزعامة قائد ليبي [1] وساهم ذلك في تنشيط التبادل بين طرابلس و غرب إفريقيا خلال القرن الخامس عشر و السادس عشر .

وان كانت صور التبادل العلمي تظهر بين طرابلس الغرب و غرب إفريقيا أقل مما كانت عليه مع السودان الأوسط، فان الطرق التجارية كانت عامل ربط ساهم في نقل جوانب من التأثير [2]، إلا أن حركة اتصال الفكري بين طرابلس وجنوب الصحراء ستعرف دافعا جديدا عن الطريق السنوسية فيما بعد [3] .

ولعل تأثير السودان الغربي على طرابلس تمثل في الموسيقى ذات الطابع الزنجي مثل الطبل و المزمار حيث كان مألوفين جدا في حفلات الأعراس [4] .

- غدامس* :

إن معظم المصادر العربية والأفريقية والأجنبية تؤكد بأن غدامس كانت منطلقا للعلاقات التجارية والثقافية من قديم الزمان بين ضفتيه الشمالية والجنوبية للصحراء الكبرى في القارة الأفريقية، وذلك من خلال ما دون في المخطوطات سواء في تنبكت أو في المصادر العلمية والثقافية في ليبيا.

ومن أهم هذه المخطوطات وثيقة عن تاريخ غدامس الثقافي وهي مخطوطة (تذكير الناسي وتليين القلب القاسي بذكر شيء من مناقب الشيخ سيدي عبد الله بن أبي بكر الغدامسي)، ويمتد البعد الزمني المعاصر لهذه المخطوطة سنة1035) هـ/1625-

[1]. عبد الهادي التازي : المغرب في خدمة التقارب الإفريقي العربي . مجلة المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس 1985 . ص 106.
[2]. عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ص 62.
[3]. نفس المرجع ص69.
[4]. نفس المرجع ص 70.
*. أشار اليها البكري وعدها من الطرق الرئيسية في المغرب الإسلامي، أنظر البكري: المصدر السابق، ص .182، 28، 13

1626م ، وسنة 1175هـ/1762م) ومؤلف هذه المخطوطة هو العلامة محمد بن محمد بن موسى بن مهلهل الغدامسي الذي كان من رجال القرن12 هـ، و تتجلى صلة هذه المخطوطة الغدامسية بواحة غدامس كمركز اقتصادي وعلمي وديني، وقد امتد إنتاجها وثمراتها في مسيرة الصلة بين غدامس والمدن الواقعة جنوب الصحراء وخاصة تنبكت من القرن الخامس حتى أوائل القرن الثاني عشر الهجري.

لذلك فإن هذه المخطوطة وباقي المخطوطات والوثائق الغدامسية في معهد أحمد بابا بتنبكت تتجلى صلاتهما وتنعكس في العلاقات التجارية والثقافية بين المدينتين.

وهي تعد أهم وثيقة عن الحياة الثقافية في واحة غدامس الواقعة على تخوم الصحراء وبلاد السودان، وهي تقدم - مع غيرها من الوثائق والمخطوطات- الوجه الآخر لهذه المدينة الصحراوية التي غلبت عليها شهرتها التجارية، وأعني انتعاش النشاط الثقافي بها في ذلك العهد، وذلك مصداق لارتباط النشاط الفكري بالرفاه والإستقرار الاقتصادي.

إن هذه المخطوطة لا تصور غدامس مركزا ثقافيا مغلقا منعزلا منكمشا على نفسه، ولكنها تبدو من خلال المخطوطة نافذة ثقافية جنوبية مطلة على الصحراء وبلاد السودان.

و تبدو من خلال بعض التراجم في هذه المخطوطة متأثرة على المستوى الثقافي ببلاد السودان، إذ رحل إليها بعض الأبناء وتلقوا العلم بها، ويؤخذ من ذلك أن الثقافة العربية الإسلامية الوافدة من الشمال إلى بلاد السودان قد ترسخت بها فتجاوزت مرحلة التلقي إلى مرحلة العطاء - والأخذ والتبادل والتأثير حيث تلاحمت مع جذور حضارية أمازيغية فضلا عن جذور حضارية سودانية في غرب أفريقية- [1] .

---

[1]. نوري محمد الأمين الأنصاري: العلاقات التجارية والثقافية بين غدامس وتنبكت، معهد أحمد بابا للدراسات العليا والبحوث الإسلامية، تنبكت – مالي، f 12، 29 8 2007، *www.libsc.org.ly/mrkaz/news*

5- أنقيط :

شنقيط في موريطانيا حاليا التي اشتهر أهلها بحب العلم وكانت بها أوقاف للعلماء والطلاب وسكانها يكرمون الغرباء[1] ، ولقد كانت المكان الأقرب تأثيرا للإسلام وثقافته على حواضر غرب إفريقيا .

ومن أشهر علمائها الذين أثروا في الحياة العلمية بأقاليم غرب إفريقيا الشيخ أحمد بن أمين الفراء التندغي (ت724ه/1323م) وكان عالما في الفقه والنحو والبيان والعروض ، وكانت منزلته عظيمة عند رؤساء السودان [2].

وكما ساهم العلماء والفقهاء المغاربة في الحياة العلمية لحواضر غرب إفريقيا فإن بعض العلماء السودانيين بدورهم أفادوا بلاد المغرب الإسلامي، ومن أشهر هؤلاء احمد بابا التنبكتي، الذي تعرض للأسر، خلال الغزو المغربي لبلاده، وبعض العلماء الآخرين، فاغتنم فرصة تواجده في المغرب ليكون مدرسا في مسجد الشرفاء بمكناس ، وتعلق به الناس نظرا لحسن علمه وأدبه .

وتتلمذ على يده جماعة من العلماء أمثال ابن القاضي صاحب "جذوة الاقتباس "، واحمد المقري صاحب "روضة الآس"، وقد ساعده اهتمام السعديين بالعلم زمن المنصورالذهبي (986-1112ه/1578-1603م) وهو العصر الذي حضي من المنصور بدعم خا ، كما كان أبناء التجار والدعاة والقبائل العربية يدرسون في مدارس حواضر الممالك الاسلامية السودانية ، وقد سجل لنا ابن بطوطة في رحلته إلى غرب إفريقيا ذلك الطالب الذي كان في استقباله عند وصوله [3].

ولم يتوقف التبادل العلمي بين المغرب الإسلامي وإفريقيا الغربية عند الطلبة والعلماء، بل تعداه إلى الحكام الذين كانو يتبادلون الهدايا، ويذكر لنا ابن خلدون الهدية التي بعث بها سلطان مالي منسى سليمان وهي زرافة، التي نالت قدرا كبيرا

---

[1] . الشنقيطي : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط و الكلام على تلك البلاد تحديدا أو تخطيطا وعاداتهم و أخلاقهم و ما يتعلق بذالك ، ط1 ،المطبعة الجمالية 1339 هـ / 1911 ، القاهرة ، ص 396.

[2] .عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ص 344.

[3] . ابن بطوطة ، 446.

من الفضول والإعجاب بهذا الحيوان الذي لا يعرفه السكان المغاربة، فأستقبلهم السلطان المغربي بإستقبال العظماء بعد تقديم رسالتهم السلطانية التي تحمل أسمى معاني الود والإخلا ص[1].

وسار الحال هكذا بالنسبة للقبائل والأسر المشهورة بالعلم، ويذكر السعدي بعضا منها والتي هاجرت من الصحراء المغاربية واستقرت في تنبكت وكانو وغيرها [2].

وأخيرا يكفي ان نذكر المؤلفات المغاربية المتداولة بين مدارس ومساجد حواضر الممالك الاسلامية في غرب افريقيا والتي عدت كمصادر علم وتفقه ، ونالت كل الاحترام والتقدير من الحكام والعلماء وطلبتهم، منها مؤلفات المغيلي وجامع المعيار في الفقه للونشريسي[3] .

---

[1] . ابن خلدون:العبر ج 7 ص 310 .

[2] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 39 .

[3] . نفس المصدر، ص 46 .

المبحث الثاني:التبادل العلمي حواضر غرب إفريقيا وباقي الأقطار الإسلامية.

1- الأندلس:

يجمع المؤرخون المنصفون من المسلمين والغربيين ان الأندلس كانت بحق مجاز العلم من الشرق الى الغرب، فقد برع المسلمون فيها من مختلف صنوف العلم ومراتبها، وكانو القدوة لغيرهم في مجال الطب والجراحة والصيدلة والفلسفة والفلك والحساب والجغرافيا وغيرها من العلوم وكان بها أعلام [1] .

واهتم أمراء الأندلس بالحياة العلمية من بناء المساجد والمعاهد فانتشرت الكتاتيب ، إذ يذكر ابن عذارى ان حكام قرطبة اتخذوا المؤدبين ليعلموا أولاد الضعفاء والمساكين في المكاتب، وكان عددهم سبعة وعشرون مكتبا، وخصصوا للمؤدبين والمعلمين المرتبات الجزيلة، وتفننوا في بناء المساجد وصوامعها [2] ، وبلغ العلماء في الأندلس شأنا عظيما حتى أصبح منهم الوزير مثل ابن الخطيب الذي كان كاتبا وشاعرا وترك عدة مؤلفات منها: "كناسة الدكان بعد انتقال السكان، للوزيرابن الخطيب" ونشطت مع هذه الحركة العلمية الترجمة نتيجة الاحتكاك بالأقاليم الأوربية، ولا تزال المنشآت العمرانية الحضارية في اسبانيا اليوم شاهدة على هذا التطور الذي وصفه ابن بطوطة على انه امتزاج للفن الاسباني والمغربي[3] ، وكتب عن الذين التقاهم من العلماء والأعيان والخطباء والقضاة ، ومن البديهي أن تنعكس هذه النهضة العلمية التي عرفتها الأندلس على السودان الغربي [4] وخاصة أن بعض الدول استطاعت ان توحد المغرب والأندلس بل وحتى غرب افريقيا، وهنا أقصد دولة المرابطين فخلال حكم يوسف بن تاشفين (453ه-480ه/1061م-1087م) دانت له الكثير من الأقاليم خاصة بعد موقعة الزلاقة عام 469ه/1086م فكانت فاتحة الانتصارات [5].

---

[1]. الحميري: المصدر السابق ، ص 456 .

[2] . ابن عذارى المراكشي:المصدر السابق ،ج2، ص 228 .

[3] .ابن بطوطة:المصدر السابق،ج2، ص 338 .

[4]. ليفي بروفنسال:حضارة العرب في الأندلس،ت ذوقان قرقوط، ط1،منشورات در مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص 13 .

[5] . ابن الفداء : نفس المصدر ،ج1، ص 158 .

وأصبح يوسف بن تاشفين يسمى بأمير المؤمنين ،وانه ملك جميع بلاد المغرب من بجاية الى السوس الأقصى ،ومن سجلماسة الى جبل الذهب من بلاد السودان وجميع بلاد الأندلس ونتج عن توحيد الأندلس والمغرب التبادل العلمي بين العلماء والطلاب في هذه الاقاليم الواسعة .

فقد ارتحل في عهد المرابطين علماء كان لهم دور كبير في الحياة العلمية في المغرب ومنه الى أقاليم غرب إفريقيا، ومن أشهر هؤلاء العلماء أبو عبد الله بن أبي الخصال وأخوه أبو مروان .

وكان الأول ضالعا في علوم الأدب والقرآن و الحديث و الأثر، وما يتعلق بهذه العلوم [1] ، ومن العلماء الذين أفادو الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا، القاضي (عياض بن عمرو بن موسى بن عياض) صاحب التصانيف الكثيرة التي سارت بها الركبان، فكان بذلك عالما موسوعيا، وكان كتابه المسمى "الشفا " من المواد المهمة والرئيسية التي كانت تدرس في بلاد السودان، بالإضافة إلى كتب ورسائل كثيرة ألفها الفقهاء، مثل طبقات المالكية وشرح مسلم، وكان هذا القاضي قد عاش زمنا في مالقة بالأندلس واشتهر بالعلم والذكاء وكان غنيا له أملاك استخدمها في ترحاله وتنقلاته.

ومن العلماء الذين تكرر ذكرهم في المؤلفات السودانية، المهندس المعماري الشهير (أبو إسحاق الساحلي)، الذي ارتحل للحج وهناك التقى السلطان منسى موسى، وانتقل معه إلى مالي وتوفي هناك عام (747هـ/1346م) ودفن في تنبكت [2] .

ويذهب ابن خلدون بأن هذا العالم والمهندس بنى قصرا للسلطان منسى موسى، محكم البناء ووقع للسلطان موقع الاستغراب، وكافأه السلطان على ذلك باثني عشر ألفا من مثاقيل التبر، بالإضافة إلى ما كان له من الأثر عند هذا السلطان [3]، ويعد الساحلي أشهر شخصية كان لها الأثر في تطوير الفن المعماري في مالي فقد اشرف على بناء عدة مساجد بعض جوانبها لا تزال إلى اليوم.

---

[1] . ليفي بروفنسال : المرجع السابق، ص 13.

[2] . المقري:نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس،دار صاد،بيروت،1988،ج2، ص 194.

[3] . عبد الرحمان ابن خلدون:المصدر السابق،ج 7، ص 353.

وقد نشطت ولا شك الدعوة الإسلامية بعد إقصاء المسلمين من غرناطة ، وخرج مجموعة كثيرة من المرابطين يدعون سلما إلى الإسلام، مستعملة في ذالك اللغة العربية، والتجأ نتيجة ذالك عدد من علماء و شعراء الأندلس إلى تنبكت التي كانت خلال القرن السادس عشر أهم مركز تعليمي في وسط وغرب إفريقيا بل إن جامعة تنبكت تمثل إحدى منارات التقدم الفكري و الثقافي في العالم [1]

2- مصر:

وكانت لأفريقيا علاقات مباشرة مع مصر منذ القدم[2]، فهي بوابة الإسلام الأولى نحو المغرب الإسلامي وأقاليم غرب إفريقيا وقد وصفها ابن خلدون بأنها "حاضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم وديوان الإسلام " وقد تحدث القلقشندي عن عمق الصلات التي كانت تربط كثيرا من ممالك السودان الغربي بمصر كما مدحها المقري حينما مر عليها عائدا من الحج وقال عنها "من لم يرها لم ير عز الاسلام "[3] .

وقد ساهمت العوامل التاريخية في أن تتحول القاهرة إلى حاضرة من حواضر العالم الاسلامي الكبرى، على الأقل في ذلك العصر بعد سقوط بغداد عام 1258م وتدميرها من طرف المغول ثم جاء دور الأندلس وسقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين عام 1492م ، وقد اهتم أمراء مصر من المماليك بربط علاقات تعاون و أشار ابن خلدون إلى هذا الاهتمام [4] ، فقد اهتم السلطان بيبرس وقلاوون ومن تولي الأمر بعدهم ببناء المساجد وعمرانها، وقدموا العلماء، وشجعوا طلبة العلم و كانوا يجزلون العطاء للمدرسين، وهو ما جعل أهل مصر يهتمون بالعلم [5]، ويعد جامع الأزهر*من أشهر معاهد المشرق الإسلامي اجتذب إليه كبار العلماء والطلاب من أنحاء العالم الإسلامي .

---

[1]. عبد الجليل التميمي : المرجع السابق ص 67.

[2] . Maurice Delafosse .Op.Cit. p25.

[3] . القلقشندي: المصدر السابق، ص 284،301.

[4] . عبد الرحمان ابن خلدون: العبر،المرجع السابق،ج 7 ، ص 352 .

[5] . نفس المصدر و الصفحة.

*.الأزهر: أنشأه جوهر الصقلي القائد الفاطمي المشهور مولى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي عام 859 هـ ،ارتبط اسمه ببناء القاهرة.

استقطب الأزهر أيضا طلاب العلم الذين وفدوا إليه من كل فج عميق ، وكان معهم الأب العطوف ، يقدم العلم لبني الإسلام و العروبة و لا يعرف في حياته تميزا عنصريا أو طبقيا بين طلابه ، فضم لهم العديد من الأروقة حسب المناطق والبلاد التي ينتمي إليها الطلاب ، ووفق الأقاليم التي جاءوا منها .

وقد بلغ عدد هذه الأروقة 29 رواقا أنشأها السلاطين و الأمراء و العظماء و ذو اليسر، خصص معظمها للطلاب الفقراء و المنقطعين لطلب العلم و معظمهم من الأغراب الذين لا مأوي لهم، وبعضها خصص لأهل مصر خاصة من طلاب الريف الذين لا سكن لهم بالقاهرة.

ونظرا لتجاوز الأروقة وتزاحمها ، وحتى يعيش الجميع متحابين في الله متفرغين لطلب العلم الشريف، نظمت العلاقات بينهم بوضع شروط وأنظمة تسري على المصريين و الغرباء معا ، منها سفر الطلاب وإجازاتهم والمسامحة والتغيب عن الدراسة ، ونظام توزيع الجراية ونظام الانتظار حتى يشغر المكان ، ونظام التأديب إذا ادخل أحد بأنظمة الأروقة أو الخروج على الأعراف المتفق عليها والمعلومة مسبقا للجميع و غير ذلك .

أما الطلاب الأثرياء فإنهم لا يقيمون في الأروقة، بل يسكنون الرباع – جمع ربع – والخانات بالقرب من أماكن الدراسة بالجامع الأزهر، ونظرا لثرائهم كانو يتعلمون على نفقتهم الخاصة ، فيدفعون مقابل السكن وهذه الأماكن في منطقة الأزهر .

لكن من المؤكد أن تعدد الأروقة يعطينا فكرة واضحة عن كثرة عدد البلاد الإسلامية التي كان أبناؤها يفيدون منها للأزهر طلابا للعلم .

وكان هؤلاء الوافدون يحملون معهم إلى بلادهم رسالة الإسلام الدينية والعلمية باللغة العربية وهكذا كان الأزهر عنصرا فعالا وايجابيا في الحضارة الإنسانية [1].

ودرس فيه وتخرج منه مشاهير من العلماء ومارسوا سلطة القضاء والإفتاء والتعليم في مختلف مناطق العالم الإسلامي، ونال اهتماما بالغا في عهد حكم المماليك

[1] . مجاهد توفيق الجندي : تاريخ أروقة الأزهر ، www.drmarzouk.com ،2010/07/12.

لمصر، فجددوا بناءه أقاموا به مساكن ، ورصدت الأحباس للطلاب والعلماء ، وارتحل إليه محبي العلم من كل مناطق ومنها أقاليم غرب إفريقيا .

وكان لموقع الأزهر الجغرافي دور في زيادة أهميته وإشعاعه، إذ كانت جموع الحجيج القادمين من المغرب وأقاليم غرب افريقيا تمر بالقاهرة ذهابا وإيابا، وكان من بين الحجيج العلماء الذين كانوا يحرصون على زيارة الأزهر والمكوث فيه حتى كلف البعض التأخر عن الركب.

وكانت رحلة السلطان منسى موسى للحج ومروره بالقاهرة وإقامته مدة سنة قبل مواصلته السير إلى مكة، بالغ الأثر على التبادل العلمي بين مصر والسودان الغربي، فقد اغتنم هذا السلطان فرصة تواجده ليشتري عدد كبير من الكتب الدينية، خاصة في المذهب المالكي لينقل إلى مملكته كنوزا من مناهل الثقافة المصرية.

وتطور التبادل العلمي بين المنطقتين فقد ارتحل الكثير من علماء مصر إلى تنبكت، وارتحل طلبة تنبكت إلى مصر بدليل أن ابن بطوطة شاهد في رحلته طبيبا مصريا [1].

وكما أشرت في السابق فان إنفاق السلاطين وتوفر الإقامة للطلبة وتكريم المشايخ والمدرسين، كان له دور في جلب الطلبة، وكان الأزهر يدرس العلوم الدينية والعلوم العقلية كالحساب والطب والفلك وغيره، مما زاد في إشعاعه العلمي، وبلوغ شهرته مختلف حواضر الممالك الإسلامية في غرب افريقيا .

وأصبح الأزهر مركز إشعاع علمي وثقافي وظهر ذلك جليا أثناء مرور الاسقيا الحاج محمد الكبير بالقاهرة قاصدا حج بيت الله الحرام، وهناك التقى علماء الأزهر منهم السيوطي، وكان لهذه الزيارة دور في إثراء الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي [2] .

وهي الرحلة التي تكلم عنها شارل اندريه بقوله ،"وقد ساعدت رحلته التي قام بها في بلاد المشرق خصوصا في القاهرة على زيادة العلاقات بين السودان ومصر ثم ما

---

[1] . ابن بطوطة : المصدر السابق ،ج2، ص 354.

[2] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 37 .

لبثت العلاقات ان أصبحت دائمة مرتبطة برحلات القوافل التجارية، وركب الحجيج ويذكر السخاوي قدوم وفد من المغاربة ووفد من التكاررة عام 849 ه /1445م، ومعهم الهدايا القيمة للسلاطين والأمراء، وكان للتكروريين رواق في الأزهر يحمل اسمهم ، وبنو مدرسة لتعليم أبنائهم قبل التحاقهم بالأزهر، وقد كتب الوزان عن التبادل العلمي القائم بين الطرفين قائلا "وهذه الممالك الخمس عشرة تقع أغلبها على نهر النيجر، يمر فيها الطريق الذي سلكه الذين يذهبون الى القاهرة، وهذه الطريق طويلة لكنها مأمونة جدا [1].

وتجدر الإشارة إلى أن الروابط العلمية بين مصر وأقاليم غرب افريقيا ازدهرت مع ازدهارا تجارة القوافل وركب الحجيج، فمن السودانيين من كان غرضه طلب العلم، ومنهم من استقر في القاهرة ولم يعد إلى بلده، وكثير من علماء السودان الغربي من عاشوا في مصر ودفنوا فيها، ومنهم من عاد كالذي ذكره السعدي وهو الشيخ عبد العزيز التكروري الذي هاجر الى مصر في أواسط المائة التاسعة للهجرة وكان عالما وفقيها [2] ، وكذلك الشيخ العاقب الذي يقول عنه أحمد بابا "وأرسلوه إلى علماء مصر فصوبوه" [3] ، وهناك من العلماء السودانيين الذي مر بالأزهر والتقى علماءه، مثل الإمام التازختي (936ه /1729م) الذي كان فقيها عالما ومحدثا تتلمذ على يد كبار علماء عصره من أمثال الإمام المغلي، وعندما التقى علماء الأزهر أخذ عنهم الحديث وروى حتى صار من وكما انتقل علماء غرب إفريقيا إلى مصر فقد حدث أيضا العكس ، الطبيب المصري الذي عالجه [4] أثناء رحلته إلى غرب إفريقيا، ومن العلماء الذين أثروا على الحياة العلمية في حواضر غرب افريقيا الإمام جلال الدين السيوطي ولد

[1]. حسن الوزان : المصدر السابق ، ج2، ص 161 .

[2]. عبد الرحمان السعدي :المصدر السابق، ص ،182.

[3]. أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، تحقيق علي عمر،مكتبة الثقافة الدينية،القاهرة،ط1 1423ه/1964م.، ص 399 .

[4]. ابن بطوطة:المصدر السابق، ج2، ص 354.

عام(849هـ/1445م)، فقد وصلت صدى مؤلفاته ونبوغه وعلمه الى تنبكت وغاو وغيرها وجرت مراسلات بينه وبين الإمام المغيلي .

كان السيوطي اسمه ذائع، يرد على الأسئلة الواردة إليه من كبارعلماء مملكة سنغاي الذين يستفتونه عن حكم الشريعة الاسلامية في قضايا عامة كتصرفات الحكام ضد الأعداء وقتالهم لهم، ومسائل معاملة المواطنين والخراج، بالإضافة إلى مسائل الزواج والطلاق وبعض العادات الاجتماعية المحلية التي بقيت مرتبطة بالوثنية، وقضايا الميراث والمعاملات التجارية وكذا الأمور العلمية والثقافية، وقضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إن هذا الارتباط العلمي والثقافي يعكس مكانة الأزهر من جهة، وشغف علماء وطلاب حواضر غرب افريقيا بأخذ علوم الدين الإسلامي الصحيح .

3- بلاد الحجاز :

الحج ركن من أركان الاسلام الخمس، ارتبطت هذه الفريضة برحلات الحج التي كانت تنتقل من حواضر الغرب الإفريقي نحو مكة فكانت رحلة إيمانية وفي نفس الوقت رحلة علمية لان المسلم المسافر الى الحج يشاهد في طريقه مآثر الاسلام والمسلمين، ويلتقي العلماء ويطلع على ما يجري في باقي بلاد المسلمين من مختلف أرجاء العالم.

كانت رحلة الحج شاقة طويلة السفر، تستغرق بعض الأحيان سنوات لذلك كان أداء هذه الشعيرة مرتبطا بقوة الإيمان، وكان من هؤلاء العلماء والصالحين وطلبة العلم ، لذا ارتحل الكثيرون من اهل السودان الغربي الى بلاد الحجاز، والتقوا العلماء هناك وحدث الاتصال والتبادل العلمي.

ويؤكد ابن بطوطة في هذا الشأن ان للحج هدفين، الأول هو الهدف الروحي الذي يشمل أداء الفريضة المقدسة والهدف الثاني، هو الاطلاع على أخر ما ألفه علماء المشرق والتزود منهم بزاد العلم [1].

---

[1] . ابن بطوطة :المصدر السابق، ج 302 .

ويعكس الهدف الثاني اهتمام سلاطين مملكة مالي وسنغاي ورعاياهم وحرصهم على أداء هذه الفريضة، فكانت هذه الرحلة بالغة الأثر في نفس الإفريقي تشعره برابطة الإخوة التي تجمعه مع باقي المسلمين.

وعند عودته تبقى الروح الاسلامية أكثر تجذرا في وجدانهم، ويكونون أقرب إلى الإسلام وأبعد من العادات الإفريقية والوثنية القديمة، وربما هذا ما أعطى لفريضة الحج القداسة التي أحيطت بالحجاج عند عودتهم، وقد تبقى هذه المكانة مرتبطة بالحاج مدى حياته .

وكان لخروج الحكام دورا في تثبيت هذه الحقائق وتوطيد ركائز التبادل العلمي بين الحجاز وحواضر غرب إفريقيا، وتعد رحلة منسى موسى[1] أشهرها وهناك وصف برجاحة العقل عندما اندلعت فتنة بين السودانيين والأتراك في الحرم المكي فأمر أتباعه بالانسحاب، وسار على هذا المنوال معظم ملوك السودان وأشهرهم الأسقيا الحاج محمد الكبير (902ه/1496م)، الذي اصطحب معه الكثير من العلماء والصالحين، واستفاد هؤلاء الملوك ومن معهم من رحلات الحج بالتحصيل العلمي، وأخذ هذا السلطان يسأل الإمام السيوطي عن أسئلة في الشرع فأجابه السيوطي [2]، وذكرت المصادر الاسلامية كتاريخ السعدي، وصبح الأعشى، وابن بطوطة، وابن خلدون، والعمري، ومحمود كعت، بكثرة رحلات السلاطين من غرب افريقيا إلى الأراضي المقدسة لتدعيم الروابط العلمية يشير السعدي إلى اهتمام علماء الحجاز بمعرفة فقهاء تنبكت وأحوالهم ويسمي بعض هؤلاء العلماء [3] ، وهذا مؤشر على عمق العلاقات العلمية والثقافية بين الحجاز وحواضر غرب إفريقيا.

كان بعض علماء السودان الغربي من استقروا في الحجاز ولم يرجعوا الى بلادهم، وكان من أشهرهم الشيخ أبو بكر بن احمد بن عمر بن محمد أقيت وهو تنبكتي المولد، نزيل المدينة المشرفة وكان خيّرا ورعا زاهدا ، متين الدين ، كثير الصدقة ،

---

1 . دونيس بولم : الحضارات الإفريقية ، ط1 ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ ، ص05 .

2 . محمود كعت :المصدر السابق، ص 12-13 .

3 . عبد الرحمان السعدي :المصدر السابق، ص 61.

وكان عالما متبحرا في علم النحو فأفاد الكثيرين ، واخذ أولاده معه الى المدينة المشرفة وتوفي هناك سنة 991هـ/1583م [1] .

وكما رحل علماء غرب افريقيا الى الحجاز، فقد رحل بعض علماء هذه البلاد الى غرب افريقيا وأقاموا في حواضرها وأفادوا طلابها وأهلها.

ومن أشهر هؤلاء العلماء الشيخ عبد الرحمان التميمي الذي رجع في صحبة السلطان منسى موسى وكان هذا الشيخ مشهورا في علم الفقه [2] ، وكان السلاطين يدعون معهم العلماء والأشراف من بلاد الحجاز تدعيما للروابط العلمية والدينية من جهة و تبركا من جهة ثانية حتى يزدادوا في نظر رعاياهم إجلالا وإكبارا .

فقد طلب الأسقيا محمد الكبير من شريف مكة، أن يأذن لواحد من الأشراف بالتوجه إلى مملكته، فأرسل إليه شريف يقال أن نسبه يصل الى الحسن بن علي رضي الله عنهما، يدعى أحمد بن عبد الرحمان بن إدريس، حيث كان وصوله الى سنغاي حدثا هاما، واستقبله السلطان نفسه وحشد من العلماء والأعيان ومنحه الحاج الأسقيا محمد الكبير المال، والإقطاع والعبيد والجاه، وأقام في تنبكت ثم انتقل إلى غاو بعد أن طلب منه السلطان ذلك ليأنس به ويتبرك به حسب الاعتقاد السائد في أقاليم السودان الغربي، فكانوا ينظرون إلى العربي المسلم نظرة الوقار، وتزوج هذا الشريف من امرأة تدعى زينب أنجبت له خمسة أولاد [3] ، وقد ساهم انتقال الأشراف إلى مملكة سنغاي واستقرارهم هناك - بسبب ما يلقونه من حفاوة وامتيازات- في ازدهار الحياة العلمية وخاصة اللغة العربية، كما التزم الأهالي بشعائر الإسلام الصحيحة وقد وجدوا القدوة في تقليد هؤلاء العلماء، وهكذا يجد الباحث أن رحلة الحج كانت إحدى ركائز الروابط العلمية القائمة بين حواضر غرب افريقيا وبلاد الحجاز ويرجع ذلك الى :

- اهتمام السلاطين خاصة في عهد سنغاي بالحج ورحلاته .

[1] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق،نفس المصدر، ص 41.
[2] . نفس المصدر ، ص 51 .

[3] .Sambe Bakary :Op.Cit,p06.

- الاحترام الشديد الذي كان يكنه سكان غرب إفريقيا للعرب والمسلمين القادمين من الحجاز حتى وصل بهم الحد الى التبرك بهم.
- اهتمام السلاطين خاصة في عهد سنغاي بالحج ورحلاته .
- نشاط العلماء وصلاحهم كقدوة لعامة السكان .
- المعاملة الإسلامية الراقية التي كان السودانيون يعودون بأخبارها، فتكون عامل تمسك بالدين الإسلامي .
- انتشار اللغة العربية كلغة مخاطبة ومعاملة وقدوة للتعلم.

كل هذا كان له الأثر الكبير في ازدهار الحياة العلمية وبلوغ مملكة سنغاي نهضة حقيقية.

خاتمة الفصل:

وفي ختام هذا الفصل أسجل بعض الملاحظات:

أولا: إن تاريخ الصلات بين الأقطار الإسلامية وغرب إفريقيا يعود إلى قرون عديدة قبل ظهور الإسلام، ويؤكد ذلك النقوش الصخرية التي أشارت إلى الطرق التي سلكتها القوافل واستمرت الاتصالات بعد انتشار الاسلام، وقويت بعد ظهور الممالك الإسلامية، وتعد الفترة بين القرنين (08-10ه/14-16م) الأوثق اتصالا، فالصحراء لم تكن حاجزا في وجه التبادل التجاري والثقافي.

ثانيا: ترتب عن هذا التبادل وهذه الصلات انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، وأصبح الدين الرسمي لممالك كبيرة، وعاملا مهما في الحياة السياسة والإجتماعية والثقافية، وصلة تاريخية بين العديد من الأجناس لفترة طويلة بين العرب وإفريقيا والعالم، وهو ما ساهم في انتشار اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، وازدهرت معها الحياة العلمية والثقافية التي هي محل مذكرتي هذه .

ثالثا : تعد الهجرات البشرية من أهم قنوات الاتصال بين غرب إفريقيا وباقي الأقطار الإسلامية، فالعديد من سكان هذه الأقاليم استوطن مدن السودان الغربي فحدث اختلاط بين عنصرين، وتعداه إلى المصاهرة والمعاملة الحسنة، وهو ما كان عاملا إضافيا في

ترسيخ تعاليم الدين الاسلامي الصحيحة، التي شوهت عليها عادات الأفارقة وتقاليدهم الوثنية.

رابعا: كانت رحلات العلماء والطلاب و الفقهاء الى الأقطار الإسلامية مثل: فاس وتلمسان والقيروان والقاهرة بدافع طلب المعرفة والإحاطة بالعلوم، ولم يكن دافعهم المناصب أو السياسة فمعظمهم من يعود الى مدينته، وكانت وضيفته التعليم ونشر القيم الإسلامية، ولذلك ظلت وفود العلماء والطلاب تنتقل عبر رحلات الحجيج أو قوافل التجار على مدى العصور المتوالية، وهذا الاتصال ضمن لحواضر غرب إفريقيا على الأقل بين القرنين(08-10ه/14-16م)التواصل والتبادل العلمي والتطور الحضاري ولم يجعلها في عزلة وجمود.

خامسا : نتج عن الرحلة في طلب العلم والتبادل العلمي بين أقطار العالم الإسلامي وحواضر غرب إفريقيا، تكوين كوكبة من الاساتذة والعلماء تميزوا بغزارة التحصيل وأصبحوا حجة في العلوم النقلية والعقلية وألفوا الكتب وعقدوا الحلقات وخطبوا في المساجد وأشاروا على حكامهم وأمرائهم في مسائل الحكم و الحكمة .

الفصل الثالث : مظاهر الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا .

مقدمة الفصل .

المبحث الأول: مؤسسات التعليم ووسائله.

1- المساجد .

2- الكتب والمكتبات .

3- الإجازات العلمية

1- الارتحال لطلب العلم.

2- المبحث الثاني:مظاهر الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا:

1- انتشار اللغة العربية.

2- انتشار المذاهب الإسلامية .

3-أ- مراحل التعليم .

1- مرحلة التعليم الأولى (الإعدادي – المتوسط):

-التعليم الإعدادي - مرحلة التعليم المتوسط .

2- مرحلة التعليم العالي .

3- ب- المناهج ومواد الدراسة

-1 - -2- المقررات(مواد الدراسة) :

المناهج .

1-العلوم الشرعية :

2-الفقه وأصول العقيدة :

3-التفسير والحديث .

-العلوم الأخرى :

4-الطب والصيدلة .

5-الحساب و علم الفلك .

6-علم الكلام .

د- مستوى التعليم .خاتمة الفصل .

مقدمة الفصل:

عند ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي كانت أكثر مناطق غرب إفريقيا متخلفة ، يغلب عليها النظام الوثني ويسودها الاضطراب السياسي ، والاختلال الاجتماعي القائم في ظل حكم مملكة غانة المترامية الأطراف .

وبوصول الإسلام إلى حدود غرب السودان عبر الشمال والشرق ، أوجد حالة من الوعي لتلك الأقاليم وأنتجت حضارة جديدة تشتمل على نهضة علمية اعتمدت على الأصول الإسلامية ونهلت من علوم العرب الذين أوصلوا تلك الحضارة .

وتهيأت الأسباب التي أعطت لهذه النهضة بعدها المكاني والزماني،فانتشرت في الحواضر المتاخمة للصحراء انطلاقا من أقاليم توات وسلجماسة وولاته نحو الحواضر الجنوبية الغربية بل ساهم هذا الإشعاع الجديد في خلق حواضر جديدة بفضل ازدهار التجارة ، وتوافد عدد كبير من السكان والقبائل بعضهم جاء لغرض نشر الدعوة الإسلامية ،وأخذت تلك الحواضر في السودان الغربي تنمو وتزدهر بالرغم من البطء في هذه العملية.

ومع بداية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي أضحت حواضر غرب إفريقيا نموذجا من الحياة العلمية إلي كانت سائدة في البلاد الإسلامية الأخرى.

فكان لهذه النهضة بعدها الإفريقي المتناغم مع ما جاء به العرب والمسلمون، من الشمال الذي أخذ يتفاعل داخل المجتمع الإسلامي السوداني، فأنتجت المدارس والكتاتيب والجامعات مثل مسجد سنكري، وأضحت تنبكت من حواضر البلاد الإسلامية التي نالت القدر الكافي من الشهرة في البلاد الإسلامية فنشطت العلوم ،وارتحل الطلبة إلى مدارس فاس وتلمسان والقيروان والقاهرة والحجاز، وانتقل الكثير من العلماء من تلك المناطق الإسلامية إلى بلاد السودان الغربي ليؤكدوا أن الإسلام دين العلم والحضارة، وأنهم جاؤوا لنشر هذه الرسالة فأضعفوا العصبية والقبلية الضيقة السائدة لدى الإفريقي، وتراجعت العادات والتقاليد القديمة إلى حياة جديدة أساسها العلم، فظهر سلوك جديد للناس وتوجه نحو الحياة العلمية التي كان أهم

مظاهرها انتشار اللغة العربية والمذاهب الإسلامية وتنوع مناهج ومواد التدريس وهو ما سأتناوله في هذا الفصل .

إن الدراسة التاريخية للحياة العلمية ليست نظما سياسية، أو اسرا حاكمة تظهر و تختفي وإنما هي عملية تربوية تعليمية فكرية ترتبط بحياة العلماء، و المفكرين الذين يقضون حياتهم في محراب الفكر إلى أن تنموا الحضارة وتنعكس على سائر الحياة بالتقدم والازدهار.

وفي هذا الفصل سأتناول مظاهر الحياة العلمية موضحا:

- مؤسسات التعليم ووسائله من مساجد ومكتبات، وكيف كانت الرحلة في طلب ، وماهي الإجازات العلمية الممنوحة للطلبة ؟
- كيف انتشرت اللغة العربية كلغة علم ؟
- وهل كان لانتشار المذاهب الإسلامية دور في ترسيخها ؟
- وما هي مراحل التعليم ،وطرق التدريس ومواده ؟
- وأخيرا ما هو مستوى التعليم في تلك الحواضر مقارنة بما هو سائد في سائر الأقطار الإسلامية وعموم غرب إفريقيا ؟



المبحث الأول: مؤسسات التعليم ووسائله:

1- المساجد:

من المعلوم أن المسلمين في كل زمان ومكان كانوا يتخذون من المساجد والأماكن الملاصقة له مراكزا لتعليم صبيانهم ، القراءة والكتابة ولم تكن البلاد السودانية استثناء عن ذلك .

وقد لاحظ الرحالة هذا ومنهم حسن الوزان، وأكدوا أن مسلمي السودان استخدموا المساجد أماكن للتعليم [1].

لعب المسجد دورا هاما في حياة المسلمين عامة والتعليم خاصة ، فقد كان المسجد عبر قرون مدرسة وبيت الجماعة ودار الضيافة [2]، بالإضافة الى وظائف الصلوات وتعليم الصغارالقرأن وإحياء الأعياد ومكان عقود الزواج و تشييع الجنائز[3].

اهتم التجار والدعاة والأمراء في حواضر غرب افريقيا لأمر بناء المساجد كوسيلة لتوطيد الاسلام في الاقاليم الجديدة ، ونجد الكثير من الرحالة والمؤرخين الذين تناولوا ،بناءه ورواده وأهميته ودوره .

بدأ أهل السودان الغربي يهتمون بالتعليم منذ ان اخذ الاسلام يشق طريقه إليهم وازداد مع هذا الانتشار والتوسع بناء المساجد في الحواضر الاسلامية، حتى أضحى المسجد جزء من الظاهرة العمرانية للحواضر الافريقية .

كان لكل حاضرة مسجدها الكبير الذي يجمع فيه السكان وقد نظمت المدن الاسلامية من حيث تخطيطها لتلائم حياة الطوائف الاجتماعية ، وفقا للأغراض الاقتصادية ،من ذلك بناء الحوانيت التي تبيع الكتب والعطور ، ثم تستدير الأبنية الأخرى حول المسجد لتقوم فيها أعمال التجارة والصناعة [4].

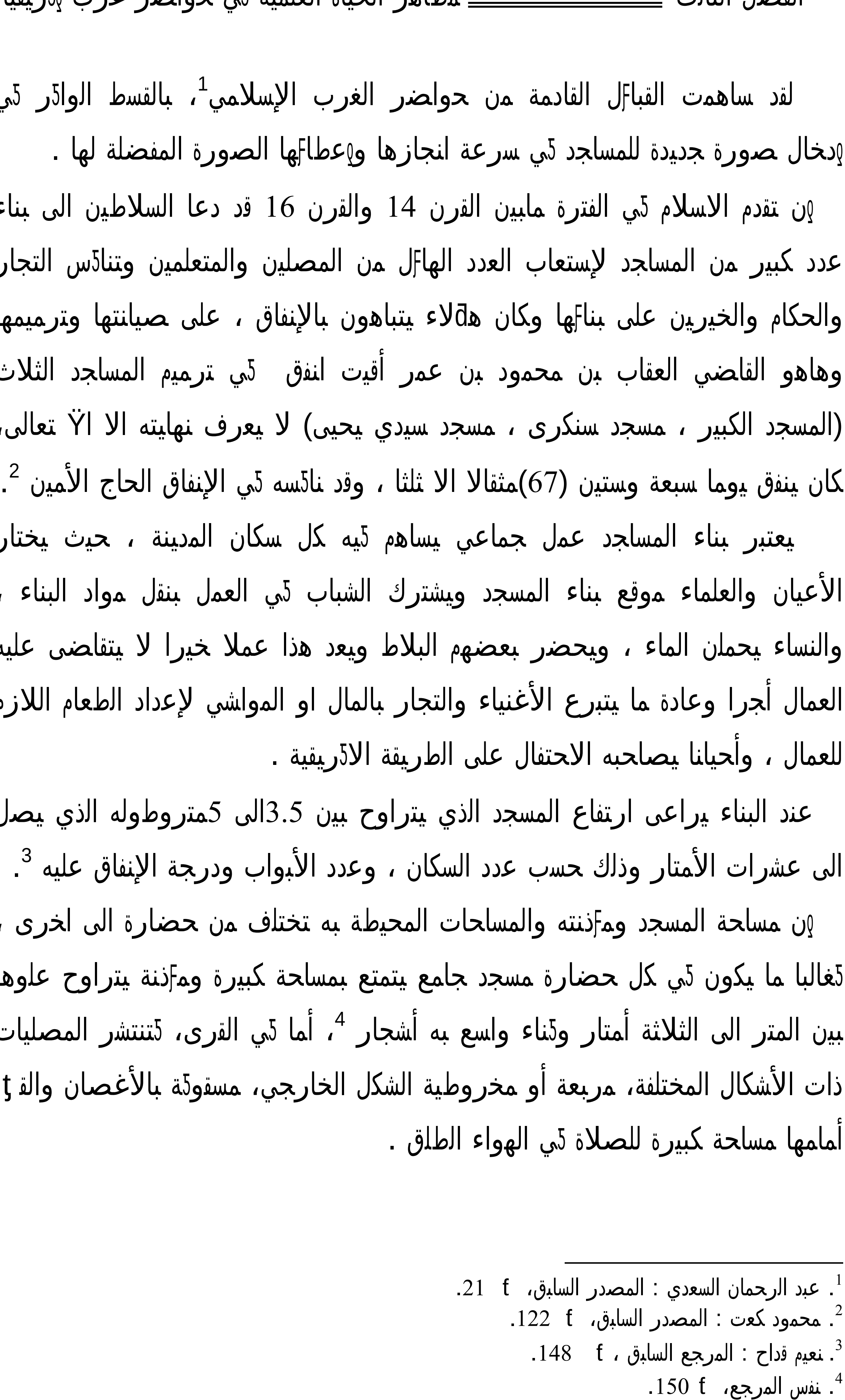
---

[1]. عز الدين عمرو موسى :المرجع السابق، ص 119.

[2]. الخطيب البغدادي: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم ، تلخيص وترتيب سامي الصقار ، ط1، دار المريخ ،الرياض 1401-1981 ص 69 .

[3]. J.Spencer Trimingham:Op-Cit,p59.

[4]. نعيم قداح : حضارة الاسلام وحضارة أوروبا، ص 145.



لقد ساهمت القبائل القادمة من حواضر الغرب الإسلامي[1]، بالقسط الوافر في إدخال صورة جديدة للمساجد في سرعة انجازها وإعطائها الصورة المفضلة لها .

إن تقدم الاسلام في الفترة مابين القرن 14 والقرن 16 قد دعا السلاطين الى بناء عدد كبير من المساجد لإستعاب العدد الهائل من المصلين والمتعلمين وتنافس التجار والحكام والخيرين على بنائها وكان هؤلاء يتباهون بالإنفاق ، على صيانتها وترميمها وهاهو القاضي العقاب بن محمود بن عمر أقيت انفق في ترميم المساجد الثلاث (المسجد الكبير ، مسجد سنكرى ، مسجد سيدي يحيى) لا يعرف نهايته الا الله تعالى، كان ينفق يوما سبعة وستين (67)مثقالا الا ثلثا ، وقد نافسه في الإنفاق الحاج الأمين [2].

يعتبر بناء المساجد عمل جماعي يساهم فيه كل سكان المدينة ، حيث يختار الأعيان والعلماء موقع بناء المسجد ويشترك الشباب في العمل بنقل مواد البناء ، والنساء يحملن الماء ، ويحضر بعضهم البلاط ويعد هذا عملا خيرا لا يتقاضى عليه العمال أجرا وعادة ما يتبرع الأغنياء والتجار بالمال او المواشي لإعداد الطعام اللازم للعمال ، وأحيانا يصاحبه الاحتفال على الطريقة الافريقية .

عند البناء يراعى ارتفاع المسجد الذي يتراوح بين 3.5الى 5متروطوله الذي يصل الى عشرات الأمتار وذلك حسب عدد السكان ، وعدد الأبواب ودرجة الإنفاق عليه [3].

إن مساحة المسجد ومئذنته والمساحات المحيطة به تختلف من حضارة الى اخرى ، فغالبا ما يكون في كل حضارة مسجد جامع يتمتع بمساحة كبيرة ومئذنة يتراوح علوها بين المتر الى الثلاثة أمتار وفناء واسع به أشجار [4]، أما في القرى، فتنتشر المصليات ذات الأشكال المختلفة، مربعة أو مخروطية الشكل الخارجي، مسقوفة بالأغصان والقش أمامها مساحة كبيرة للصلاة في الهواء الطلق .

---

1. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 21.
2. محمود كعت : المصدر السابق، ص 122.
3. نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 148.
4. نفس المرجع، ص 150.

أما أهم مساجد حواضر غرب افريقيا فان المصادر التاريخية تشير الى عدة مساجد أهمها في تنبكت، مثل الجامع الكبير الذي بناه منسى موسى عند عودته من الحج عام 1327 [1]، ثم أعيد ترميمه في عهد أسكيا داوود ووسعه [2] وقد وصف هذا المسجد الرحالة هنري بارث عندما زاره في القرن 19م، ووصف طوله وعرضه ومساحته [3].

ويعد مسجد سنكري الذي يقال ان امرأة غنية بنته ثاني اكبر المساجد في حواضر غرب افريقيا ن ويجهل متى بني ، وأعيد بناؤه عام 989م/1581م، من طرف الحاج العقاب بن القاضي محمود ، اخذ مقاسه وطوله وعرضه من الكعبة الشريفة خلال حجه الى مكة [4].

ولقد كانت المساجد تضيق بالمصلين منذ أيام ابن بطوطة الذي زار المدينة في منتصف القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر الميلادي ، اذ يقول ان يوم الجمعة إذا لم يبكر الناس الى المسجد لا يجد المتأخرون أين يصلون [5].

وكانت المساجد الكبرى بمثابة جامعات [6] ومعاهد تعليمية كبرى ، ومراكز ثقافية وتربوية حققت الأهداف المنوطة بها ، فتتلمذ فيها القضاة والأئمة والفقهاء والعلماء ، ولم تكن أوضاع المساجد والتعليم هذه لتختلف عن سائر مدن بلاد السودان الغربي ، عن حال تنبكت عن ذاك ، فكل حاضرة لها دورها الثقافي والعلمي الذي ساهم في تنشيط الحياة العلمية .

كان للمسجد حرمة لدى السكان من عامتهم وخاصتهم ،حتى بلغت درجة الاحترام والتقديس حيث كان من كان يستجير بالمسجد أو دار الخطيب لا يناله شر.

---

[1] . Barth:op .cit ، p151.

[2].عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 63.

[3] . Barth .(4) .op .cit .pp.323-325.

[4].محمود كعت : المصدر السابق ، ص 121

[5].عز الدين عمر موسى : المرجع السابق ، ص 120.

[6] . Yattara El mouloud : op .cit , p07.

وكان السلاطين ينفقون على المساجد [1]، كما كانت القبور تبنى بجوار المساجد وحوله ربما تبركا بمجاورته، وتلك عادة اهل المغرب فالمغاربة لا يدفنون أمواتهم إلا في رحاب مساجدهم وجوامعهم [2].

ويبدوا أن اغلب هذه المساجد بغاو وجني وغيرها لم تبق آثارها قائمة الى اليوم، وذلك راجع الى عامل البيئة والمواد التي تشيد بها المساجد فهي مبنية بالطين المجفف والأخشاب والقش ، وهي مواد لها مدة حياة لاتكون في الغالب طويلة على عكس المساجد المبنية في الأقطار الاسلامية الأخرى ، والتي تعد الصخور المعدلة أهم ركائزها .

2- الكتب والمكتبات:

من المعروف ان المكتبات من أهم وسائل التعلم فهي مصدر من مصادر المعرفة تحفظ فيها العلوم و ثمار خبرات السابقين فتجعل حياة من يعتمد عليها امتدادا لحياة السابقين، وبقدر ما يعتمد على ذلك تتفاضل الامم ويقاس تقدمها من هنا كان اهتمام المسلمين بالمكتبات ودور العلم كي تسهم في تطور الحركة العلمية[3] .

إن الباحث في مجال الحياة العلمية في عصر من العصور يجد المؤشر على تطويرها يربط بكتب وتراث العلماء ومدى شيوع ثقافة المكتبات، ولذلك كان إقبال سكان حواضر الغرب الإفريقي على اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات التي كانت من المؤسسات الفاعلة في دفع ازدهار هذه الممالك ، وبناء حضارة خاصة بها، وقد تبين ان الدعاة والفقهاء والتجار كانوا يحملون معهم الكتب، ولعل اقلهم حظا ذلك الذي يحمل معه مصحف القرآن الكريم، فلا عجب أن نجد المكتبات الضخمة الخاصة والعامة، التي توجد في المساجد والقصور وبيوت الأعيان والعلماء ، فكان التأثر واضحا من قبل القبائل العربية التي استقرت في تلك البلاد.

---

[1] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 07.

[2] .عبد الحميد جنيدي : مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10ه/16م ، مذكرة ماجستير، معهد التاريخ ، جامعة الجزائر،2010. ص 81.

[3]. حسن جبر: المرجع السابق، ص 289.

لقد انتشرت المكتبات التي اقتناها العلماء والأثرياء وكانت تصرفات طلبة العلم كوجه من أوجه عمل الخير، والبعض عدها صدقة جارية.

واشتهر على العلماء أنهم كانوا لا يبخلون بكتبهم عن الراغبين في الاستعارة منها وكانت تدور حركة نسخ نشطة ليحصل عن طريقها بعض الناس على نسخ من الكتب التي يريدونها [1] .

فقد دخلت حواضر الممالك الاسلامية ، كتب في مختلف العلوم الخاصة بالثقافة العربية الاسلامية ففي عهد مملكة مالي كان السلاطين يتسابقون لاقتناء الكتب الدينية منهم منسى موسى، فبعد عودة هذا الأخير من رحلته الى الحج الشهيرة وأثناء مروره بالقاهرة اشترى عددا من الكتب الدينية للمذهب المالكي ونقلها معه الى بلاده من اجل تعزيز الحياة الثقافية بها[2].

ومما ساعد على كثرة الكتب رغم عدم ابتكار المطابع ما كان يتميز به المرابطون على الثغور من نسخ للكتب بالمجان، مما أدى إلى وجود المخطوطات وسهل على المتعلمين وجود الكتب[3]، بالإضافة إلى تعلم أهل المنطقة فنون الخط وصناعة الورق وان كان على الطريقة التقليدية وكانت المخطوطات والكتب تباع بأسعار أعلى من أسعار السلع التجارية الأخرى [4].

وفي عهد مملكة سنغاي ازداد الاهتمام اكثر بالكتب والمكتبات وهذا راجع الى رسوخ الاسلام اكثر خاصة لدى الطبقة الحاكمة، وأعطى سلاطين المملكة أهمية كبيرة للكتب، فكان من مواطنيهم الناسخين للمخطوطات، ومنهم من يهوى شراء الكتب بأغلى الأثمان .

---

[1]. أحمد شلبي : المرجع السابق، ص 235.

[2]. تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي (845هـ/1441م): السلوك لمعرفة دول الملوك-ج2 تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1418هـ /1997م، ص 11.

[3]. محمد محمد زيتون: المرجع السابق 121.

[4]. جوز يفين كام : المستكشفون في افريقيا ، ت السيد يوسف نصر ،ط1، دار المعارف ، القاهرة ،1983، ص 133.

فقد بلغ حب ملك غاو"الأسقيا داوود" للكتب أن اشترى قاموسا بمبلغ ثمانين مثقالا [1]، وجاء في الفتاش أنه اشترى نسخة من القاموس بثمانين مثقالا [2] .

إن هذه المعلومات التاريخية لتدل على مدى ازدهار الحياة العلمية ، وإقبال الناس على شراء الكتب ونسخها وهو ما أدى إلى ثراء المكتبات الخاصة بأمهات الكتاب حتى تكونت الأسر والعائلات الكبيرة[3]، التي ارتبط اسمها بالمكتبات العامرة الموجودة بمساكنهم الخاصة ، حتى أصبح هذا التقليد شائعا وازداد تجذرا مع ظهور الزوايا والطرق الصوفية حيث مثل شيوخها وزعماؤها مصدر الفتوى وخزانة العلم والكتب . إن تجارة الكتب كانت اكبر تجارة في إمبراطورية مالي ، ثم سنغاي وقد ازدهرت الثقافة الاسلامية وكانت جامعة سنكري تخرج علماء في آداب اللغة العربية والعلوم ، وتشير الروايات التاريخية الى أن الكتب التي كانت مصدر رزق وسلعة تجني منها الأرباح وهذا دليل على كثرة المؤلفات [4] .

هذه الروايات تدل على كثرة العلماء والمتثقفين، وعادة ما يرتبط هذا بتوفر الكتب والمكتبات، تشير المصادر التاريخية انه بعد الغزو المغربي لمملكة سنغاي كان احمد بابا التنبكتي صاحب كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج مكتبة ضخمة تضم نحو سبعمائة مجلد [5]، و بها ذخائر أخرى من الكتب ، نهبت منها ستة عشر مائة كتاب ، ولا ندري هل هذا العدد الهائل صحيح أم مبالغ فيه ، ومهما يكن فان العدد قد ينقص أو يزيد لكنه يجعلنا ندرك ان الكتب متوفرة والمكتبات عامرة خاصة لدى العلماء قدوة الأمة ، فكانت عملية التبادل والإعارة سائدة ومشهورة في حواضر الغرب الإفريقي إذ يروي السعدي ان الطالب يقصد العالم يطلب كتبا فيعطيها له من غير معرفة [6]،

1. نعيم قداح: المرجع السابق، ص 163.
2. محمود كعت : المصدر السابق، ص 108 .
3. احمد طاهر ، فصول من الماضي والحاضر ، ط1 ، دار المعارف ، القاهرة 1975، ص 74.
4. عبد الرحمان السعدي :المصدر السابق ، ص 37 .
5. حسن الوزان: المصدر السابق ،ج2، ص 54.
6. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 51.

وهذا ما يؤكد تشجيع العلماء لطلبة العلم أو ربما العرف السائد آنذاك الذي يذم البخيل في تقديم المساعدة لطالب العلم .

احتوت المكتبات على المخطوطات ، فكان سكان الحواضر ينسخون الكتب الأصلية التي لا يملكونها وبأعداد كبيرة إذ تعذر شراؤها بسبب فقرهم[1] ، وها هو احمد بابا التنبكتي الذي كان من أعظم مؤرخي السودان الذي وضع في ما قيل (70) كتابا في مختلف العلوم والفنون وكان يملك مكتبة تحتوي على ألف وست مائة (1600) عنوانا[2] .

أما عن محتويات الكتب فهي إسلامية في عمومها تتناول السيرة النبوية والأحاديث مثل صحيح البخاري ومسلم وكتب السيوطي وكتب الفقه على المذهب المالكي خاصة ، مثل رسالة ابن أبي زياد القيرواني بالإضافة إلى كتب الأدب والشعر والكتب الجغرافية والتاريخية والكتب العلمية البحث في الفلك والطب[3] .

وقد ذكر بول مارتي المتخصص في دراسة الاسلام في افريقيا الغربية سلسلة من الكتب العربية التي وجدها في مطلع القرن العشرين في المكتبات الاسلامية نذكر منها على سبيل المثال كتاب الجواهر الحسان لأحمد بابا التنبكتي ، وشجرة اليقين للشيخ أبي الحسن الأشعري وشرح بانت سعاد لكعب بن زهير ، وكتب العالم السيوطي وكتب مولد النبي لسعيد بن جبير وكتاب مقامات الحريري وكتاب المصباح المنير ومقصورة ابن دريد وألفية ابن مالك وقطر الندى ، وإحياء علوم الدين للغزالي وموطأ مالك[4] . ان الباحث في تاريخ الكتب والمكتبات يجد السبب في اهتمام سكان الغرب الإفريقي بها ، وهو حث الاسلام على طلب العلم ، الذي اكتسب قداسة وارتبط بحسن إسلام المرء ولذلك لا عجب في ان نجد هذه المكتبات موصولة بالمساجد والزوايا والقصور.

3- الارتحال لطلب العلم :

1. فليكس ديبوا : المرجع السابق، ص 230.
2. إسماعيل العربي: المرجع السابق، ص 313.
3. فليكس ديبوا : نفس المرجع ، ص 230.
4. نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 165.

تعتبر الرحلة من مميزات جهود المسلمين في طلب العلم ن وكان العلماء يحثون الطلبة عليها فكان الطالب يترك بلدته بعد أن يحصل على ما لدى علمائها، فيتوجه إلى مراكز العلم المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي ، ويكابد مشاق السفر وأخطاره ، ولكن هذه المشاق وتلك المخاطر لم تقف حائلا دون تلك الرحلات التي ملئت بطون الكتب ، وكم من عالم ارتحل ، وربما قطع آلاف الأميال ، وكان البعض منهم ينتهز موسم الحج فيسير معهم ، او يعرج على العلماء للتزود منهم وقد بدأ الكثير منهم تلك الرحلات ولم يبلغوا العشرين [1]، فالشباب هم الأقدر على تحمل مشاق السفر .

اتسع نطاق انتشار الاسلام في حواضر السودان الغربي وهم يحملون ما تعلموه ، وانتشر العلماء والفقهاء والدعاة في تلك الحواضر من مدارس القيروان وفاس وتلمسان وغيرها ، فكان هذا مما دفع طلبة العلم وعلماء السودان الغربي للحصول على العلوم من مواطنها وكان طلبة العلم أنشط الناس للرحيل وأصبرهم على العناء ، فكان الحرص على لقاء الشيوخ والعلماء والأساتذة المشهورين هوالغرض الأول من الرحلة، فلم يكن طالب العلم يكتفي بقراءة مصنفات الاساتذة وحدهم، وإنما كان لابد ان يقرأها عليهم ويسمعها منهم حتى يعتبر ثقة في مادته وحجة في علمه ، وبذلك كانت الرحلة ضربا من ضروب التحقيق العلمي [2] .

كان بعض الطلاب والعلماء من اهل السودان يقومون برحلات الى المراكز العلمية في البلدان الإسلامية مثل فاس والقيروان والقاهرة كما اشرنا الى ذلك سابقا ومن العلماء الذين ذهبوا الى فاس للتزود بالعلم كاتب السلطان منسى موسى ، وكذلك عبد الرحمان التميمي الذي ذهب الى فاس للتمكن من العلم ثم رجع الى تنبكت[3] ، وكذلك كان الحال في ارتحال طلبة العلم الى القاهرة حيث خصصت لهم أماكن لاستقبالهم ، فكان في الأزهر تسعة عشر رواقا منها رواق خص الأفارقة [4]، ومنهم

[1]. الخطيب البغدادي: تاريخ التعليم عند المسلمين المصدر السابق ، ص 65 .
[2]. حسن جبر : المرجع السابق ، ص 288.
[3]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق ص 51.
[4]. مجاهد توفيق الجندي : أروقة الأزهر ، ص 04، www.drmarzouk.com ، ص 04.

من يسميه رواق التكرارة نسبة الى بلاد التكرور ومن العلماء من اشتهروا بارتحالهم طلبا للمزيد من العلم مثل عبد العزيز التكروري [1]، والعاقب بن عبد الله الأنصمي[2] ، والعاقب بن محمود بن عمر بن محمد أقيت [3] .

وكانت رحلات الحجيج لأهالي حواضر غرب افريقيا فرصة طلبة العلم والعلماء لزيادة التحصيل ويذكر احمد بابا في نيل الابتهاج عدد من العلماء الذين أدوا فريضة الحج والتقوا العلماء هناك منهم السيوطي وغيرهم[4] ، وهكذا نجد أن الارتحال لطلاب العلم كان سمة بارزة في الحياة العلمية في حواضر غرب افريقيا ، فكان طالب العلم والعالم لا يثنيه طول المسافة ، ولا مشقة السفر فالرحلة مدرسة قائمة بذاتها ، تعلم الطالب صفات الصبر ، وفن التعامل مع الآخرين ، والقدرة على مواجهة المصائب وحلها، وكسب العلم كانت الغاية الكبرى.

وبفضل هذه الرحلات استمرت الوحدة الثقافية والتواصل العلمي والحضاري بين غرب افريقيا وباقي الأقطار الإسلامية ، وبفضلها أيضا كان استمرار تبادل الأفكار بين سكان الحواضر نفسها ، فقد كانت المسافات بينهما بعيدة .

والرحلة من الناحية العلمية ساهمت في تمكين الدين الاسلامي ، والاستخدام الواسع للغة العربية ، ولقد كان الطلبة يتلقون العلم وهم سائرون في ركاب الرحلة مع الشيوخ كما ان هؤلاء الشيوخ ، من كانوا يعقدون مجالس الدرس للطلبة من اهل الحواضر التي يمرون بها وما الأذكار التي كانت تردد خلال الرحلة الا بيانا على ذلك حقا ان الارتحال يمثل مصدر إعجاب للباحث خاصة إذا درسها بالنسبة للعالم الاسلامي عامة ، مثل رواة الحديث الذين كانوا يقطعون الأميال للتأكد من صحة حديث واحد ، لذلك

[1] . عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 182.
[2] . أحمد بابا التنبكتي:نيل الابتهاج، المصدر السابق،ج2، ص 399 ،أحمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، دراسة وتحقيق محمد مطيع،ج2 ،ط1،وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية،المملكة المغربية ،1421هـ/2000م. ص 294.
[3] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 37.
[4] . أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ،ج 2، ص 399 ، كفاية المحتاج ،ج 2 ، ص 295 .

ندرك ان العلم مسافة طويلة كلما ازداد الباحث المسير كلما ازداد علما وشغفا في نفس الوقت .

4- الإجازات العلمية*:

يقصد بالإجازة العلمية إقرار الأساتذة بأهلية الطالب بعد إتمام فترة زمنية يتعلم فيها فنا من الفنون او علما من العلوم ويقع النطق بذلك ، أو يحرر على ورق تدفع للطالب المتخرج ، فيمنح إجازة او صريحا برواية كتب ، لا تسمى تفصيلا كان يقول له : (إنني أجيز لك ..)[1].

وكانت هناك شهادات خاصة بحفظ القرآن وأخرى بالحديث ،وهناك شهادات عامة تشمل عدة مواد أو فنون أو مهارات الى جانب العلوم الدينية .

وكان نظام الشهادات معروفا في حواضر غرب افريقيا خاصة في عهد مملكة سنغاي ، إذ كان الأستاذ كلما لمس احد طلبته مكنا كافيا في مادة من المواد التي درسها عنده ، أعطاه إجازة بخط يده [2] .

وهناك شهادات تعطى فردية بمعنى أن الطالب يستطيع الحصول على شهادة من الأستاذ في المواد التي يتقنها ، ويتعاطى تدريسها، ولكنه يبقى طالبا في مواد أخرى ، وبناء على هذا فإن الشهادات كانت على شكل انطباع يسجله الأستاذ على مذكرات الطالب في مادة او أكثر ، وهنا يراعي الأستاذ مدى الكفاءة التي يكون الطالب قد حصل عليها [3]، وفي يوم التخرج يمنح الطلاب العمائم، والعمامة ترمز إلى النور الإلهي والحكمة والمعرفة والسلوك الأخلاق العالية، وهي تمثل الخط الفاصل بين المعرفة والجهل، مما يعني أن الطالب ملزم بتبادل المعارف والخبرات مع إخوانه [4].

---

*. أنظر الملحق رقم04 ص 207.

[1] . فؤاد سيزكين: المرجع السابق، ص 14.

[2].عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي ،المرجع السابق ، ص 147.

[3] . عبد الحميد جنيدي : المرجع السابق ، ص 84 .

[4] . Jackson, Mississippi. Op.Cit,p03.

وكان العلماء المغاربة في السودان الغربي يلزمون الطلبة بالحصول على الشهادة ، بحيث يتأجل تخرج الطالب إذا لم يتحقق له النجاح ويعود من جديد للتعلم [1]، والطالب الناجح هو ذلك المواظب على واجباته الدينية واوقات الدراسة ، والمجتهد في حفظ ما طلب منه وعادة ما يكلف الأستاذ طلبته المتفوقين بالإنابة عليه، أو إلقاء الدروس ثم يصدر شهادته عليهم[2] وكانت تلك الشهادات تعطى عادة في حفل، يقيمه اهل الطالب الناجح ، وهذه الشهادة العلمية التي تحصل عليها الطالب تؤهله لان يعمل بإلقاء الخطب أو الإمامة،أو بأن يعمل المتخرج كمساعد للقاضي، أو نائب له أو كاتب في مصلحة حكومية، أو ناسخ الكتب، أو معلم القراءة ، وقد تنتهي بالعمل في القضاء وتولي مهامه [3].

المبحث الثاني:مظاهر الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا:

1- انتشار اللغة العربية:

من المعروف أن انتشار اللغة العربية في مناطق العالم الإسلامي ومنها غرب إفريقيا ، كان مرتبطا بدخول الإسلام إليها وانتشاره فيها ،وفي نفس الوقت أشارت الدراسات أنه منذ إدخال الحروف العربية بدأت عملية أسلمة إفريقيا[4].

و إذا كان الإسلام قد وصل إلى جزء من منطقة إفريقيا جنوب الصحراء في وقت مبكر،منذ عهد مملكة غانا الإسلامية، فإنها ازدادت انتشارا في الفترة بين القرنين (8-10هـ/14-16م)، ويرجع ذلك إلى تجدر الإسلام لدى الحكام و المحكومين وكذلك إلى بلوغ العرب مراكز القرار في تلك الدول ،كتابا ووزراء، ومستشارين وأضحت لغة المراسلات، كما ذكر العمري انه ورد كتاب إلى سلطان مصر بالخط

[1] . محمد عبلة سلطان:المرجع السابق ، ص 175.
[2] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 46.
[3] . عبد الحميد جنيدي : المرجع السابق ، ص 64..

[4] . Constant Hamès**:** « Les manuscrits arabo-africains : des particularités ? », Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, p99-100 | novembre 2002, URL : http://remmm.revues.org/index1182.html .31 mai 2010.

المغربي في ورق عريض السطر إلى السطر [1]، و لعب التجار والدعاة دورا حاسما في انتشارا اللغة العربية، وازداد عدد المسلمين الأفارقة، واكتسبت مسحة من التقديس عندهم [2] ، وقد ساعد على إقبال سكان حواضر غرب إفريقيا على اللغة العربية أنها لغة الدين الذي آمنوا به والقرآن الذي يرددون بعض آياته في عبادتهم، ثم الجد والنشاط الذي أبداه العرب في تعليم اللغة العربية للأفارقة وفتح الكتاتيب.

فإذا ما أضفنا إلى ذلك المساواة التي بسطها الإسلام على من اعتنقه من السودانيين بحيث يكون الجميع متساويا في الحقوق والواجبات ،والأخلاق الفاضلة التي جاء بها العرب أدركنا بالفعل أن اللغة العربية بلغت مكانة مهمة وكان لها الفضل الكبير في انتشار الإسلام والتعليم وكل العلوم المتصلة* بهما من نحو وصرف وتفسير القرآن وفقه وأدب وتاريخ وعلم الكلام وغيرها[3]، فسار القانون الإسلامي أو الشريعة والمعتقدات والممارسات ، جنبا إلى جنب مع اللغة العربية لمحو الأمية [4].

وكانت فكرة التمييز بين الحروف العربية عن طريق النقط التي ابتكرت في القرن الهجري الأول، قد اكسب الحرف العربي مرونة جعلته قادرا عن التعبير عن أصوات الكثير من اللغات غير العربية[5] .

ساعد وجود العرب والبربر في أغلبية مدن وقرى بلاد السودان على انتشار اللغة العربية نتيجة الزواج والمصاهرة ، فكان من عاداتهم أن يقوم رجال من العلماء في تلك المناطق بتعليم الناس القرآن العظيم وتفقيههم في الدين .

وعلى يد هؤلاء المعلمين الأوائل انتشرت علوم الدين ،وتقرب الناس إليهم للاستفادة منهم والأخذ عنهم، سواء رغبة في فهم الدين ليؤهلوا للاندماج في هذا

---

[1] . ابن فضل العمري : المصدر السابق، ص 74.

[2] . إبراهيم علي طرحان. المرجع السابق ، ص 153 .

*. خصص المؤرخ عبد الرحمان ابن خلدون الفصل الخامس من مقدمته لذكر العلوم وأصنافها ، والتعليم وطرقه .

[3] . ابن خلدون: المقدمة، ط1، دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان،2008/1429، ص 423 .

[4] . Lisa Lindsay: The Influence of Islam on West Africa. www.spice.stanford.edu.com. 22/10/2010.

[5] . يوسف الخليفة أبو بكر: الحرف العربي و اللغات الإفريقية ، مجلة المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، تونس 1985. ص 171.

المجتمع الجديد أو طمعا في مكانة دنيوية، وبهذا وجدت عوامل مشجعة لتعلم اللغة العربية [1] وغدت اللغة العربية مع توسع الإسلام في كثير من مناطق غرب إفريقيا وحواضرها بالخصوص لغة التجار والعلم والثقافة والإدارة ولغة التخاطب بين القبائل المختلفة الألسن واللهجات ، وأصبح الحرف العربي يستعمل في كتابة اللغات المحلية ،وتأثرت بنحو اللغة العربية وصرفها وأوزان شعرها [2] .

واقترضت اللغات السودانية الكتابة بالعربية وأخذت الكلمات والأسلوب والنموذج و ساهم العلماء في انتشار العربية التي أصبحت لغة الأفكار لدى السود ،ويعود سبب الاندماج في أن أصل بعض الكلمات السودانية سامية تعود إلى تأثير العهد الفينيقي والقرطاجي منذ أن كان البحث عن العبيد والتبر و ريش النعام [3].

وهكذا يتضح لنا أن انتشار اللغة العربية كان واسعا، فالمعارف تدرس وتستوعب باللغة العربية، وكذلك الكتابات الرسمية للدولة و تأليف الكتب لدى العلماء، رغم أن دروس المساجد تقدم باللهجات المحلية العامة، لكن طلاب العلم يدرسون بالعربية ، وهذا ما يفسر وجود ألاف الكلمات العربية المستخدمة في بلاد سنغاي في شتى مظاهر الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية [4] وما كان للعربية أن تبلغ هذه الدرجة لولا الإسلام الذي كان واسع الانتشار من قرون طويلة وهذا يقودنا إلى القول أن الإسلام كان ذا دور حاسم في تعريب المنطقة لسانا [5].

لقد شارك الإفريقيون في الدراسات العربية ذاتها وازدهرت مواطن كثيرة لها في بلادهم ونبغ منهم الكثير في الفقه والأدب والتاريخ ومختلف العلوم الإسلامية ،وكان لهم فضل المشاركة في بناء صرح الثقافة العربية والإسلامية ،وقد تكون هذه المساهمة

---

1 . عبد السلام عبد العزيز فهمي : نصاب الصبيان ومسيرة ستة قرون في تعليم اللغة العربية للمسلمين غير الناطقين بها ط1 جامعة ام القرى ،المملكة العربية السعودية 1405

2 . jon.hunwik: the influence of arabic in west africa .ahistoricol survez. Trans tion. of the historical.society of chan .v.v//.p 24-41.www. *books.google.com/books.*

3 . Maurice Delafosse:.op.cit.p27.

4 . محمد فاضل علي باري سعيد إبراهيم كردية : المرجع السابق، ص 125 .

5 . عز الدين عمر موسى : المرجع السابق، ص 111.

أقل من إضافات غيرهم من الأمم في الكم والنوع ،ولكن هذا القصور يرجع إلى أن الثقافة العربية قد وصلتهم متأخرة [1] .

ولو القينا نظرة على ما تزخر به المكتبات الخاصة والعامة في إفريقيا من كتب التراث الإسلامي، لأخذتنا الدهشة من كثرة ما عرفته هذه المنطقة من أسماء العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين والكتاب الذين لم يعرفوا لغة للثقافة والعلم سوى العربية.

وأمامنا من المصادر الإفريقية المشهورة مثل السعدي، وتاريخ الفتاح لمحمود كعت وتذكرة النسيان ، وإنفاق الميسور لبلو، ونيل الابتهاج التنبكتي، وفتح الشكور في علماء التكرور للبرتلي والجواهر الحسان في أخبار السودان، وغيرها من المؤلفات ،لم تطبع ولم تنشر، ما يقدم الدليل الذي لا يقبل الجدال أن اللغة العربية قد عرفت ازدهارا في غرب إفريقيا ما لا ينكره أي احد ، إذ لا تزال مخطوطات كثيرة لم تحقق لكنها مكتوبة بالعربية [2].

ففي هذه المصادر التي ذكرتها والتي لم اذكرها نجد لوائح طويلة من أسماء العلماء والشعراء والكتاب الذين لا يقل نبوغهم عن نظائرهم في أقطار العالم الإسلامي [3] .

وبالرغم من تأثر العربية باللهجات المحلية من خلال دخول عدة مصطلحات ،وكذلك من خلال تغيير بعض الحروف ومخارجها ومدلول بعض الكلمات [4]، فقد استمرت اللغة العربية إلى جانب اللهجات المحلية كلغة للتعامل والثقافة قبل أن يعمل الاستعمار الأوروبي على فرض ثقافته [5] وعمد الاستعمار الأوروبي إلى إعادة تدوين اللغات المحلية بالأبجدية اللاتينية وحذف الألفاظ العربية في كثير من الأحيان ، بعد أن

---

[1] . جمال زكريا قاسم : العلاقات العربية الإفريقية دراسة تاريخية للآثار السلبية ، للاستعمار ، مجلة الدراسات الإفريقية ،القاهرة ، العدد 547 ، 1977 ،06.

[2] . حسن عيسى عبد الظاهر : المرجع السابق ، ص 25 .

[3] . عبد العلي الود غيري : اللغة العربية : الماضي والحاضر والمستقبل ، 12.11.2010.www.biblioislam.net.

[4] . حسن احمد منصور : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ط1،دار الفكر العربي ،القاهرة ، 2001 ، ص 45 .

[5] . جمال زكريا قاسم : المرجع السابق، ص 07 .

كانت المؤلفات الإفريقية تدون باللغة العربية ،التي كتبت بأحرف عربية على أسلوب الخط المغربي في محاولة متعددة للقضاء على مؤثرات الثقافة العربية الإسلامية [1] .

2- انتشار المذاهب الإسلامية:

أ- المذهب المالكي:

قبل قيام الحركة المرابطية لم يكن المذهب المالكي سائدا في المغرب ، لكنه لم يكن غائبا ،فكان حضوره مزاحما بقوة المذاهب الأخرى مثل المذهب الشيعي والإباضي .

ينتسب المذهب المالكي إلى الإمام مالك (97ه – 715 م / 179 ه – 795 م) الذي ولد في الحجاز واعتمد في استخراج الأحكام على ظاهر النص ، فسمى أبناؤه بالظاهرية، لأنهم جعلوا أحكامهم منحصرة في النصوص بالإجماع وهو ما عرف أيضا بالمصالح المرسلة ، أي كل مصلحة ضرورية للمجتمع يحصل بها نفع أو تدرأ ضررا ، ولا تعارض النص ، ولمالك كتاب في الفقه اسمه الموطأ ، وهو أقدم ما ألفه في الفقه سمي هكذا لأنه صنفه بناءا على أمر الخليفة العباس المنصور، ووطأه للناس أي انه أوضح الشرع لهم ، أو لان فقهاء المدينة واطئوه عليه أي وافقوه ، وهذا المذهب المالكي تلاءم مع عقلية أهل الحجاز والمغرب والأندلس ، وسكان المناطق التي لم تكن أهل جدل ونظر *، وقد ظهرت للمذهب [2] شروح وملخصات توضح ما أشكل من الموطأ .

وحينما انتشر المذهب المالكي بصفة نهائية في الشمال الإفريقي انتقلت مؤثراته لإفريقيا الغربية منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وذلك بحكم مالكية التجار والدعاة والفقهاء الذين دخلوا بلاد السودان واستقروا وعملوا على نشر الإسلام فيها [3].

---

[1] .جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص 46 .

* من الكتب التي تناولت مذهب مالك بالشرح ، المدونة الكبرى لسحنون بن سعيد240ه – 854م ، كما ظهرت للمذهب ملخصات مثل المختصر في الفقه على مذهب الإمام مالك ، لخليل بن اسحق 7ه / 14 م)

[2] . زينب احمد هاشم : المرجع السابق، ص 144.

[3] . الشيخ الأمين محمد عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي ، رسالة ماجستير ، ط1 ، دار المجمع العلمي ، جدة ، 1979 ، ص 43-44 .

ومنذ دخول المرابطين إلى مملكة غانة بعد سيطرة أبي بكر بن عمر على عاصمتها سنة 469هـ /1070م واعتناق سكانها الإسلام ، عم المذهب المالكي السودان الغربي[1] ، وأصبح هو المذهب السائد ببلاده، فدولة المرابطين قامت على أساس نشر الإسلام على المذهب المالكي، فعبد الله بن ياسين مؤسس الدعوة المرابطية من تلاميذ اكبر علماء القيروان مركز المذهب المالكي في تلك الفترة ، وبفضل المرابطين دخل الإسلام غانة ودخلة معهم مؤلفات وكتب المالكية حيث أصبحت هي الكتب المتداولة في بلاد السودان مثل كتب القاضي عياض منها كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام من في مالك ، وموطأ الإمام مالك ، والمدونة الكبرى للفقيه والقاضي سحنون، ورسالة لأبن أبي زيد القيرواني ودرست هذه الكتب [2] في جني و تنبكت .

وفي عهد مملكة مالي كان المذهب المالكي هو السائد وأشار الملك منسى موسى وهو في مصر أنه مالكي المذهب ، واشترى من هناك بعض الكتب في الفقه المالكي [3] .

وقد قامت مالي على أساس تجانس عنصري وروحي ، فأغلب قاطنيها من قبائل متعايشة على المذهب المالكي والقوة الرئيسية فيها هي لرجال الدين [4] .

وتوافد على المملكة عدد كبير من علماء المالكية بعد عودة الملك منسى موسى من حجته سنة 724هـ / 1324م جلبهم معه من الحجاز ومصر [5] ، كما استقر بمالي عدد من علماء المالكية منهم الفقيه أبو عبد الله الكومي الموحدي والشاعر والمهندس أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجين وغيرهم ن ويذكر العمري في هذا الصدد:"وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه ، ولقي بها المسلمين ، وتفقه في الدين " [6] .

---

1 . J.Spencer Trimingham:Op-Cit,p58.

2 . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 93

3 . نفسه، ص 29- 33 .

4 . محمد الغربي : المرجع السابق ، ص 47.

5 . زينب احمد هاشم : المرجع السابق ، ص 145 .

6 . عبد الرحمان ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 – ص 238 ، العمري : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 59.

وفي عهد مملكة سنغاي كانت المالكية أكثر تداولا خاصة بين العلماء والفقهاء منهم :

- محمود بن عمر أقيت [1] (ولد سنة 868ه/1463م) كان قاضيا بتنبكت وكان يقوم بتدريس مدونة الامام سحنون ورسالة ابن أبي زيد القيرواني .

- ومخلوف البلبالي (ت 940ه /1533م) الذي اطلع على رسالة ابي زيد في الفقه ومحمد بن محمود ابي بكر الونكري التنبكتي (ت 1002ه/1593م) .

يقول عنه احمد بابا : " لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل و ابن الحاجب قراءة بحث وتحقق وتحرير ختمتها عليه وختمت عليه الموطأ قراءة تعتم ، وحضرته كثيرا في المنتقى والمدونة شرح المحلي ثلاث مرات[2] .

- الفقيه عبد الله بن محمود أقيت (ت 1006ه/1598م) الذي عاصر الغزو السعدي لسنغاي وتوفي بمراكش ودفن بها سنة 1006 وهو متخصص في الفقه واهتم بدراسة خليل والرسالة [3].

---

[1] . احمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ، ج1 ، ص 399.

[2] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 39

[3] . انظر فصل علماء الحواضر وانجازاتهم العلمية .

ب - المذهب الإباضي :

رغم انتشار وسيادة المذهب المالكي في السودان الأوسط والغربي بعد القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، كان المذهب الإباضي موجود في بعض المناطق التي يكثر فيها العرب و البربر ، وقد لاحظ ابن بطوطة أثناء رحلته في مملكة مالي ومروره بقرية تسمى زاغري، تقيم فيها فئة من الإباضية يطلقون عليهم "صغنغو" وكان أهل السودان يطلقون على المالكية من البيض اسم " توري "[1] ودخل المذهب الإباضي إلى المنطقة مع الطلائع الأولى للمسلمين من التجار والدعاة ، وكان حكرا على جماعات الإباضية انطلاقا من دولهم في تيهرت وسجلماسة ، بالإضافة إلى سيطرة تلك الجماعات الخارجية على المداخل الصحراوية على بلاد السودان ، يقول اليعقوبي : " أن أهل زويلة إباضية "[2] .

يذكر الإدريسي أن تجار ورجلان يتجولون في السودان إلى غانة وونقارة وهم وهيبة إباضية[3].

وباختصار أن المذهب الإباضي دخل إلى السودان الغربي في وقت مبكر ومع طلائع المسلمين الأوائل ، وانتشر بعد ذلك ، وبعد سقوط الدولة الرستمية بدأ نفوذهم يتقلص ،وخلال القرن الخامس الهجري عم المذهب المالكي بلاد المغرب خاصة بعد انفصال بن زيري على الدولة الفاطمية بالقاهرة ، ثم قيام الدعوة المرابطية وتوسع المرابطون في غانة وأصبح تواجد الإباضية في مناطق محدودة جدا .

---

1. ابن بطوطة: المصدر السابق ،ج2، ص 360.
2. عز الدين عمر موسى : المرجع السابق، ص 60.
3. الشريف الإدريسي : المصدر السابق ، ص 296 .

3- انتشار التعليم:

لا تتم دراسة الحياة العلمية في عصر من العصور للأمة الإسلامية إلا بدراسة المؤسسات التعلمية، من كتاتيب ومكتبات ومدارس كمراكز للإشعاع الحضاري ثم تتبع التعليم ومراحله ومناهجه ثم الحكم على مستواه، بالعودة إلى الفترة المحددة محل الدراسة ، والحقيقة التاريخية الشائعة أن العلم سنة واضحة لازمت المجتمع الإسلامي، حيث بذل المسلمون جهدا كبيرا للتفقه في الدين وهو ماكان شائعا في كافة الأقاليم والحواضر الإسلامية، ولم تكن غرب إفريقيا لتشذ عن هذا الإطار.

فقد حث القرآن على القراءة وطلب العلم ،ونوه في مواطن كثيرة بمنزلة العلماء الرفيعة وأهمية العلم وطلبه فيقول الله تعالى :((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)) وقال تعالى ((يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)) ومن أحاديث النبي((ﷺ)) ((يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء)) .

كما أن الإسلام في حرصه علي التعليم لم يفرق بين البنين والبنات ، وروي أن الرسول(ﷺ) كان يطلق الأسير المتعلم من الكفار إذا علم عشرة من المسلمين الأميين القراءة و الكتابة .

وبانتشار الدعوة الإسلامية بدأت تباشير نهضة تعليمية دعامتها في بداية الأمر العلوم الدينية مثل القرآن و التفسير و رواية الحديث ثم استنباط الأحكام الفكرية و الفتاوى الشرعية [1].

لقد حظي التعليم في حواضر غرب إفريقيا برعاية كبيرة من الحكام والأهالي نظرا لما كان يتمتع به العالم من تقدير و احترام بين الحكام [2] و كان النظام التعليمي السائد في السودان الغربي لا يختلف عن سائره في المغرب والمشرق إذ علمنا أن

---

[1] . سعيد مرسي احمد سعيد إسماعيل علي : تاريخ التربية والتعليم ط1 ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1982 ص 167

[2] . ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 355.

المذهب الغالب هو المذهب المالكي وبالتالي العامل الجغرافي بين الإقليمين كان الأكثر تقاربا .

ومما يدل على اهتمام ملوك السودان الغربي بالتعليم ،أن أغلب هؤلاء كانوا يرسلون طلاب العلم إلى بلاد المغرب للتزود بالعلم ،فقد أرسل سلطان مالي منسى موسى بعثات ثقافية إلى مدن المغرب الإسلامي وخصوصا مدينة فاس لمتابعة الدراسة والتحصيل العلمي ،واشتهر في زمنه فقيه هو ((كاتب منسى موسى)) الذي أرسله هذا السلطان ليتابع حلقات العلم المقدمة في فاس ، ثم رجع إلى بلاده وقد تمكن من مادته العلمية، وبدأ يدرس في المدارس السودانية .

كما اهتم ملوك سنغاي اهتماما كبيرا بالإسلام ونشره، واللغة العربية وتعليمها، وأسسوا مراكزا للتعلم في كل أرجاء الإمبراطورية، وعلى رأسها مدينة تنبكت حاضرة العلم والعلماء في غرب إفريقيا لعدة قرون في عهد مملكة مالي و سنغاي معا .

فكان بها أكبر نسبة من العلماء و القضاة، ولهم رواتب منتظمة من الدولة * ، وفيها مكتبات كبيرة وحلقات العلم في المساجد وكانت بذلك أقرب إلى الجامعة في العصور الحديثة [1]، وقد ساهم توفر المدرسين و العلماء و مؤسسات التعليم في ازدهار الحركة العلمية في غرب إفريقيا .

كما ساهمت الكتب في ترسيخ تقاليد فضلها، فقد قدر أحمد بابا التنبكتي مكتبته بألف كتاب وستمائة مجلد [2]، وهذا الكم يعطينا انطباع بالمكانة التي حظي بها التعليم في حواضر غرب إفريقيا، وقد لا تكون هناك مبالغة في العدد الهائل من التلاميذ وحفظة القرآن في تنبكت وغيرها من المدن ذات الدور السياسي والاقتصادي في القرن العاشر هـ /السادس عشر م [3].

---

*. يشير بعض الباحثين أن العلماء كانت لهم نشاطات موازية للتعليم ، حيث يمارسون الفلاحة والتجارة، بل يذهب بعضهم أنهم يجنون المال من صنع التمائم أنظر: J.Spencer Trimingham Op-Cit,p59. .

[1] . علي يعقوب : اللغة العربية وآدابها في دولة سنغاي الإسلامية مجلة علوم إنسانية ، السنة السابقة ، العدد 45 ص 2010' www.ulum.nl. 11.

[2] . عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 37. .

[3] . عز الدين عمر موسى : المرجع السابق ، ص 119.

3-أ- مراحل التعليم * : كان نظام التعليم عند المسلمين من مرحلتين: أولي، وتعليم عالي، وقد استمر هذا النوع من التعليم إلى قرون في مختلف أقطار العالم الإسلامي [1]، ويبدو أن المدارس من النوع الأول كانت معروفة وسائدة في حواضر غرب إفريقيا، وتشابهت معها المناهج والمقررات وأوقات الدراسة .

1- مرحلة التعليم الأولى (الإعدادي – المتوسط):

-التعليم الإعدادي :

يبدأ الأطفال دراستهم في الكتاب - جمع كتاتيب- وقد اختلفت تسميتها في حواضر غرب إفريقيا باختلاف قبائلها، فقبائل الولوف يطلقون عليها اسم دارا،وقبائل موريتانيا يعرفونها بمحضرة الماندينغو يسمونها كارا ،وقبائل التكرور يسمونها ديا لجنتي، وهناك من يطلق على معلم الكتاتيب معالام وهو تحريف لكلمة معلم ويشير المؤرخون السودانيون لهذه المرحلة بعبارة (الصبيان)[2] .

أما بالنسبة لسن دخول التلاميذ إلى الكتاب فيبدأ منذ السن السابعة*، دراسة مبادئ القراءة والكتابة العربية، وحفظ قصار الصور وفي هذه المرحلة كان الآباء هم الذين يحرصون على أبنائهم، فيعودونهم على الحفظ، ويجبرونهم على الدوام، كما يراقبون مدى استيعابهم [3]، وكان الأطفال يدرسون القرآن، وهو بمثابة أصل التعليم الذي يبنى عليه ما يحصل من بعض الملكات.

---

* إن هذا التقسيم في مراحل التعليم لم يكن معروفا بهذه التسميات، لكن المراجع - منهم الدكتور زبادية - قسمته هكذا ، وقد قمت بالعمل نفسه ، وهذا التقسيم يسهل على الباحث والقارئ تصنيف التعليم ومقارنته .
أنظر : Jackson, Mississippi. Sankore University

[1] . منير الدين احمد : تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم ترجمة وتلخيص وتعليق ، سامي الصقار ، ط1 ، دار المريخ ، الرياض المملكة العربية السعودية 1981م-1401هـ ،

[2] . عبد القادر زبادية : الحضارة العربية ،المرجع السابق ، ص 63 .

*.إن ما أثار إنتباهي أن المؤرخين لم يشيروا الى دور الأطفال في مساعدة أبائهم،إذ من المحتمل أن يكون بعضهم قد حرم من الدراسة بسب الأعمال التي يقومون بها، أو أنهم يلتحقون بالدراسة في الصباح الباكرأو في نهاية النهار.

[3] . - عبد القادر زبادية : ملامح الحركة التعليمية في تنبكت، خلال القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 7- 8 ، 1977 . ص 32.

ويقوم التدريس على الحفظ والتقليد مع مراعاة ظروف كل طفل ومقدرته، فمنهم من كان يسمع ويحفظ ومنهم من كان يكتب في اللوح [1] .

وبعد أن يتعلم الطفل مبادئ القراءة والكتابة أولا، يقوم المعلم بتكرار الدرس المقرر على تلاميذه إلى أن يتأكد من إتقانهم له أو حفظه ، أو يكتب التلميذ القدر المقرر على اللوح من القرآن نقلا من المصحف ثم يعرضه على الشيخ ويقراه له ويقوم التلميذ بتكراره حتى يتقنه أو يحفظه ، ثم يرجع إلى المعلم ويقرا عليه الدرس حفظا أو نظرا ، فإن أتقنه يأذن له المعلم بمحو الدرس في مكان خاص ، وتتكرر العملية حيث يكتب الصبي الآيات وعندما يحفظها يمحوها وبهذه الطريقة تخرج القضاة والفقهاء و الأئمة [2] .

وتجدر الإشارة إلى أن التلاميذ مهما كانت كثرتهم فإن كل واحد منهم يدرس عند المعلم على حدة إلا في بعض الأحيان ،فيستعين بكبار تلاميذه لتعليم المبتدئين وهو الذي يعرف باسم (سنتارو) ويكلف بالإشراف عليهم والكتابة للصغار منهم [3] وبعد أن يتم الطفل تعليمه الابتدائي الذي يتوج بحفظ القرآن كاملا ،تقيم له أسرته حفلة عظيمة يشارك فيها المعلم ويهنئه أصحابه وأسرته [4] .

وهناك إشارات[5] عدة إلى كثرة الكتاتيب والتلاميذ على السواء، وحسب ما أورده كعت كانت مدارس الصبيان مابين مائة وخمسين ومائة وثمانين مكتبا ،وأشهر الكتاتيب بمدينة تنبكت بلغ عدد تلاميذه أكثر من مائة وثلاثة وعشرين تلميذا [6] وكذلك الحال بمكتب الفقيه ابن القاسم التواتي قبالة المسجد الجامع في تنبكت [7] .

---

[1] . سعيد مرسي احمد سعيد إسماعيل علي : المرجع السابق ، ص 227.

[2] . حسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 165 .

، Monteil Vincent: Op.Cit,p116 .

[3] . علي يعقوب : المناهج والمقررات التعليمية في الجمهورية النيجيرية ، مجلة علوم إنسانية ، السنة السابعة ، العدد 45 ، 2010 WWW.ULUM.N .org

[4] . فرج محمود فرج :إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر ، ط1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 2007 ، ص 98 .

[5] . J.Spencer Trimingham Op-Cit,p60.

[6] .محمود كعت :المصدر السابق ، ص 180.

[7] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 58.

وقد لا تكون هناك مبالغة في مثل عدد التلاميذ الهائل في مرحلة القراءة والكتابة وحفظ القرآن في تنبكت في القرن العاشر هـ/السادس عشر م ، خاصة إذا اصطحب الباحث طبيعة الكثافة السكانية في المدن السودانية ذات الدور السياسي والفعالية الاقتصادية [1] .

أما أوقات الدراسة *فإنها تختلف من حاضرة إلى أخرى ومن معلم إلى آخر، وتختلف حسب مستوى التلاميذ وسنهم، ولاشك أن المعلمين كانوا يتقاضون أجورا على تعليمهم للاطفال وبدوره يختلف من حاضرة إلى أخرى حسب الظروف الاقتصادية السائدة، وقد تحول التعليم إلى حرفة يرتزق منها المعلمون رغم أن التعليم ينظر إليه كواجب لا كحرفة[2]، بل أصبح صناعة لاستفاء الرزق اختصت بها فئة من الناس والظاهر انه كانت هناك مستويات من المعلمين:المعلم المؤدب، والشيخ، والإمام [3] .

- مرحلة التعليم المتوسط :

وهي مرحلة تعليمية أرقى من سابقتها ،وتتم في الزاوية أو المسجد ،ولم تكن محددة بسن معين ، فهي متاحة لجميع من استكمل دراسته في المرحلة الأولى بنجاح ،ويتولى التعليم فيها مدرسون و علماء أكفاء في مختلف المواد الدراسية [4].

يتلقي الطلبة كافة العلوم عل يد المدرس أو الفقيه، ويجلسون حوله على شكل حلقة (دائرة) ومع كل واحد منهم لوحه و كتبه ،وتستمر الحلقة غالبا من صبح كل يوم حتى منتصف النهار ، بعدها ينصرف الطلبة لتناول الغداء ، و تبدأ الفترة اليومية الثانية بعد صلاة العصر وتستمر غالبا حتى وقت صلاة المغرب ،وهكذا باقي الأيام ما عدا الجمعة و الأعياد ، ويبدوا أن المناخ كان له دور في تحديد هذه الفترة إذ الحرارة الممتدة من الظهر إلى العصر هي بمثابة راحة للطلاب وشيخهم على السواء.

---

[1] . عز الدين عمر موسى : المرجع سابق ، ص 119.

*.يذكر السعدي أن عالما من جني كان يخرج نصف الليل من داره الى الجامع لنشر العلم ،الى إقامة صلاة الصبح، ومن الصلاة الى وقت الزوال، أنظر السعدي :المصدر السابق، ص 16.

[2] . J.Spencer Trimingham Op-Cit,p60.

[3] . - سعيد مرسي احمد ، سعيد إسماعيل علي : المرجع السابق ، ص 228.

[4] . عبد الرحمان السعدي : نفس المصدر والصفحة.

فكان التعليم في هذه المرحلة حرا يرتبط بظروف العائلة ، واهتمام الأسرة بأبنائها ، ومتابعتهم للحفظ والتحصيل ، إذ يصف ابن بطوطة اهتمام وعناية أهل السودان بتحفيظ أولادهم القرآن إذ يقول ودخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له، ألا تسرحهم فقال " لا أفعل حتى يحفظوا القرآن" [1] ولم تكن هذه المرحلة محددة بوقت معين، أو فصل أو سنة دراسية معينة، بل كانت تتوقف على استعان الطالب لعدد من الكتب منها كتب الحديث والفقه و النحو، و هذا يتوقف على قدرات ومهارات الطالب على التحصيل والانتهاء منها و لربما يبقى الطالب أكثر من ثلاث سنوات في قراءة موطأ مالك، وغيره من المذهب المالكي ، والسير وعلم الحديث، ومناقشة المؤلفات والمسائل الكبيرة مع شروحها [2].

2- مرحلة التعليم العالي :

بعدما تلقن الطفل في المرحلة الأولى حفظ القرآن وبعض مبادئ النحو، ينتقل في المرحلة الثانية إلى دراسة الفقه والسيرة واللغة العربية وآدابها، وبعد أن اكتسب رصيدا فكريا يخوله التوسع في العلم، أو التخصص في جزء منه ينتقل الطالب إلى المرحلة العليا، التي يلتحق فيها بأحد مشاهير علماء المنطقة أو يشد الرحال إلى حاضرة من حواضر العالم الإسلامي في المغرب والمشرق، للاستزادة من علمائه فيدرس الطالب في مرحلة أخيرة القراءات، والتفسير والأحاديث وعلوم أخرى كالفلك و الجغرافيا والحساب، و يكون المسجد هو الجامعة التي يتلقن فيها الطلاب و يلتفون حول مدرسهم، فكان هذا منظرا جميلا لنواة المجتمع العلمي [3].

وقد أصبح المذهب المالكي طابع الدراسات و البرامج الدراسية لان المذهب المالكي هو السائد في المنطقة [4].

---

1 . ابن بطوطة : المصدر السابق،ج 2، ص 364 .

2 . عبد الحميد جنيدي : المرجع السابق ، ص 82-83.

3 . Dubois,(F),Tombouctou la Mystérieuses, paris,1897. p 331

4 . مطير سعد غيث احمد : المرجع السابق، ص 202.

تتميز الدراسة في مرحلة التعليم العالي بالتعمق، واعتمدت منهجا واضحا يغلب عليه مذهب مالك، حتى تتكون لدى الطالب ثروة لغوية وفكرية، وكان التسلسل في المناهج وفي برامجهم صفة علماء إفريقيا عامة، وقد حبذ ابن خلدون هذه الطريقة التربوية اذ يقول :" أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا فقليلا " [1].

أما مدة الدراسة فقد تطول عشر سنوات أو تقصر، وربما قضى بعض الطلاب نصف عمره في هذه المرحلة وبعد إكماله الدراسة يمنح الطالب إجازة من عدد من الأساتذة الكبار في المنطقة [2] .

وهي بالتأكيد تشبه الإجازات والشهادات الأكاديمية التي تتوج التحصيل العلمي عند الطلبة الباحثين اليوم، وقد كانت وضعية الطالب على ما يبدو مزرية ،لان التعليم كان حرا ،يعتمد على قدرة الأولياء على دفع أبنائهم للتعليم ،وتوفير لهم أموال أو مؤن تدفع إلى المدرسين وتغطي حاجاتهم أثناء الدراسة ،ومن التقاليد المعروفة أن الطالب يدفع أجرة مدرسه ،ويذكر لنا كعت أنه حظر مكتب المعلم علي تكريا يوم الأربعاء ،وهو اليوم الذي يدفع فيه الصبيان أجرة معلمهم للقرآن من كل أسبوع ،قال : وجعل الصبيان يأتون

بخمس ودعات وبعضهم عشر ودعات [3] وقد تكون أجرة المدرس مؤونة مثلما كان الحال في إقليم توات حيث تخص ف حصة سنوية من التمر والقمح لمعلم الكتاب نظير قيامه بالتعليم [4] ، ولا شك أن مؤونة سكان السودان الغربي هي مما ينتجه مزارعو المنطقة، أما الأسر الميسورة الحال ،فان الجانب المادي لا يعيق مواصلة أبنائهم الدراسة، وتشير المعطيات التاريخية أن تكلفة الدراسة تزداد مع المستويات الثلاثة

---

[1] .عبد الرحمان ابن خلدون : المقدمة ، المصدر السابق، ص 490 .
[2] . فليكس ديبوا : المرجع السابق ، ص 234.
[3] .محمود كعت : المصدر السابق ، ص 180-181 .
[4] . فرج محمود فرج : المرجع السابق ص 98 .

خاصة في مرحلة التعليم العالي، وهذا بالتأكيد ما يفسر قدرة العلماء على التفرغ للتدريس، والتأليف، فكانت بذلك وظيفة العيش .

3- ب- المناهج ومواد الدراسة

-1 - المناهج :

المنهاج في اللغة العربية الطريق الواضح، كذلك المنهج والنهج [1] والمنهاج السائد خلال القرنين 08-10هـ/14-16م، هو الذي يركز تركيزا شديدا على إيصال مجموعة محددة من المعلومات والحقائق إلى أذهان المتعلمين وهو منهج التلقين، حيث يقوم المعلم بتكرار الدرس المقرر على تلاميذه على أن يتأكد من إتقانه له أو حفظه أو يكتب التلميذ القدر المقرر على اللوح من القرآن نقلا من المصحف ثم يعرضه على مدرسه ويقرؤه له، ويقوم التلميذ بتكراره حتى يتقنه أو يحفظه .

ثم يرجع إلى المعلم ويقرأ عليه الدرس، حفظا أو نظرا فإن أتقنه يأذن له المعلم بمحو الدرس، ويكتب مكانه درسا جديدا - آيات جديدة – .

والمناهج والكتب المتداولة في حواضر غرب إفريقيا نفسها التي كانت في المغرب الإسلامي سواء في تنبكت أو غاو أو ولاته أو جنَى أو غيرها فتأثرت كلها بالطابع والرسم المغربي أي المنهاج والكتب المالكية المغربية [2] منها كتاب عياض سحنون وشروح أبي القاسم وخليل وكتب المغيلي والونشريسي وموطأ مالك والمدونة [3].
وأما المناهج فكانت تعتمد على منطق أرسطو، والفلسفة اليونانية ومقامات الحريري[4] ويبدوا أن التأثير المغربي كان واضحا، وهذا لا يعني عدم وجود طابع خاص بالسودان الغربي، بالنظر للعادات والقيم الإنسانية التي كانت سائدة في حواضره وهو ما يعني أن تلك المناهج لم تعصم الناس من الانحراف [5] .

---

[1] . ابن منظور ، لسان العرب ، 4554/6 .طبعة دار المعارف
[2] . حسن احمد محمود :المرجع السابق ، ص 207.
[3] . اعبد الرحمان لسعدي : المصدر السابق ، ص 29، 33 ،35 ، 46.
[4] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 161.
[5] . عبد القادر زبادية : ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو ، المرجع السابق ، ص 33.

لكن الحكم العام عليها يجعلنا ندرك بذلك مدى الازدهار الذي عرفته هذه الأقاليم خلال الفترة محل الدراسة ، وهذا مقارنة بالفترات السابقة واللاحقة.

إذ أن عدد القراء الكبير وانتشارهم في البادية والحاضرة ومعهم العدد غير اليسير للفقهاء والعلماء [1] يؤكد حالة التعليم .

-2- المقررات(مواد الدراسة) :

ازدهرت الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا وشملت جميع مناحي الحياة الدينية والدنيوية كاللغة العربية وآدابها، والعلوم الشرعية من فقه وعقيدة وتفسيروحديث، وعلوم دنيوية كالطب والحساب وعلم الفلك وعلم الكلام والتاريخ .

1-اللغة العربية وآدابها: لقد اهتم سكان غرب إفريقيا باللغة العربية لسان القرآن ،ووسيلة اتصال بالعرب القادمين من الشمال ،وأداة مهمة في التجارة والسفر في موكب الحج.

كانت اللغة العربية تدرس بالحروف الأبجدية والهجائية حيث ترسم الحروف بصور مألوفة وذلك قصد تقريبها إلى الأذهان فمثلا الحاء يشبهونها بالكماخ الذي يصنع من الخشب، والعين يشبهونها بفم الثعلب حتى يفرقون بينها وبين الهمزة، وهكذا لا يخلو حرف من حروف العربية إلا ويقربونه بشكل مألوف يرسخ في الأذهان [2]، إلا أن المشكل المطروح هو النطق السليم للحروف وإخراجها مخارجها الصحيحة، وهي مشكلة شائعة في تعلم اللغات حتى في أيامنا هذه، وكان اهتمام أهل السودان بالنحو والصرف بالغا، فبواسطته يتم التعبير باللغة العربية مشافهة أو كتابة أو في حلقات العلم والمساجد، وقد أشار إلى ذلك الإقبال كل من احمد بابا التنبكتي والسعدي عند تعرضها لعلماء وفقهاء بلاد السودان الغربي [3]، أما مقررات النحو والصرف فتشمل الحصن الرصين في الصرف، فيبتدئون الدراسة النحوية بكتاب الاجرومية للشيخ عبد الله بن

[1] . عز الدين عمر موسى: المرجع السابق، ص 118.
[2] . علي يعقوب : المرجع السابق ، ص 06 .
[3] . احمد بابا التنبكتي : كفاية المحتاج ، ج 1،المرجع السابق، ص 377.

محمد الصنهاجي (ت 726ه)، ثم منظومة ملحمة الإعراب للحريري ثم قطر الندى لابن هشام (ت 761هـ) ثم ألفيه بن مالك (672هـ) وبعض الشروح[1] .

وفي الأدب -الشعر والنثر- يدرس طلاب حواضر غرب إفريقيا مقصورة ابن دريد والبردة للبصيري، وقصائد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقصائد شعراء الجاهلية ومع شروحها ، لكن المتتبع لمنتوج الأدب في غرب إفريقيا كان قليلا ولم يبرز مثقفون سودانيين ولم تكن لهم مؤلفات خاصة بهم إلا القليل جدا وربما أهملتهم كتب التراجم سواء السعدي أو احمد بابا التنبكتي[2] أما في النثر الفني فيعد كتاب المقامات للحريري الأكثر رواجا لدى الطلاب والعلماء على حد سواء، وفي البلاغة والعروض نجد الاهتمام بها قليل ومن كتبها ألفية السيوطي وكتاب الوافي ومقصورة الخزرجى في العروض ،وقد ساعد الطلاب في التمكن من هذه الكتب علماء حذقوا عملهم ،وتمكنوا من فنهم لغة ونحوا وبلاغة ،تلاوة وقراءة وتفسيرا[3] وهؤلاء العلماء والصالحين الذين توافدوا على المنطقة وساهموا كثيرا في نهضة البلاد وبث روح الثقافة بينها واستطاعوا أن يقفوا على الكثير من العادات السيئة ويحاربونها[4] وتعد اللغة العربية وآدابها الأساس في التعليم إذ بها تغذت المراحل العليا التالية في تنبكت أو القاهرة أو فاس إذا أراد الطالب متابعة تحصيله[5] .

العلوم الشرعية :

2- الفقه وأصول العقيدة : أشرت سابقا إلى أن المذهب المالكي هو المذهب السائد، ولذلك لا غرابة في أن نجد كل مقررات الفقه على مذهب الإمام مالك، سواء المنشور أو المنظوم، ومن أكثر الكتب تداولا في الفقه وأصول العقيدة متن رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ت386ه)، وكتاب إرشاد السالك إلى اشرف المسالك على مذهب الإمام مالك

---

[1] . علي يعقوب : المرجع السابق، ص 07.

[2] . عبد القادر زبادية : الحضارة العربية ،المرجع السابق ، ص 60.

[3] . عز الدين عمر موسى : المرجع السابق ، ص 122 .

[4] . -عبد الحميد بكري : النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر ، ط1 ، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران ، الجزائر ، 2007، ص 53

[5] . نعيم قداح : المرجع السابق، ص 161.



لمؤلفه عبد الرحمان عسكر البغدادي (ت732ه)[1]، ومختصر خليل بن إسحاق (ت776ه)، وهو أعظم كتب المذهب وأشهرهم، اقبل عليه العلماء فشرحوه ،وشرحوا عليه وهو آخر كتاب يدرس في الفقه المالكي المنشور وإما الكتب المنظومة فهي كثيرة مثل منظومة القرطبي ، ومنظومة ابن عاشر وهي لعبد الواحد بن عاشر (ت1040ه) وفي الفقه نجد كتاب متن الورقات لإمام الحرمين الجويني (ت487ه) ،وفي العقيدة نجد القرطبي ورسالة ابن زيد القيرواني [2].

3- التفسير والحديث

التفسير :

كان القرآن الكريم و لا يزال المصدر الأساسي والمنهل الذي يأخذ منه المسلمون العلوم المختلفة، وقد اتجه المفسرون اتجاهين: يعرف أولهما باسم التفسير المأثور، وهو ما اثر عن الرسول وصحابته، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأي، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل [3]، وفي الغالب لا يبدأ الطالب في دراسته التفسير إلا بعد دراسة اغلب المتون الفقهية، وأهم الكتب المتداولة تفسير ابن كثير وتفسير القرطبي (ت671هـ).

الحديث: من أهم مصادر التشريع الإسلامي ويأتي في الأهمية بعد القرآن الكريم [4] ، ويبدأ الطلاب بكتاب الأربعين النووية ثم رياض الصالحين ثم موطأ مالك وغيرها، من كتب الحديث كصحيح مسلم والبخاري[5]، وفي السيرة اشتهر كتاب سيرة ابن هشام، وكتاب الصفا للقاضي عياض .

- العلوم الأخرى :

[1] . علي يعقوب : المرجع السابق ، ص 08.
[2] .علي يعقوب: المرجع السابق ، ص 09.
[3] . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ط1 ، دار الجبل بيروت ، 2001 ، ص 346.
[4] . نفسه ، ص 351.

[5] .J.Spencer Trimingham Op-Cit,p.62

4- الطب والصيدلة :

استخدم الأفارقة العقاقير المستخرجة من النباتات والتي يستخدمها المرضى المعالجون في القرى الإفريقية، فسخر الأطباء قدراتهم لخدمة البشر[1]، ويبدو أن الأفارقة كانت لهم معرفة سابقة بالكثير من النباتات الطبيعية لارتباطها بالسحر والشعوذة قبل دخول الإسلام .

واستخدم الأفارقة خبرتهم هذه الطويلة في العلاج الطبي، وتوفير الأدوية، ونتيجة لمعرفة الأفارقة بالطب التجريبي، كان لديهم بعض المختصين مثل ما ذكره ابن بطوطة في رحلته وشرح فيها كيف شفي بعد أن قدم له الدواء احد الأطباء المصريين [2]، كما يروي السعدي أن احد إخوته شفي من مرض لازم عينه بفضل الطبيب المعروف (إبراهيم السوسي)، وهذا دليل على أن الطبيب أخذ نصيبه من الدراسة [3] ، و عرف الإفريقيون خياطة الجروح و تضميدها، و قطع النزيف بالزيت المغلي، و معالجة السموم بخلاصة بعض النباتات [4]، ولا شك أن البيئة الإفريقية بمناخها المطير و الجاف تحتاج إلي مختصين في الأعشاب لمواجهة بعض الأمراض، وإن كان هؤلاء المختصين لم يرقوا إلي مستوى الأطباء إلا أن وظيفتهم تلبي حاجة السكان .

5- التاريخ و الجغرافيا:

كان الاهتمام بالتاريخ مرتبطا بباقي العلوم ، فهو الحلقة التي تجمعهم ، و إن ما تركه السعدي و محمد كعت في كتابيهما " تاريخ السودان" و " تاريخ الفتاش " و هما أهم مؤرخي غرب إفريقيا لأبرز دليل على الاهتمام بالتاريخ، سواء من طرف الطلبة أو الحكام و عامة الناس.

ولقد كانت أخبار الأنبياء و الأمم السابقة، من اهتمامات الأمراء قبل الطلبة ، بالإضافة إلي سيرة الرسول (ص) و مغازي الفتح، وتسجيل حياة العلماء، و سيرة

---

1 . كلود قوتييه : إفريقيا للأفريقيين ، ترجمة كمال يونس ، ط1، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 53

2 . ابن بطوطة : المصدر السابق،ج2 ، ص 354.

3 . فليكس ديبوا:المرجع السابق، ص 233.

4 . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 163.

الصحابة، أما الجغرافيا ووصف الطبيعة من أنهار و جبال و أودية و صحاري، وكان لكتب الرحالة نصيب من اهتمام طلبة العلم .

6-الحساب و علم الفلك :

كانت هناك عناية بالحساب* لما له علاقة مباشرة بالتجارة، و تربية المواشي، و قياس المسافات، و هندسة المباني و القصور، و تروي لنا كتب تاريخ غرب إفريقيا عن المهندس الأندلسي الذي استقدمه ملك مالي منسى موسى بعد عودته من الحج.

و يبدو أن علم الفلك ازدهر هناك لحاجة الناس إليه في السفر إلي مكة ، و قد ذكر السعدي في الفصل العاشر من تاريخه تراجم سبعة عشر عالما من تنبكت مبينا الميادين العلمية التي اختص بها كل منهم ، وكانوا من النحاة و المناطق و الفقهاء و الأدباء و علماء اللغة والتفسير و الحديث [1].

كما كان الناس بحاجة إلي تحديد الوقت، و مواقيت الصلاة و اتجاه القبلة، واختص فيه عدد من العلماء ولإن كان بالطرق التقليدية* .

7- علم الكلام:

يقصد به الأقوال التي تصاغ على نمط منطقي أو جدلي وعلى الأخص في العقائد، إذ أن المشتغلين بهذا العلم يسمون "المتكلمين "، وقد أطلق هذا اللفظ أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية [2]، ومن خلال هذا التعريف يتضح أن علم الكلام يرتبط بالحجة والإقناع وتقديم الدليل، وهو ما جعل الاهتمام به مقتصرا على فئة العلماء لإقناع طلبتهم، أو إقناع الوثنين بالدخول في الإسلام، أو مخاطبة الأمراء كما كان للشيخ المغيلي في مملكة سنغاي، ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه العلوم العقلية لم ترق إلى ما وصلت إليه في العواصم الإسلامية الأخرى، فقد كانت هذه العلوم مرتبطة بفئة

---

* . يقول فليكس ديبوا أن الرياضيات لم تنل نصيبها من العلم بالقدر الكافي، أنظر فليكس ديبوا:المرجع السابق ، ص 233.

[1] .نعيم قداح: المرجع السابق ، ص 161

*.أنظر ملحق رقم 08 ص 213.

[2] . حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص 357.

قليلة من الطلبة والعلماء أو من يقودون الرحلات التجارية أو قافلة الحجيج ، وذلك حال الجغرافيا والفلك والحساب .

د- مستوى التعليم:

شاع في حواضر غرب إفريقيا كغيرها من بقاع العالم الإسلامي العلم والتعليم، حتى أن الدارس والمؤرخ يندهش حينما يعلم أن إفريقيا عاشت بعيدة عن الجهل خلال هذه القرون، عكس ما ذهب إليه كثير من المؤرخين غير المنصفين .

إذ أن العلم سنة واضحة لازمت المجتمعات الإسلامية، وبذل المسلمون جهدا في بناء مجتمع يسوده التفقه في الدين، فعرف السودانيون قيمة العلم بعد دخول الإسلام إلى المنطقة وتخليصهم من العقائد الفاسدة والخرافات البالية، والصراعات الطائفية المقيتة ، فاستقدم أمراء مالي وسنغاي العلماء والفقهاء، وأنزلوهم في قصورهم وأشاروا عليهم في أمور الدين والسلطة، وسافروا معهم في رحلات الحجيج، وعرفت اللغة العربية طريقها إلى تلك المناطق رغم أنهم حديثي العهد بها مقارنة بلغاتهم ولهجاتهم المختلفة .

شارك السودانيون بالقدر الممكن في صناعة العلم وبنائه باعتباره أحد مقومات الحضارة الإنسانية، فالعلوم الإفريقية تعتمد على التقاليد الايجابية وأعمال أشهر العلماء، وهذه العلوم توجه المجهود المتعلق بالكفاح ضد جميع أنواع التزوير التي تمس التاريخ الإفريقي، ولذ نجد أن العلوم الإفريقية تكشف عن صراع دائم مع الجهل والتخلف [1].

إن الحركة الفكرية والعلمية في حواضر غرب إفريقيا، لم تقتصر أو تتأخر عن مثيلاتها في مراكز العلم مثل فاس أو تلمسان أو القاهرة، بما يعطي لهذا الإقليم من العالم الإسلامي الدور الذي لعبه في نشر الثقافة الإسلامية ورسوخها إلى اليوم في إفريقيا جنوب الصحراء عامة، مع اعتناء علماء وطلاب السودان الغربي بالقرآن وحفظه وتفسيره وما يتعلق بباقي العلوم الإسلامية ثم العلوم العقلية والمهن الحرة [2].

---

[1] . ولتر ماركوف ، هارموت تيمسوفسكي : إفريقيا على ضوء العلوم التاريخية ، مجلة الثقافة الإفريقية ، الجزائر 1969 ص 306.

[2] . حسن الوزان : المصدر السابق ، ج2 ، ص 164.

ازدهرت الحياة العلمية وكثرت الكتاتيب والمساجد وتنوعت العلوم وازداد عدد الفقهاء والقضاة والأدباء في حواضر غاو وجني و تنبكت من أهلها أو من سكنوها [1].

فقد كان مستوى المدارس الإسلامية، يضاهي مستوى المدارس الإسلامية الأخرى، و لربما يزيد عنها في بعض النواحي، فقد روى السعدي أن فقيها اسمه عبد الرحمان التميمي جاء من الحجاز بصحبة السلطان منسى موسى صاحب مالي، فأقام في تنبكت زمنا، ولما رأى رجالها وعلماءها يتفوقون عليه غادرها إلى فاس لتحسين مستواه العلمي[2].

كما رحل عدد من علماء السودان الغربي إلى حواضر العالم الإسلامي، ومن أشهرهم احمد بابا التنبكتي الذي درس في فاس ودرس في مساجدها، وكذلك الحال للعلماء الذين هاجروا إلى غرب إفريقيا، وأشهرهم الشيخ عبد الكريم المغيلي، وقد أشرت في الفصل السابق أنه كان في الأزهر رواق خاص بالسودانيين عرف بالرواق التكروري، بالإضافة إلى الكتب التي كانت تستقدم مع التجار والحجاج إلى حواضر غرب إفريقيا، كلها تدل على المستوى اللائق الذي عرفته الحياة العلمية، فعرف السودانيون الرحلة إلى طلب العلم، وتنوعت مراحل التعليم وأماكنه، وبرز العلماء وتعددت مناهج ومواد التدريس واهتم الآباء بتدريس أبنائهم، وبلغ التعليم نفس المستوى الذي بلغه في جامعات قرطبة وتونس وتلمسان والقاهرة [3].

لقد أحدث الدين الإسلامي نشاطا ثقافيا وحمل اللغة العربية على الانتشار في أوسع نطاق، وظلت المدارس القرآنية نبراسا لتقاليد اجتماعية [4]، وصنعت حواضر غرب إفريقيا تاريخا مشرقا خلال عدة قرون قبل الاستعمار الأوروبي، الذي أعاد حضارة السودان الغربي إلى نقطة البداية وحاول تغيير البنية الحضارية له وتشويه التاريخ .

---

[1] . يحيى بوعزيز : تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن (16-20م) دار هومة ، الجزائر ، 2001 ، ص 195 .

[2] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 51.

[3] . ولتر ماركوف ، هارموت تيمسوفيسكي : المرجع السابق ، ص 265.

[4] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 08.

خاتمة الفصل :

عرف التاريخ الثقافي لحواضر غرب افريقيا نشاطا كبيرا للمساجد التي بنيت في مناطق مختلفة، فكان لها دور عظيم في نشر الوعي العلمي والثقافي وعلة ترسيخ مقومات الشخصية الإسلامية، والحفاظ عليها والمسجد مدرسة دينية ودار للتهذيب والضيافة، ومركز يجمع بين العلماء والطلبة وهو مركز إشعاع علمي وحضاري يقوم على تدريس مختلف العلوم الدينية والعقلية، في مختلف المراحل التعليمية.

ولقد استمر بناء المساجد والاهتمام بها مع مختلف السلاطين والحكام، وفي معظم أقاليم السودان الغربي، وهي بذلك تمثل جزء مهم من الحياة العلمية والثقافية منذ دخول الاسلام إليها وخاصة في الفترة محل الدراسة .

ولعل الكتب والمكتبات تمثل عاملا ومظهرا أساسيا لتقييم مدى انتشار التعليم ومنتوجه وشاهدا على تأثير الإسلام[1] ، و على الرغم من صعوبة توفر الورق أو قلة الناسخين، فإن عدد المجلدات التي نسخت أو ألفت لتدل على صدى النشاط الذي عرفته كتابة ونسخ المؤلفات، حتى عد بعضها بالآلاف كما أشرنا في هذا الفصل، وكان الارتحال لطلب العلم سمة العالم الاسلامي كله ، ولم يكن السودان الغرب ليشذ عن هذا بالرغم من مشاق السفروبعد المسافة التي تصل الى آلاف الأميال .

وهو ما يفسر قلة الطلبة الذين توجهوا الى حواضر المغرب والمشرق الإسلاميين، ولم يول طلبة العلم للشهادات المتحصل عليها اهتماما، فكان الطلبة يتنافسون في حفظ القرآن والحديث، وكانت الأسر تكرمهم بإقامة الحفلات، وترعاهم في مرحلة الطفولة .

و إذا كان الحكم على ازدهار الحياة العلمية والثقافية في عصر من العصور يقوم على تقدم العلوم، فان حواضر غرب إفريقيا قد عرفت عناية العلماء بالعلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها، ولكن عنايتهم بالعلوم العقلية كالطب والفلك والحساب والهندسة وغيرها كان قليلا، ذلك أن ما كان متداولا من هذه العلوم والفنون لم يكن يخرج عن

[1] . J.Spencer Trimingham Op-Cit,p61.

تقليد السابقين، ولم يكن ممارسوه بالاستقلال العقلي وروح الابتكار والتجديد الذي يمكن أن نقارنه مع ما كان سائدا في بغداد أو قرطبة أو فاس، لكن إذا ما قورن مع ماضي السودان الغربي قبل الإسلام، فإننا نقول دون تفكير أن حواضر غرب إفريقيا عرفت ازدهارا علميا كبيرا وخاصة في الفترة بين القرنين (08-10هـ/14-16م).

ورغم اتساع التعليم وكثرة المدارس والكتاتيب، وارتفاع عدد الطلبة وكثرة حفظة القرآن وتمسك السودانيين بتعاليم الدين الإسلامي، فإن هذه الحواضر كانت تفتقر إلى معهد رئيسي كبير يلم شتات المثقفين في القرى والأرياف، فكان القليل الذي يستطيع السفر إلى فاس أو القيروان وغيرها طلبا للعلم والتبحر فيه .

وعليه ظلت المدارس الموجودة في حواضر الممالك الإسلامية بغرب إفريقيا تحتفظ بخصائصها المستقلة عن المدارس المجاورة ولا تربطها علاقات تنظيم أو تسيير وعليه بالقدر الذي كثرت فيه المدارس بالقدر الذي لم تبرز فيه جامعات كبرى ، ولم يكتب لواحدة أن تتفوق على الأخرى ، إذا استثنينا من هذا حاضرة تنبكت التي كانت بحق تشبه إلى حد بعيد الجامعة الكبرى في غرب إفريقيا .

هذا ما جعل الحكم على الحياة العلمية في غرب إفريقيا بمنظور أندلسي أو عربي أو أوروبي، وما شهدته هذه المناطق من تطورات يجعلنا لا نزن الأحداث والتطورات بميزان العدل، فعلينا قبل الحكم أن ندرس كيف كانت إفريقيا؟ وكيف تطورت؟ وما هي المدة الزمنية المستغرقة لبناء الحياة العلمية وتقاليدها؟ وهل ساعدت الظروف التاريخية والتطورات السياسية مملكة مالي وسنغاي على التطور الحضاري الكافي؟، لنقارنه بحضارة الأندلس مثلا أم أن الكثير منها - التطورات التاريخية والسياسية - كانت تعيق التواصل الحضاري، وما هي الظروف الطبيعية المحيطة؟ ، وهل كان النظام القبلي دافع للفكر؟ أم تراجع بسبب تمسكه بالقيم التي ظل الإفريقي يقدسها؟، حتى روى لنا الرحالة كابن بطوطة وحسن الوزان بعضا منها، غاية في الغرابة وبعدا عن الحياة الإسلامية .

إن هذه الأسئلة تحمل الإجابة عليها في نظر الباحث دعوة له إلى المزيد من الدراسة والتعمق، وما استخلصته أن الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا وما شهدته يعد قفزة ايجابية، وطورا كبيرا خاصة في الفترة محل الدراسة .

قد يكون دخول الإسلام إلى غرب إفريقيا أهم حدث عرفته البلاد بحيث أعطى للسكان منهجا جديدا في الحياة يختلف كل الاختلاف عن الحياة الوثنية التي كانو يعيشونها، لكن الباحث في مجال الحياة العلمية سرعان ما يدرك أنها كانت أهم مظهر للتطور الذي أحدثه وصول الإسلام، واخرج حواضرها وقراها من الجهل والخرافات والعبودية للطبيعة القائمة على مصادر الخوف والتبعية .

إن مظاهر الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا قد تعددت و تطورت مع القرن السابع، حتى غدت مع بداية القرن الرابع عشر ميلادي نموذجا خاصا في هذه الأقاليم .

إذ يرجع الفضل إلى الحركة والنهضة العلمية التي شهدتها تلك الحواضر في إخراج القارة بأكملها من عزلتها الحضارية التي عاشتها طيلة القرون التي سبقت الإسلام حتى عرفت بالظلام .

وقد فتحت هذه الحركة العلمية أبواب الاحتكاك والتفتح على العالم الخارجي، خاصة المغرب والمشرق الإسلاميين، فتدفقت العلوم على حواضرغرب إفريقيا وتحرك الطلبة والعلماء بحثا عن التفقه في علوم الدين ومعرفة العلوم العقلية التي توصل إليها المسلمون، ويمكن أن نلخص أفكار هذا الفصل في النقاط التالية :

أولا: إن انتشاراللغة العربية كان في أغلب الأحيان مساير لإنتشار الإسلام، وباعتبارها لغة الدين الذي اعتنقه غالبية السكان، واليها يرجع الفضل في دفع الحركة العلمية إلى المزيد من الانجازات، وساهمت بدور فعال في تلاحم الحضارتين العربية والإفريقية، واحتلت العربية مكانة مرموقة بين الأفارقة وتنافسوا لاكتساب مختلف المعارف، فكانت هي المحرك الأساسي بعد الدين الإسلامي لتقدم حواضر غرب إفريقيا في مختلف المجالات .

ثانيا: يعتبرالتعليم بمختلف مراحله في المساجد أوالكتاتيب في الحواضرأو في الأرياف من أهم عوامل تجذر الحضارة الإسلامية من جهة، ومعلما من معالم الحضارة السودانية من جهة ثانية، وان كان لا تختلف عن مناطق العالم الإسلامي الأخرى، فتكونت تقاليد راسخة حول المعلم والطالب ووقت الدراسة والإجازات العلمية، وساد التنافس بين العائلات للاهتمام بأبنائهم وخاصة في مجال تحفيظ القرآن .

ثالثا : لقد تنوعت مناهج الدراسة ومقررات العلوم الشرعية والعقلية، فقد عرف طلبة الحواضرالإفريقية كل العلوم التي عرفتها المراكز الإسلامية الأخرى، ونبغ علماء فاقت شهرتهم حدود السودان الغربي إلى فاس وتلمسان والقيروان والقاهرة والحجاز.

وأود أن أشير هنا إلى تأخر في مجال العلوم العقلية، إذ لم تذكر الكتب الجديد الذي جاء به الأفارقة، فكان اهتمامهم بمعرفة مبادئ أولية في علم الحساب لاحتياجاتهم له في مجال التجارة وعد النقود وتقسيم المواريث .

وعرفوا القليل من علم الفلك لمعرفة الاتجاهات والمسالك والطرق وقليل من الطب والصيدلة لمواجهة الأمراض المعروفة في تلك المناطق، وشيء من علم الكلام وعلوم أخرى لم تلقى الازدهار الذي عرفته اللغة العربية والعلوم الدينية .

رابعا : إن أقل ما يقال عن مستوى التعليم أنه ساهم في محو الأمية التي عرفتها القبائل الإفريقية، ببداوتها ووثنيتها وخضوعها للطبيعة والصراعات الطائفية والأباطيل والخرافات، ولم أجد في الكتب التي تناولتها في دراستي هذه ما يشير إلى نسبة الأمية ، لكن استطيع التأكيد أنها كانت ضئيلة، بحكم أن السكان كانوا مسلمين متمسكين بالفروض ، وأن المسلم عليه أن يؤدي الصلاة، ولا يستطيع فعل ذلك إلا إذا حفظ شيئا من القرآن ، ولا يحفظها إلا إذا تعلم على يد مدرس .

إن مظاهر الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا بكل عناصرها تبعث على الإعجاب، لما وصلت إليه من تطور فساهم الدين الإسلامي واللغة العربية والطلبة والعلماء والحكام والعائلات في تنشيطه وجعله عنصر من عناصر حضارة الحواضر في غرب إفريقيا .

الفصل الرابع : علماء الحواضر وإنجازاتهم العلمية.

مقدمة الفصل .

- المبحث الأول: علماء منطقة غرب إفريقيا.

- المبحث الثاني :علماء البلاد الإسلامية الأخرى :

-1- علماء المغرب الإسلامي .

-2- علماء الأندلس و المشرق الإسلامي .

مقدمة الفصل:

مر الإنسان منذ وجد لأول مرة بمجموعة كبيرة من المتغيرات والتطورات ذات الارتباط الوثيق بتطور حياة الإنسان وأسلوب معيشته، وقد أطلق على كل فترة زمنية سادت خلالها ثقافة معينة تميزها عن غيرها.

والعلماء كالنجوم يضيئون للناس بعلمهم طرق الحياة التي قد يكتنفها الظلام، وتنعدم فيها الرؤية الصحيحة، لذلك رفع الله قدر العالم العامل الصادق، فحث الإسلام على طلب العلم دليل على أهميته في حياة الناس.

ومكانة علماء غرب إفريقيا مرموقة، يحترمها الحكام وعامة الناس، وربما زاد عليها سكان السودان الغربي بالتقدير الشديد إلى درجة التقديس أو التبرك بهم، شعورا بالأهمية العظيمة لدور العلماء المخلصين الصادقين ولقربهم من الله .

يعد العلماء قادة هذا التغيير بدفع مجتمعاتهم إلى التعلم والتطور، ولم يكن علماء حواضر غرب إفريقيا، أو ممن سكنوا فيها وسافروا إليها إلا جزء من أسباب التطور الذي طرأ على المنطقة طيلة قرون من الزمن وخاصة خلال الفترة محل الدراسة، فأبدعوا في التأقلم مع أوضاع المجتمعات السودانية وحثها على الاهتمام بتربية أبنائهم وتعليمهم .

وقد تطورت الطرق والأساليب بصورة تدريجية حتى تم الوصول إلى إحداث تغيير جذري في مجال الثقافة، مع اتساع مدارك الفرد الأفريقي و رقعة متطلباته التي يشمل المأكل والمشرب والملبس والمسكن والصحة والانتقال والتعليم والأمن والإدارة والسياسة والبناء والإعمار والتجارة وغيرها من المجالات.

وتميز دور علماء حواضر غرب إفريقيا عموما بـ :

1- توحيد صف العلماء في مواجهة النوازل ومطالب الحكام بدراستها وبيان رأي الشرع الصحيح فيها.

2- العمل على نشر التعاليم الصحيحة عبر المساجد بصورة شاملة .

3- العمل على تنسيق الجهود المبذولة بين العلماء وتبادل المعارف والمشورة.

4- التركيز على طرح القضايا الإسلامية ذات البعد الأفريقي وبيان الرأي الشرعي الصحيح فيها وتوضيح كيفية التعامل معها، إلى درجة اتصال علماء السودان الغربي بنظرائهم في المشرق كما كان ما بين المغيلي في مملكة سنغاي والسيوطي في مصر.

5- توضيح حدود اختلاف الرأي في الفتاوى حتى يسلم عامة الناس من التذبذب والخلاف بسبب اختلاف الرأي في فتاوى العلماء.

6- العمل على قيام حملات توعية علمية واسعة لتبصير الناس بطريقة التعامل الصحيح مع النصوص الشرعية والاستدلال بها استدلالا صحيحا.

7- قيام العلماء بدورهم بصورة أشمل وأوسع ساهمت في محاربة البدع والخرافات التي ارتبطت بالعقائد الوثنية الإفريقية.

فعندما انبثقت الحضارة الإسلامية وجاءت معها بروح علمية جديدة واستخدم العلم كأداة لتطوير الحياة، نشطت الحركة التعليمية وظهر من علماء المسلمين الكثيرون و شهدت الفترة الممتدة من القرن الثامن والعاشر الهجري/الرابع عشر والسادس عشر الميلادي حركية نشيطة للعلماء في حواضر غرب إفريقيا.

اشتهر من العلماء المسلمين والعرب الذين نبغوا في هذا مختلف العلوم وكانوا فيه معلمين لغيرهم، وبرزت البصمات العربية الإسلامية في التعليم السوداني، إبتداءا من القرن الخامس عشر بإنجازات بعض العلماء الذين أضافوا إلى الحياة العلمية الكثير، وأسهموا بقسط كبير في تطور حواضر غرب إفريقيا .

وقد نقل العلماء العرب المسلمون عقيدتهم الإسلامية إلى الحواضر الأفريقية، كما نقلوا معهم عاداتهم ولغتهم العربية محدثة اندماجا بين السكان ، وعكف العلماء على إلقاء المحاضرات ، وتحفيظ النشء مبادئ علوم الشريعة المعروفة.

يعد العلماء المحصلة النهائية للحياة العلمية والمدخل الأول لنشر المعرفة ، ومصدرا للحضارة الإسلامية، وهم البنية الأساسية لتأسيس وتطوير التعليم بجميع مراحله في منطقة غرب إفريقيا وهذا ما أريد أن أوضحه في هذا الفصل، فهل كان العلماء أحد أركان التطور الحضاري لحواضر غرب إفريقيا ؟.

المبحث الأول:علماء منطقة غرب إفريقيا:

إن الحركة العلمية التي شهدتها حواضر غرب افريقيا في الفترة بين القرنين (08-10ه/14-16م)، كان لها الفضل في تكريس الثقافة العربية الاسلامية ودفعها إلى الانتشار، فأخذ سكان السودان الغربي بالحضارة الإسلامية في الوقت الذي سارت فيه إلى ضعف في مواطنها الاولى الأصلية [1] وخاصة بعد سقوط الأندلس وضعف دويلات المغرب والمشرق الإسلام.

فكثر عدد القراء في الحواضر والبوادي معا، وكثرة القراء تدل على الانتشار الواسع للعلماء، إذ يذكر السعدي أنه عندما أسلم سلطان جني كان بها 4200 عالما، وقد يظن البعض أن في العدد مبالغة، لكن قوله ليس بغريب لأن جني بها سبعة ألف وتسع وسبعون قرية متلاصقة، وعليه ففي كل قرية عالم واحد بمعنى القارئ أي معلم الصبيان وهو أمر محتمل [2].

إن هذا العدد الكبير من القراء لا يستغرب أن يخرج عددا كبيرا من العلماء والفقهاء، وأن يكون نفوذهم رفيعا لدى الحكام والسلاطين، وقد لاحظ الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، العدد الكبير من الفقهاء والقضاة في تنبكت [3] على سبيل المثال، ولعل الفضل في وجود هذا العدد الهائل من العلماء يعود الى علماء المسلمين الذين قدموا إلى السودان الغربي، سواء من المغرب الاسلامي والأندلس أو من المشرق والحجاز، فكانوا النواة الأولى لنشر الإسلام واللغة العربية والتعليم والمدارس التي تخرج منها الأفارقة، حيث واصلوا بدورهم هذه المهمة حتى غدت غرب إفريقيا جزء من الحضارة الإسلامية التي ارتبط اسمها بعلماء شاركوا في بنائها ولو بالقدر القليل الذي استفادت منه المنطقة وقد تطرق ابن بطوطة[4] والوزان والمؤرخين السودانيين الى العدد الكبير من العلماء الذي عرفهم السودان الغربي .

---

[1]. عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين (1493-1591)مجلة الأصالة العدد 58 ، الجزائر 1978، ص 29

[2]. عز الدين عمر موسى: المرجع السابق، ص 115.

[3]. حسن الوزان: المصدر السابق، ص 167.

[4]. ابن بطوطة : المصدر السابق،ج2، ص 355.

كانت للممالك والحواضر العلمية التي ذاع صيتها في غرب افريقيا مثل : تنبكت وجنى وغاو، الفضل الكبير في نشر الثقافة الإسلامية حتى وصلت إلى ذروتها في عهد مملكة سنغاي التي اشتهرت بكثرة علمائها وإنتاجاتهم العلمية، وقد حفلت تنبكت العاصمة الثقافية لمملكة مالي وسنغاي بالعديد من مشاهير العلماء الذين ألفوا في شتى العلوم الدينية والعقلية، وتعد الفترة التي حددتها دراستي هذه بين القرنين (08-10هـ/14-16م)، أزهى هذه العصور وأكثرها ازدهارا، فاكتسب العلماء والفقهاء مكانة طيبة في المجتمع وكان أثرهم واضحا في الحياة السودانية، فهم من حاربوا البدع والوثنية والعادات السيئة، وكان باستطاعتهم التأثير على السكان، كما شغلوا المناصب الإدارية ومجالس الشورى، وكان منهم الوزراء والشعراء و المستشارين ونتج عنذلك ذلك أن أصبح الزنوج ينظرون إلى الإسلام على انه دين السود وأن المسيحية دين الأوربيين، فالإسلام يدعوا إلى الإخلاص والثقة بالنفس [1] فعمرت مملكة مالي بالعلماء من أهل البلاد ومن البلاد الاسلامية ومن بعدها سنغاي التي ازدهرت حواضرها اقتصاديا ونشطت حركة العلماء بها ، وصاحبها الاستقرار السياسي الذي خدم الناحيتين معا .

لقد ساهم علماء غرب إفريقيا في اغتناء الحضارة العربية الاسلامية ودفعها للقارة الافريقية كلها ، كما أصبحت كثير من مؤلفات علماء بلاد السودان تدرس في مراكز العلم بشمال إفريقيا وفي سائر البلاد الإسلامية، وأصبح كثير من العلماء الأفارقة أساتذة الجامعات في تلك البلاد وفي الحرمين الشريفين والأزهر وفاس والقيروان [2] .

ونظرا للعدد الكبير من العلماء والفقهاء والمدرسين الذين ذكرتهم كتب التاريخ والسير والتراجم والرحلات التي عرفتها حواضر غرب إفريقيا، فإنني سأفرد أهم

---

1 . نعيم قداح: المرجع السابق ، ص 94.

2 . احمد إبراهيم دياب : علماء بلاد السودان الغربي في القرنيين السادس عشر والسابع عشر وآثارهم العلمية دور العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الاسلامية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الخرطوم 30/28يوليو / تموز /1973، ص 148.

العلماء الذين ساهموا في الحضارة العربية الاسلامية فقط ، وأقصد بالعلماء المتمكنون من علوم الدين والمتمرسين في فرع منه [1] .

نظرا لكثرة الفقهاء والعلماء الذين برزوا في حواضر غرب إفريقيا، والتي حوتها كتب التراجم، وربما أهمل الكثير منهم فإنني اكتفيت بأشهرهم فقط، وقسمتهم إلى أسر.

أ- أسرة أقيت :

اشتهر أبناء هذه القبيلة بالعلم [2] والتقوى والورع، وقد استقرت هذه الاسرة بين ولاته و تنبكت وكان لها الكثير من الفقهاء والعلماء منهم :

1- محمود بن عمر بن محمد أقيت :

ولد في تنبكت عام 1463م، عين قاضيا وكان عمره خمسا وثلاثين عاما، وكان يقوم بتدريس مدونة الإمام سحنون، ورسالة أبي زيد القيرواني، وألفية ابن مالك، ومختصر خليل[3] ، قام برحلة للحج، وفي طريقه اتصل بالعالمين إبراهيم المقدسي و القلقشندي وناقشهم في المسائل الفقهية [4].

2- العاقب بن محمود بن عمر أقيت :

ولد عام (913هـ/1447م) في تنبكت، تولى القضاء، قال عنه السعدي أنه كان متشددا في أحكامه، لا يخاف في الحق لومة لائم، ارتحل إلى الحج ، حيث كانت فرصته في لقاء العلماء ومخالطة اهل العلم والانتفاع بهم، توفي عام 991ه/1583م [5].

3- محمد بن محمود بن عمر أقيت :

ولد في تنبكت سنة 909ه/1503م ، تولى القضاء بعد أبيه محمود وقد عرف عنه

---

[1] . عز الدين عمر موسى :المرجع السابق، ص 114.

[2] . A -Rahman I. Doi : Op.Cit,p03.

[3] . أحمد إبراهيم دياب: المرجع السابق ص 149.

[4] .عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 35 ، احمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز، المصدر السابق ج 02، ص 303.

[5] . عبد الرحمان السعدي: نفس المصدر، ص 41،40.

صفاء الفهم والذهن والدهاء في العلم [1] وقد مدحه احمد بابا وقال أنه : " اكتسب من الدنيا عريضا وطويلا " [2] .

- أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت

ولد سنة 922ه/1516م ، وهو والد المؤرخ والفقيه أحمد بابا التنبكتي، وكان احد اكبر الإخوة الثلاثة المعروفين بالدين والعلم رحل الى المشرق لدراسة الفقه فتلقاه على يد مجموعة من العلماء ،منهم السيوطي ، ثم رجع الى بلاده فجلس للتعليم [3] وتخرج على يده عدة فقهاء وعلماء أشهرهم الفقيه محمود بغيع وولداه أحمد ومحمد بغيع [4] وهذا الأخير هو أستاذ أحمد بابا ، درس على يديه الفقه والحديث .

5- أحمد بن عمر بن محمد أقيت :

ولد عام 929ه/1522م قال عنه أحمد بابا بأنه : "علامة فهامة ذكي دارك متحصل متفطن محدث أصولي بياني منطقي مشارك[5] ،أخذ العلم عن عمه محمود بن عمر أقيت وغيره ،ارتحل الى الحج عام 956ه /1549م ،ولقي عدة علماء وفقهاء ، ثم رجع الى بلاده حيث تفرغ للعلم والتدريس ، والتأليف ، حيث شرح منظومة المغيلي في المنطق ،واهتم بجمع الكتب مات عام 991ه/1583م[6]

6- أبو بكر بن احمد بن عمر بن محمد أقيت : ولد عام932ه/1526م في مدينة تنبكت كان فكنا ،وفقيها زاهدا سافر الى الحج ثم عاد الى تنبكت واستقر بالمدينة حتى مات بهاعام991ه/1583م درس احمد بابا التنبكتي علم النحو [7].

---

[1] . أحمد إبراهيم دياب:نفس المرجع ، ص 150.
[2] . أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج،المصدر السابق ، ج 2 ، ص 291.
[3] . عبلة محمد سلطان: المرجع السابق، ص 134.
[4] . عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق، ص 19.
[5] . احمد بابا نفس المصدر، ص 153.
[6] . عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق، ص 42.
[7] . احمد بابا التنبكتي : كفاية المحتاج ،ج01، ص 181.

7- أحمد بابا التنبكتي :

هو أبو العباس احمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت السوداني الصنهاجي التكروري، المشهور بأحمد بابا التنبكتي، حيث يضيف المؤرخون لاسمه الصنهاجي أو التنبكتي أو التكروري، وأحيانا تستعمل هذه الألقاب مجتمعة ولد عام (963هـ/ 1550م) [1] في تنبكت .

نشأ في أسرة مشهورة بالعلم، ساعده ذلك على النبوغ والتعلم بشكل ملائم، درس مختصر خليل وصحيح البخاري ومسلم وموطأ الإمام مالك، وكتب السنة والسير اجتهد في بداية أمره في خدمة العلم حتى فاق جميع معاصريه ولا يناظره في العلم الا أشياخه وشهدوا له بالعلم [2]، وعرفه السعدي بكونه علامة فريد عصره ، والبارع في كل فن من فنون العصر ، كان أستاذا في جامع الشرفاء بمراكش تتلمذ على يده الكثير من الطلاب الذين أصبحوا علماء منهم مفتي فاس [3].

تعرض احمد بابا الى الاعتقال بعد الغزو المراكشي للسودان الغربي، وساقه المراكشيون إلى فاس، حيث فقد أثناء ذلك نحو (1600) مجلد من الكتب التي كان يملكها [4]، أفرج عنه وعاد إلى تنبكت، بعد أن سمح له ابن المنصور الذهبي بالرحيل عام(1016هـ/1607م)، ومكث هناك مواصلا رحلة العلم والعطاء حتى توفي عام (1036هـ/1627م) .

لأحمد بابا مؤلفات كثيرة اذ يعد كتاب "نيل الابتهاج في تطريز الديباج " معلمة بيبلوغرافية لأعلام المغاربة [5] ثم وضع تكملة سماها "تكملة الديباج " في ثمانية عشر جزءا كلها تراجم أئمة المذهب المالكي* .

---

[1] . أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور – تحقيق إبراهيم الكتاني ومحمد حجي – دار الغرب الإسلامي – بيروت – لبنان – ط2 ، 1428هـ/ 2007م ، ص 37.

[2] . عبد الحميد جنيدي: المرجع السابق ، ص 94.

[3] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 35 ، اللبرتلي : نفس المصدر، ص 33.

[4] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 161. أنظر .Diallo Boubacar Séga:Op.Cit, P02

[5] . عبد الجليل التميمي : كتاب نيل الابتهاج في تطريز الديباج " المجلة المغربية للتوثيق و المعلومات العدد 03مارس 1985 تونس ، ص 27.

وعندما وجد أن الكلمة لم تف بالغرض وضع لها ذيلا بعنوان " كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج "أو نيل الابتهاج بالذيل على الديباج " [1] .

وله مؤلفات أخرى بلغت أربعون تأليفا [2]، و على الأرجح أن الكثير من أعماله قد اختفت [3] ،

يعد أحمد بابا من العلماء والأساتذة والمحاضرين، ومؤرخ جدير بنقل كثيرا من أحداث تاريخ السودان، فقد صاغ مؤلفاته في مختلف المواضيع بما في ذلك القانون والطب والفلسفة والرياضيات وعلم الفلك[4] .

ب- أسرة بغيغ :

تعتبر من العائلات المشهود لها بالعلم والعطاء الثقافي في السودان الغربي نبغ الكثير من أفرادها في مجال العلم والفقه و التأليف أشهرهم :

1- محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري المعروف ببغيغ :

ولد عام 921ه/1515 م، فقيه وعالم اشتهر بجمع الكتب العربية من جميع الفنون لا يبخل على أحد في إعارتها والانتفاع بها ، فضاع بذلك جملة من كتبه.

ارتحل إلى الحج وهناك التقى عدة علماء من المشرق والحجاز، وبين مقدرة في الفقه وباقي علوم الدين، واكتسب المزيدا من خلال مجالسة العلماء هناك .

لازمه أحمد بابا التنبكتي مدة عشر سنين ، إذ يقول عنه:

"فهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به ..." ، وهي تدل على المكان التي وصل إليها هذا العالم ، خاصة الشهادة جاءت من عالم مثل أحمد بابا .

---

*. لأحمد بابا مؤلفات كثيرة يعددها البرتلي في كتابه، أنظر البرتلي : نفس المصدر ، ص 35،36.

[1] . احمد إبراهيم دياب : المرجع السابق ص 153.

[2] . عبد الحميد جنيدي : المرجع السابق ص 95 .

[3] . Yattara El mouloud et Diallo Boubacar Séga :Op.Cit,p02.

[4] .Jackson, Mississippi: Op.Cit,p04.

توفي في 1002هـ/1593م مخلفا عدة مؤلفات [1] ، وقد ترك ولدا اسمه محمود بغيغ كان إمام تنبكت أخذ العلم عنه أحمد بابا التنبكتي، والفقيهان محمد وأحمد وهما من أبنائه [2] .

ج - أسرة البلبالي : وهي أسرة أتت من الصحراء، استقر أفرادها في حواضر تنبكت و كانو وغيرها، درس أجداد هذه الاسرة في فاس ومراكش ، واجتهدوا في تكوين أبناء الاسرة في العلم والفقه حتى نبغ الكثير منهم أشهرهم :

1- مخلوف بن علي صالح البلبلي :

درس في ولاتة، وتعلم فيها العلوم القرآنية ورسالة أبي زيد في الفقه، ثم ارتحل إلى المغرب لمواصلة مسيرة العلم حيث درس على يد علي بن الرازي في فاس ، وبعدها عاد فقيها ومدرسا في كل من كانو و كاتسينا، كانت له أبحاث مع الفقيه العاقب الأنصمي ثم دخل تنبكت ودرس بها ثم رحل مرة اخرى الى مراكش ، ودرس بها ثم عاد الى بلاده وتوفي عام 940/1533م [3].

د- المؤرخ محمود كعت :

هو أبو الثناء محمود بن عمر كاتي الصنهاجي التنبكتي، فقيه ومؤرخ، وقاضي تنبكت، صاحب كتاب الفتاش [4] ، وقد عاصر الأسقيا محمد الحاج ابن أبي بكر، أعظم حكام سنغاي وصحبه في الحج إلى مكة ، وجعله من بين مستشاريه، ولد* عام 1548م وتوفي عام 1593م [5].

---

[1] . أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج ،المرجع السابق، ج 2، ص 298 ،عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق ص 322 .

[2] . محمود كعت : المصدر السابق ، ص 113، **عبد الرحمان** السعدي : نفس المصدر ، ص 35.

[3] . **عبد الرحمان** السعدي المصدر السابق ص 39.

[4] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 162.

* لاحظت تضارب في التواريخ الخاصة بمولد و وفاة المؤرخ محمود كعت فقد ذكر الدكتور علي يعقوب وهو رئيس الجامعة الإسلامية في النيجر بأن كعت ولد في 1548م، ومات عام 1593وأشار الدكتور احمد إبراهيم دياب انه عاش خمسون سنة، في حين بعض الكتب تتفق في تاريخ الوفاة وتختلف في تاريخ المولد ، فأشارت بعض المراجع إلى تاريخ 1640 كتاريخ لميلاده .

[5] . علي يعقوب : المرجع السابق ، ص 12.

عاصر كعت الأزمات السياسية التي سبقت الغزو المغربي لبلاد السودان، وركز في كتابه على كل ما كان يدور في بلاط الأسقيا، وقد اطلع على المراسلات التي دارت بين البلاطين السوداني والمغربي [1] .

وكتابه " تاريخ الفتاش " ليس مقسما أو مبوبا الى أبواب وفصول وأحداث حسب السنين أو ترتيب بحسب تراجم الشخصيات، بل مكتوب دفعة واحدة بدون فقرات، وله الكثير من الاستطراد خاصة في أسلوب التاريخ الإسلامي، كما أنه لم يفصل في الأحداث حسب السنوات مثلا، بل جعلها متداخلة ويسمى كتابه" تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار"، وهو كتاب يؤرخ لدولة سنغاي والدول التي قبلها مثل مالي [2]، حيث يعد مصدرا هاما في تتبع التطور الحضاري والثقافي والاقتصادي للمنطقة في تلك الفترة، وقد ترجمه الفرنسيان هوداس ودولافوس ونشراه في باريس عام 1913 وقد اعتمد عليه المؤرخون في دراسة تاريخ افريقيا الغربية [3] .

هـ- المؤرخ عبد الرحمان السعدي:

وهو عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، ولد عام (1004هـ/1596م) في تنبكت تلقى العلم على عدة علماء منهم الفقيه أحمد بابا والقاضي محمود بن أبي بكر، عمل إماما في جامع سنكري وفي أواخر عام (1039ه/1670م)، وسع معارفه عن العالم برحلة قام بها إلى مملكة ماسينا بدعوة من قاضي هذه الأخيرة ، وأستقبل بحفاوة من قبل السلطان نفسه والأعيان، مما شجعه على معاودة زيارة المملكة بعد ثلاث سنوات، وأدى في هذه المناسبة خدمة للسلطان بالصلح بينه وبين تابع له كان بينهما ثأر قديم .

وقام السعدي بهذا النوع من الوساطة مرات كثيرة بين أمراء المنطقة مما أكسبه خبرات واسعة وعلاقات وطيدة مع عدد من حكام المنطقة بل إنه كان ضالعا

---

[1] . أحمد ابراهيم دياب : المرجع السابق ، ص 152.

[2] duboi '(f)'op.cit .pp. 342. 343.

[3] . نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 162.

في الشؤون السياسية ببلاده وشغل كاتبا، كما انه يقوم بالأعمال العامة والسفارة والوساطة [1] ، وقد أمضى السعدي سنوات طويلة في كتابة تاريخ السودان إلى غاية (1065ه/1655م) [2] ، حيث توفي تاركا وراءه كتابا ومصدرا مهما في تاريخ غرب إفريقيا نشره هوداس عام 1898 وترجمه إلى الفرنسية عام 1900[3] .

اهتم السعدي بالتاريخ ويظهر من كتابه أنه كان يدون ما يسمعه أو يراه، ولا نعرف إلى أي مدى كان يتحرى نقل هذه الأحداث، وأحيانا لا نجدها مرتبة زمنيا اذ يستطرد في عدة مواضع.

وربما يعود ذلك الى طريقة الكتابة التاريخية السائدة آنذاك، القائمة عل نقل الأحداث المجردة، وللقارئ أو السامع أن يعيدها كما هي أو يمحصها.

وهذا النوع من الكتابة جعل صعوبة الدراسة التاريخية تكمن في وجود الأدلة الدامغة لنفي أو إثبات بعض ما جرى إذا كان الباحث يعتقد أن بعضها مبالغ فيه كذكر عدد الجيوش وحجم المدن وعدد الطلبة أو العلماء ونحو ذلك .

وقد أخذ السعدي كثيرا عن " كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج " لأحمد بابا التنبكتي وكذلك عن محمود كعت وكتب في مقدمة كتابه :

"ولما رأيت انقراض ذلك العلم ودروسه، وذهاب ديناره وفلوسه وأنه كثير الفوائد لما فيه من معرفة المرء بأخبار وطنه وأسلافه وطبقاتهم وتواريخهم ووفياتهم، استعنت بالله سبحانه وتعالى في كتب ما رويت عن ذكر ملوك سنغاي وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم، وذكر تنبكت ونشأتها ومن ملكها من الملوك وذكر بعض العلماء والصالحين الذين توطنوا فيها وغير ذلك الى آخر الدولة الأحمدية الهاشمية سلطان مدينة حمراء مراكش فأقول وبالله تعالى استعين وهو حسبي ونعم الوكيل .

[1] . عبد الحميد جنيدي : المرجع السابق ، ص 96.
[2] . البرتلي الولاتي: المصدر السابق ، ص 176.
[3] . نعيم قداح: المرجع السابق، ص 161.

الباب الأول : ذكر ملوك سنغاي [1] ثم جعل في كتابه ثمانية و ثلاثين بابا آخرهم : باب تاريخ السودان(1063 إلى عام 1065).

والقارئ المتفحص في أسلوب الكاتب يجد فيه حلاوة ، ومتانة العبارات ودقة المعاني المنتقاة ، حتى إذا استرسل الباحث في قراءة عشرات الصفحات فإنه لا يمل رغم عدم ترتيبها، وفيها كثير من السجع والإطراء وهذا دليل على أن الكاتب ابن عصره في أسلوب الكتابة التاريخية من ناحية وأنه متمكن من اللغة العربية جيدا، ومن ناحية ثانية الطريقة الإنشائية تدل على عدم تسجيل الأحداث وقت وقوعها ، فسمعها أو رآها ثم سجلها في أبواب محددة ، ولعل هذا ما دفعني إلى القول أن الحياة العلمية في غرب افريقيا كانت بالفعل مزدهرة ، ولا تختلف عن قرائنها في البلاد الاسلامية الأخرى ، على الأقل من حيث الأسلوب والنضج الفكري .

- المبحث الثاني :

أ- علماء البلاد الإسلامية الأخرى :

أ-1-علماء المغرب الإسلامي :

إن العامل الجغرافي كان له الفضل في تدفق العلماء والفقهاء إلى حواضر السودان الغربي لتعليم وتثقيف المسلمين فيها، فسارع أبناء السودان لتلقي العلم خاصة من مشاهير علماء المغرب الاسلامي ، وكان الحكام يسعون للمحافظة على علاقات حسن الجوار مع ملوك السودان [2].

وإذا كان دور هؤلاء العلماء والفقهاء خلال القرون الأولى التي تسرب فيها الإسلام إلى غرب إفريقيا يكمن في نشره فإنه خلال فترة هذه الدراسة لم يكن نشرا أوليا للإسلام، بل تركز حول تصحيح العادات والتقاليد والمفاهيم الخاطئة، وتعميق معانيه ومحاربة البدع والخرافات .

[1] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 02.

[2] . دهينة عطا الله : العلاقات التجارية بين المغرب والسودان مجلة الاصالة العدد 26 ، دون تاريخ ، ص 101.

ساهم العديد من الدعاة والعلماء المغاربة في تكوين نماذج لهم في الحواضر السودانية، الذين انتقلوا بدورهم الى القرى والأرياف وساهموا بشكل فعال في التدريس تعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وهو ما يفسر الانتشار الواسع للكتاتيب .

وقد أشار كعت في كتاب الفتا ‌ إلى عمق الصلاة العلمية بين المغرب والسودان الغربي وذكر أن عددا كبيرا من العلماء ترجع أصولهم الى المغرب وفي ذلك يقول : "فأعلم أن "شى" و "أسكي " و"مور " هو "كار " جد أهل "موركير "وفقهاؤها كلهم من من أهل واحد ، وجميع من بلقب "بمي " و"كيهدع " و "مينك " و"ميهو " و" ميكع " و "سيفر " و "ميتاحي " و"ميعي " و"ميور "و"شرع " واسم بلادهم "يد" وكل من كان في هذا الإقليم أصلهم من المغرب من وعكري "[1] .

وتبدوا هذه الأسماء للوهلة الاولى سودانية، لكن الكثير من الألقاب البربرية هاجرت من المغرب الى السودان الغربي، وبلغ علماء البلاد الإسلامية مكانة مرموقة في مملكة مالي وسنغاي، حتى حر ‌ بعض ملوك مالي على الانتساب إلى الأصول العربية، و ادعى بعضهم أن أصله من البيت العلوي من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب [2].

كما وصف ابن بطوطة ملك مالي منسى موسى أنه صديق للبيض فيقول " يحب البيضان ويحسن إليهم "[3] ، بل وأشار أنه صادف الكثير من المغاربة ومنهم من استضافه في بيته ، ثم يذكر مجموعة من الفقهاء والعلماء والقضاة المغاربة مثل سعيد بن علي الجزولي ، والقاضي أبو إبراهيم الجاناتي، وجعفر بن محمد المسوفي [4]، وجدهم في مدينة تكدا كما يقول، وقد ذكرت كتب التراجم مثل السعدي وكعت وأحمد بابا التنبكتي الكثير من العلماء والفقهاء والقضاة نذكر أشهرهم فقط منهم :

---

[1] . محمود كعت : المصدر السابق ، ‌ 48.

[2] . القلقشندي : المصدر السابق ،ج 5 ، ‌ 286 ، عبلة محمد سلطان ، المرجع السابق، ‌ 144 .

[3]. ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ‌ 363 .

[4] . نفس المصدر ، ‌ 368.

1) القاضي الفقيه الحاج عبد الرحمان:

وهو من قبيلة جدالة المغربية، تولى عبد الرحمان بن أبي بكر القضاء في أواخر حكم دولة مالي في مدينة تنبكت وخطب ودرس في مسجد سنكري، حيث تحول إلى جامعة كبيرة آنذاك في غرب افريقيا، وحاضرة من حواضرها الكبرى .

كان الفقيه الحاج خطيبا وصاحب قرار يقول عنه السعدي: "أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب القرآن في جامع سنكري بعد صلات العيد وبعد صلات العشاء "[1] وقال أن له قبر في المدينة أصبح يزار من طرف محبيه وتلاميذه .

2- محمد بن عبد الكريم المغيلي (909هـ/1503م) :

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني ينسب إلى مغيلة، قبيلة من فرع صنهاجة استقرت في الغرب الجزائري (تلمسان وضواحيها)، ولد بتلمسان من عائلة راقية النسب ومشهورة بالعلم والدين، حفظ القرآن على يد والده، قرأ عليه موطأ مالك ثم درس على يد علماء آخرين التفسير والفقه المالكي وكتب السيرة، قال عنه أحمد بابا التنبكتي[2]: بلغ الغاية في العلم والنهاية في المعارف الإلهية وارتقى مراقي الزلفى ورسخ قدمه في العلم .

ارتحل عبد الكريم المغيلي إلى تونس وأقام بها شهرين ثم قدم القاهرة فحج منها إلى مكة ، ثم الى الشام حيث زار القدس [3].

رجع بعدها إلى بجاية ، واخذ من علمائها التفسير و الحديث و الفقه حيث كانت بجاية في ذلك الوقت إحدى حواضر العلم والثقافة العربية الاسلامية .

عاش الإمام المغيلي في فترة شهدت بروز العديد من العلماء والمفسرين والفقهاء والادباء والشعراء، مما جعله يستفيد من علمهم ونصائحهم، كما كانت له مراسلات

---

[1] . **عبد الرحمان** السعدي : المصدر السابق ، ص 27.

[2] . أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج ،المصدر السابق،ج2 ، ص 264.

[3] . شمس الدين محمد بن عبد الرحمان السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج10، ط1 ، دار الجبل 1412هـ/1992م ، ص 740.

ومناظرات مع الامام السيوطي، نقلها صاحب كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان " [1] .

رحل المغيلي إلى إقليم توات ولا يعلم سبب ارتحاله رغم أن الكتابات التاريخية تشير الى انزعاجه من سلوك سلاطين تلك الفترة الذين كانوا يحكمون تلمسان وبجاية وسخطه عليهم وهو المعروف بحدته وشجاعته في محاربة الفساد، وقد احتضنته إحدى قبائل منطقة توات ومارس مهمة الدعوة الاسلامية والإصلاح، وهناك وقعت ما تعرف بنازلة التوات المتعلقة باليهود، حيث وقف في وجه أطماعهم الدينية ببناء المعابد والسيطرة على التجارة، فأصدر الإمام المغيلي فتوى تدعوا الى محاربتهم [2] وتدمير كنائسهم وكسر شوكتهم، انتقل المغيلي من توات إلى بلاد السودان الغربي فكانت رحلته القصد منها العمل على نشر قواعد الاسلام في تلك البلاد، وأصبح من أكبر العلماء وألف عشرات الكتب والشروح، وأخضع المعارف الإسلامية في بلاد السودان للنقاش والحوار وأهتم بدفع طلابه و زملائه من العلماء إلى احتكام القرآن والسنة [3].

اجتمع الإمام المغيلي مع سلطان سنغاي الأسقيا الحاج محمد، الذي ربطت بينهما علاقات وثيقة في مسائل الدين والسياسة [4] وكتب له وصية عظيمة بمثابة دستور ، وضع له فيها القواعد الشرعية وكيفية تطبيقها على الرعية، وحضه فيها على إتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فألف كتابا أجابه فيما سأل، ثم بلغه وهو في غاو نبأ قتل ولده بتوات على يد اليهود فانزعج لذلك، و طلب من الأسقيا الحاج محمد القبض على أهل توات ممن في غاو، ولمنزلة المغيلي لدى الأسقيا فقد قبض عليهم لساعته، وقد كان ملوك سنغاي يسعون لنيل رضا رجال الدين والعلماء[5] ،

---

[1] . أبن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني :البستان في ذكر الاولياء ، والعلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات ، الجامعية ، الجزائر ، دون تاريخ ، ص 254

[2] . محمد عبد الكريم المغيلي : أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي تحقيق عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية ، للنشر والتوزيع ،الجزائر 1974، ص 08.

[3] . أحمد إبراهيم دياب : المرجع السابق ، ص 148 .

[4] . Maurice Delafosse: Op.Cit, p57.

[5] . عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي ، في عهد الاسيقيين .، مجلة الاصالة ، العدد 58 ، 1978، ص 31

لكن الفقيه أبا المحاسن محمود بن عمر أقيت أنكر على الأسقيا ما فعل لأن أهل توات بغاو لم يفعلوا شيئا، فرجع الأسقيا عن القرار وأطلق سراحهم [1] .

رحل المغيلي إلى توات وبقي وفيا لطلبة العلم، حيث قصده الطلبة ولم يبخل عليهم رغم كبر سنه إلى أن توفي سنة (909هـ/1503م) ودفن في أدرار [2].

كان تأثير المغيلي محفوظا لدى أبناء السودان الغربي، وظلت أعماله وآثاره المكتوبة والروايات الشفوية المنقولة عنه يحفظها الطلبة والعلماء وكانت الفتاوى التي أصدرها حجج لدى المتخاصمين، ومن الملاحظ أن انتقال المغيلي إلى السودان الغربي كان له اثر طيب في تصحيح بعض الأوضاع التي شكا منها اسقيا محمد، كما كان له أثر طيب عند الفقهاء فعادوا إلى ممارسة دورهم في القضاء على مظاهر الشرك والوثنية [3] .

3) الفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التازختي :

ينسب إلى تازخت وهي إحدى القرى القريبة من ولاته وتعلم فيها حفظ القرآن، ثم رحل إلى تكدا ودرس الفقه والحديث على يد علمائها منهم الفقه أحمد بن عمر أقيت وحضر دروس المغيلي أثناء زيارته لتكدا [4] ثم أخذ يطوف بالبلاد الإسلامية .

التقى كثير من العلماء ثم قفل عائدا بحصيلة من العلم والدين ليعلمها أبناء السودان ، فأقام ببلدة كاتسينا حيث ينسب إليه تأليف كتاب "مقاليد وطرز على مختصر خليل وغيره [5] و ولاه حاكم المدينة القضاء [6] ، أثنى عليه أحمد بابا في كتابه ووصفه بالثاقب العبد العالم ، توفي التازختي عام (936ه/1529م) [7] .

---

[1]. عبلة محمد سلطان : المرجع السابق ، ص 130.

[2]. حسن عبد الخالق : الإمام المصلح ، محمد بن عبد الكريم المغيلي ، الملتقى المغربي للقرآن الكريم ، 10.11.2010.www.maroco-quran.com.

[3]. عبلة محمد سلطان : المرجع السابق ، ص 130.

[4]. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 39.

[5]. عبلة محمد سلطان : المرجع السابق ، ص 130.

[6]. احمد بابا : نيل الابتهاج ،المصدر السابق،، ج 2 ، ص 279.

[7]. عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 40،أحمد بابا: نيل الابتهاج، نفس المصدر والصفحة.

4- **العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي** : أصله من قبيلة مسوفة ، الصنهاجية من قرية أنصمن إحدى نواحي تكدا قال عنه أحمد بابا: هو من الفقهاء المختصين له اجتهادات فقهية لم يسبقه فيها غيره ، أخذ العلم عن الإمام المغيلي وعن السيوطي وغيره لما قام برحلة إلى الحج.

له عدة مؤلفات منها "نية الحالف" و"الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمود " و" أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير [1] ، وكان له منازعات مع الفقيه البلبالي، وكان حيا قريبا من الخمسين وتسعمائة 950هـ/1443م [2] .

5)الفقيه عبد الله بن احمد الزموري :

نشط الفقهاء في عقد اللقاء بينهم ، وإقامة حلقات المناقشة والارتحال لطلب العلم من بلد إلى بلد، وكان منهم الفقيه عبد الله بن أحمد الزموري وهو من أهل تنبكت، سافر إلى ولاته، والتقى بعلماء الفقه فيها وهو من العلماء الذين انتفعوا من محمد المغيلي وأخذوا عنه [3] ، قام بالتدريس في ولاتة ثم عاد الى تنبكت حاضرة السودان الغربي، فألف مجلدا كبيرا بخط يده وهو شرح على كتاب الشفاء للقاضي عياض اعتنى فيه بتوضيح ألفاظه وتصحيح لغته وتعريف رجاله، وكان يقرأه على طلابه في تنبكت [4] توفي عام 888ه/1483م .

6- القاضي أبو المحاسن محمود بن عمر:

كان فقيها وإماما مشهورا في عصره عرف بنزاهته ومهابة السلاطين له ، يزورونه في فتنة فلا يقوم لهم ولا يلتفت إليهم، و يهادونه بالهدايا والصحف، كان سخيا تولى القضاء سنة 904ه/1498م، اشتهر بالحكمة والعدل والإنصاف قام بالتدريس فانتفع به بشر كثير منهم والد احمد بابا التنبكتي [5] وهو الذي عرف بموقفه من السلطان

---

[1] . عبلة محمد سلطان ، نفس المرجع ، ص 131.

[2] . السعدي :المصدر نفسه ص 41 ، احمد بابا ، نيل الابتهاج ، ج 1، ص 399 احمد بابا ، كفاية المحتاج ، ج2 ، ص 294 .

[3] . عبلة محمد سلطان : المرجع نفسه ، ص 131.

[4] . احمد بابا : نيل الابتهاج ، ج 1، ص 253 ، احمد بابا : كفاية المحتاج ، ج 1 ، ص 178.

[5] . احمد باباالتنبكتي: نيل الابتهاج ، ج 1،المصدر السابق ، ج 1 ص 266.

الأسقيا محمد الكبير، عندما وافق المغيلي على سجن أهل توات الموجودين في غاو حين علم بمقتل ولده على يد اليهود هناك في توات، إذ طالب السلطان بإطلاق سراحهم لأنهم لم يفعلوا شيء وهو ما تم بالفعل .

7)القاضي أبو حفص عمر :

من قضاة تنبكت بلغ في الفقه درجات عليا وتفوق على شيوخ عصره، برع في علم الحديث والسير والتواريخ وأيام الناس حتى قال عنه بعض من عاصره من الشيوخ لو أنه كان موجودا زمن أبي عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتيا [1] .

8)صالح بن أند عمر المعروف باسم المعمري أو العمري :

قال عنه السعدي أنه مستحرم لدى السلاطين يشفع للمساكين عندهم ولا يردون شفاعته، كان من أهل العلم والفضل والتقوى، ألف شرحا على مختصر خليل [2] ، لم تذكر الروايات تاريخ الميلاد والوفاة لهذا الفقيه الصالح .

9) الفقيه فيا ص الغدامسي :

ينسب إلى غدامس الليبية، هاجرت أسرته واستقرت في السودان الغربي، واشتهر هذا العالم بالعدل والإستقامة وتولى تزكية الشهود عند القضاة، فمن شهد له بالعدالة أعتبر عادلا ومن لم يشهد له ألغيت شهادته مهما كانت شخصيته، ولم يزل في ذلك المنصب حتى توفي سنة 988هـ/1548م ، وحضر جنازته الفقيه والإمام أندا غمحمد [3].

10- أبو القاسم التواتي :

وصفه السعدي بالشيخ الفاضل والإمام الصالح ذو الكرامات كثير الصدقات، ويعد من شرفاء إقليم تافيلالت بالمغرب الأقصى، كان الأسقيا محمد يصلي وراءه ويطلب دعاءه، أنشأ مقبرة تنبكت الكبرى وعندما توفي عام 922هـ/1516م كان يوجد في تلك المقبرة خمسون عالما من توات [4] .

---

1. . السعدي : المصدر السابق ، ص 34.
2. . البرتلي الولاتي : المصدر السابق ، ص 155،عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق، ص 36.
3. . السعدي : نفس المصدر ، ص 59
4. . البرتلي الولاتي : نفس المصدر ، ص 69 ، السعدي : نفس المصدر ص 58.

ب-2- علماء الأندلس :

لم تكن العلاقات العلمية بين الأندلس والسودان الغربي بنفس الوتيرة التي عرفتها المغرب والمشرق، ولم تشر الكتابات التاريخية إلى وجود أسر بعينها أو علماء وفقهاء كان لهم الأثر في غرب افريقيا، ولعل أشهر علماء الأندلس الذين عرفتهم حواضر السودان الغربي هو:

11)أبو إسحاق الساحلي : قال عنه المقري[1] أن أباه كان عالما في الفقه، من أسرة اشتهرت بالعلم، ارتحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج، التقى منسى موسى سلطان مالي فاصطحبه واستوطن هناك، وتوفي في اليوم السابع والعشرين من جمادى الأخيرة عام 747ه/1346م ودفن في تنبكت [2].

اشتهر المهندس* والشاعر أبو إسحاق الساحلي بهندسة المباني، إذ يرجع له الفضل في بناء عدد من المساجد منها مسجد في غاو و تنبكت ، ويذكر ابن خلدون أن هذا العالم بنى قصرا للسلطان منسى موسى محكم البناء إستفرغ فيه إجادته، فجاء من أتقن المباني ووقع من السلطان موقع الاستغراب، وكافأه على ذلك باثني عشرة ألف من مثاقيل التبر بالإضافة إلى ما كان له من الأثر عند السلطان [3] .

أما عن الفقهاء فإن كتب التاريخ لا تشير إلى هجرتهم من الأندلس بعد سقوط غرناطة 1492 كما هاجروا إلى المغرب الإسلامي والمشرق، وربما يعود ذلك الى استقرارهم في المدن الساحلية للمغرب من جهة وإلى الاضطرابات التي حصلت في نهاية حكم الزيانيين في المغرب الأوسط والمرينيين في المغرب الأقصى، وإلى تراجع دور التجارة الصحراوية في هذه الفترة خاصة إذا علمنا أن هذه الحقبة أي القرن

---

1. احمد بن المقري التلمساني: المصدر السابق، ص 194.
2. Maurice Delafosse: Op.Cit.p47.

*. ذكره حسن الوزان باسم" المعلم"، وهذا المصطلح شائع لدى مؤرخي المغرب الأسلامي والأندلس،أنظر حسن الوزان:المصدر السابق، ص 165.

3. عبد الرحمان ابن خلدون :العبر، المصدر السابق ، ج 06 ، ص 239 .

السادس عشر بدأت موازين القوة تميل لصالح أوروبا مقابل تراجع العالم الإسلامي - على الأقل في المجال الحضاري - .

ب-3- علماء مصر والحجاز :

إن العلاقات الثقافية والتبادل العلمي بين السودان الغربي ومصر والحجاز، كانت قوية منذ أقدم العصور وقد أشار إلى ذلك الرحالة "ديبوا " filix dubois عند رحلته لمالي خلال القرن التاسع عشر ميلادي والتي ترجع جذورها إلى عهد الفراعنة، فقد تعمقت هذه الروابط خلال حكم المماليك الإسلامية خاصة مالي وسنغاي وكانت رحلات الحجيج تمر بمصر ثم الحجاز، حيث تمثل مدرسة للطلبة والعلماء كانت الطريق إلى القاهرة طويلة لكنها مأمونة ، ومن الفقهاء والعلماء الذين جاء ذكرهم في كتب التراجم والسير نذكر :

- علماء مصر :

1) الفقيه عبد الرحمان التميمي (المكي) :

بعد رحلة الحج الشهيرة التي قام بها سلطان مالي منسى موسى إلى مكة، وعند عودته اصطحب معه العلماء و الفقهاء من الحجاز، وكان منهم الفقيه عبد الرحمان التميمي المسمى بالمكي، فأقام عنده بتنبكت وحضر دروس الفقه ومختلف العلوم في مسجد سنكري، ولما رأى أن علماء المدينة من أهل السودان يفوقونه علما ولم يستطع مجاراتهم، سافر إلى فاس* لدراسة الفقه المالكي هناك ، وبعد تعلمه رجع إلى تنبكت[1].

2) علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري الأندلسي :

رحل إلى بلاد التكرور " وأقرأ أهلها القرآن فحصل له مال " ثم عاد الى مصر عام 723هـ/1323 م [2] .

3) **القاضي محمد بن يوسف الأندلسي :**

---

[1] . عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ص 51.

*.اعتقد هنا أن هذا لا ينقص من قيمته العلمية لأنه لم يدرس الفقه المالكي، وخاصة أن المذهب السائد في الحجاز ومصر هو المذهب الشافعي.

[2] . ابن حجر العسقلاني : العمر – بأنباء العمر – تحقيق حسن حسني ، لجنة إحياء التراث – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1392 هـ/ 1972م ، ج2 ، ص 216.

أحد القضاة المالكية بمصر، رحل إلى بلاد التكرور وبعد سنة 909(هـ/1503م)، وظل بالسودان الغربي حتى وفاته سنة 920هـ/1514م .

4-الإمام جلال الدين السيوطي (849-911هـ/ 1445-1505م)

اشتهر بغزارة علمه وتعدد مؤلفاته التي تفوق الثلاثمائة كتاب عن الحجاز والشام وبلاد الروم والمغرب و التكرور، ووصلت شهرته إلى حواضر غرب افريقيا التي تعود إلى صلاته الواسعة بالعديد من سلاطينها وأعلامها وطلابها خاصة من أسرة أقيت، وقد كانت تربطه علاقات جيدة مع الأسقيا محمد الكبير خاصة بعد رحلة حجه ومروره بالقاهرة، بل ذهب بعض الدارسين أن السيوطي رحل إلى شمال نيجيريا، وأقام في مدينة كاتسينا التابعة لسنغاي ثم عاد الى مصر عام 876هـ/1471م [1] .

في حين نفى بعض المؤرخين هذه الرحلة وذكروا أنه لم يسافر إلى غرب إفريقيا إطلاقا، ولو وصل هذا العالم الكبير إلى تلك البقاع لكتب ذلك بشكل أكثر وضوحا أو ذكر ذلك أحد معاصريه أو من اللاحقين [2].

ويبدوا أن المؤرخين المعاصرين الذين ترجموا للسيوطي وذكروا له هذه الرحلات اعتمدوا على النص المذكور في كتابه "حسن المحاضرة " حين يقول " وشرعت في التصنيف سنة ست وستين، وبلغت مؤلفاتي إلى ثلاثمائة كتاب ، وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب و التكرور ..."[3] .

ويبدوا أن فهم كلمة سافرت هي التي كانت السبب في الخطأ، فربما يقصد كتبه هي التي سافرت و هذا الأقرب إلى الحقيقة لأن مؤلفاته كانت واسعة الإنتشار في حواضر السودان الغربي، والسبب الثاني الذي جعلني أتفق مع الرأي الذي ينفي رحلة السيوطي هو التناقض في سنوات الإقامة إذ أشار المؤلف حسن احمد محمود إلى أن السيوطي عاد من بلاد التكرور كما يسميها السيوطي عام(876هـ/1471م)، أي قبل تولي الأسقيا محمد الكبير الحكم 899هـ/1493م ، والباحثون يربطون اهتمام السيوطي

---

[1] . حسن احمد محمود : المرجع السابق ، ص 18 .

[2] . مطير غيث : المرجع السابق ، ص 140 .

[3] . عبد الرحمان السيوطي : حسن المحاضرة ، في اخبار مصر والقاهرة ، ص 223

بغرب إفريقيا عندما التقى الأسقيا خلال رحلة الحج، والسبب الثالث الذي جعلني أرى أن السيوطي لم يزر بلاد السودان الغربي، هو أن الكتب السودانية لم تشر الى هذه الزيارة إذ لو فعل عالم بحجم السيوطي لترك أثر يذكره الأهالي، ومهما يكن من أمر الزيارة فإن أثار كتبه في حواضر السودان الغربي لدى العلماء والطلبة تكفي لتأكيد على دوره كعالم مشرقي في هذه الاقاليم الإسلامية .

وقد أورد كعت في كتابه أن نجل الفقيه السيوطي المدعو إبراهيم عبد الرحمان السيوطي، كان يعيش في تنبكت ويعمل مؤذنا في جامعها الكبير[1] ، ولقد أثمرت رسائل وفتاوى الإمام السيوطي في نشر الإسلام ومفاهيمه الصحيحة من خلال الفتاوى التي وجهها إليه الأسقيا محمد الكبير عندما رجع من رحلته إلى الحج وجاوسه إليه في القاهرة مستفتيا ومتعلما[2] .

ولم يقف الأمر عند الاتصال المباشر بين الأسقيا محمد والإمام السيوطي، بل تحدثت المصادر السودانية عن قيام أعداد من علماء السودان الغربي بتلقي العلم على يد السيوطي وبذلك صاروا تلامذته، ومنهم الفقيه أحمد بن عمر أقيت ، وهو جد العلامة أحمد بابا حيث أخذ عن السيوطي[3] ، وكان للمغيلي والأنصمني المسوفي وغيرهم جلسات مع الإمام السيوطي[4].

عرف عن السيوطي نصحه للملوك ونهيه عن المنكر وطلبه تطبيق الأحكام الشرعية في الإمارات الإسلامية، ومن أشهر هذه النصائح الرسالة التي بعثها إلى ملك التكرور، والسبب هو ما بلغه من أن بعض قضاتها يحكمون بأهوائهم ولا يرجعون إلى الشرع ومما جاء في هذه الرسالة :"...وقد بلغني من أحدهم أنه يذكر له الحكم الشرعي في واقعة المحكوم عليه ويضمنه إليه ويحصنه ويحول بينه وبين صاحب الحق ويحصنه، ويقول هذا دخل في ملكي أو جعل في سلطاني ويرد ما حكم به الشارع اغترارا بالأماني، أفلا يخشى أحدكم من مالك الملوك أن يحل به العذاب الأكبر وينزل

---

1. محمود كعت :المصدر السابق ، ص 17 .
2. مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص 141.
3. عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق، ص 37، احمد بابا: نيل الابتهاج، ج1، ص 153.
4. احمد بابا: نيل الابتهاج، ج1، ص 399.

عليه سخطه في الدنيا قبل أن يغتر إن بطش ربك لشديد وما ربك بظلام للعبيد ....."[1].

إن هذه الترجمة التي أوردتها للسيوطي لتدل على مدى الأثر الذي تركه السيوطي في غرب السودان وربما أشبهه هنا بتأثير الإمام المغيلي، والفارق بينهما هو أن هذا الأخير عايش أحداث إمبراطورية سنغاي وتتلمذ على يديه عدد كبير من الطلبة والعلماء .

ولم يتوقف تأثير علماء مصر على السيوطي بل تعداه إلى علماء آخرين، لقيهم بعض السودانيين ودرسوا وجلسوا في مجامعهم ومنهم :

5- الفقيه سالم السنهوري (945هـ-1015هـ/1538-1606م):

كان إمام للمذهب المالكي بمصر، ومدرسا في الجامع الأزهر، له عدة مؤلفات منها حاشية على مختصر خليل ورسالة شعبان وغيرها [2].

أرسل أحمد بابا رسالة بعنوان " أسئلة في المشكلات " إلى العالم السنهوري، يستفسره ويستفتيه في بعض ما استعصى لديه من موضوعات في مختصر خليل وابن الحاجب وتتضمن الرسالة ستا وثلاثين مسألة، وطلب من السنهوري وغيره من علماء مصر المعروفين في عصره أن يبينوا وجهة نظرهم فيما ذهب إليه أو فهمه من المسألة [3].

كان الحج من أهم العوامل التي تيسر للمسلمين فرص الالتقاء والتبادل الثقافي ، فحرص سلاطين الممالك الإسلامية في السودان الغربي على أداء هذه الفريضة رغم ما يكابدونه من مشاق طول الطريق، ومخاطر العطش وعناء الصحراء .

فقد كان مدرسة لتربية النفس على الصبر و مواجهة الصعاب والاستفادة من الخبرة و ملاقاة العلماء و الصالحين في الحواضر التي يمرون بها أو يستقرون فيها

---

1 . عبد القادر زبادية :مملكة سنغاي ،المرجع السابق ، ص 116.

2 . احمد بابا التنبكتي: **نيل الابتهاج** ج1 ،المصدر السابق ، ص 206.

3 . مطيرسعد غيث ، المرجع السابق ، ص 145.

لفترة من الزمن قوافل الحج دورا هاما في استمرارية التواصل الثقافي [4] و العلمي بين الحجاز و بلاد السودان الغربي و قد ظلت طرق الحج و لقرون طويلة قناة تنساب منها السلع و الأفكار و لم يكن حجاج غرب افريقيا يكتفون بأداء شعائرهم الدينية حجا في مكة المكرمة وزيارة لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل ينتهزون تلك الفرصة السانحة للجلوس للتعلم والحصول على الايجازات العلمية .

ومن الأدلة على ما ذكر انه اشتهر على ملوك مالي وسنغاي اصطحابهم للعلماء والأشراف خلال رحلات الحج، فعند عودة الأسقيا محمد الكبير طلب من شريف مكة مولاي العباس أن يرسل إليه أحد الأشراف للتبرك به والسير بسنته ، فأرسل إليه سنة(924ه/1519م) ابن أخيه الذي يصل نسبه الى الحسن بن علي بن أبي طالب ، يدعى أحمد بن عبد الرحمان بن إدريس وكان يوم وصوله حدثا تاريخيا شهده السودان الغربي، فقد أستقبل بحفاوة ومنح مائة دينار من الذهب الخالص وأغدقت عليه الهدايا العينية من الأراضي والإبل والعبيد ، فأقام في حاضرة تنبكت ، وقدموه للصلاة فصلى بهم صلاة العيد [1]، ثم انتقل إلى العاصمة غاو بإلحاح من الأسقيا محمد الكبير الذي أراد أن تزداد حاضرته بركة وأعطاه كتبا ، وأمر الولاة والقضاة أن لا يتعرضوا له ولأولاده فله ولهم الشفاعة وكان كل هذا مراعاة لنسبه الشريف [2] .

والملاحظ أن كتب التراجم والسير سواء السودانية أو العربية الأخرى لم تذكر لنا عالما مشهورا كالمغيلي أو السيوطي أثر في الحياة العلمية بغرب افريقيا ، وربما يعود ذلك إلى بعد المسافة أو لتقصير من الكتاب ، لكن يكفي ان نقرأ في ثنايا تلك الكتب عن رحلات الحج التي قام بها الملوك مثل منسى موسى و الأسقيا محمد الكبير وما جلبوه من كتب وما اصطحبوه من علماء وصالحين وحضور جلسات العلم .

---

[4] .مطير سعد غيث: المرجع السابق، ص 146.

[1] . محمود كعت :المصدر السابق ، ص 57.

[2] . عبد القادر زبادية :مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين، المرجع السابق ، ص 120.

خاتمة الفصل:

مما تبين في هذا الفصل أن حواضر غرب افريقيا عرفت بروز جيل من العلماء السودانيين الذين نالوا شهرة ومقدرة أهلتهم لتأليف الكتب التي تعد اليوم من مصادر البحث في فترة هامة من تاريخ إفريقيا فشاركوا في حركة التأليف وفي مختلف العلوم الشرعية والعقلية .

فالباحث في لغة الكتابة يجد أصحابها قد تمكنوا من اللغة العربية وقواعدها، وبرعوا في استخدام ألفاظ تليق بمقام العلماء وصفاتهم .

والمتفحص في الشروح التي كتبها الفقهاء والحواشي التي اتبعت بأمهات الفقه والأصول في المذهب المالكي يدرك أن هؤلاء مفكرون فعلا وعلماء وفقهاء أجادوا.

ولقد بينت الدراسة أن علماء حواضر الغرب السوداني بتنبكت لم تكن لتقل قيمة في العلم على ما هو الحال في فاس أو القيروان أو القاهرة أو تلمسان، وخير دليل على ذلك علماء السودان الغربي الذين درسوا في فاس أو في الأزهر، فكان مسجد سنكري بمثابة جامعة تضاهي مراكز العالم الإسلامي العلمية، في الوقت الذي شهدت فيه تلك الحواضر تراجع بفعل الضعف الذي أصابها بسبب الصراع السياسي على السلطة .

ومما تبين في البحث أن الفقهاء والعلماء المغاربة طوروا في العملية التعليمية وألفوا الكتب وشيدوا المساجد وبنوا المدارس، فكان لهم الفضل في نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية، وتقلدوا المناصب في الدولة أهمها منصب القضاء، وحولوا بعض المراكز الثقافية إلى منارات علمية في المنطقة تشع منها الثقافة العربية الإسلامية، أشهرها جامعة سنكري في تنبكت التي تم تأسيسها سنة (854هـ/1450م) والتي أصبحت تضاهي في مستواها العلمي القرويين بفاس والأزهر بمصر.

وكان للفقهاء نفوذا كبيرا فباستطاعتهم تلطيخ سمعة حاكم مثل ما حدث مع "سني علي" أو تحسين صورته كما فعلوا مع الأسقيا محمد الأول، فالفقيه كان له تأثير على نفوس العامة لسموه العلمي وتفقهه في الدين ولأخلاقه العالية ومنصبه في الدولة.

ولهذا كان السلاطين يمنحون العلماء الامتيازات والهدايا ويزودهم حتى بالحراس لضمان سلامتهم، ووصل حد احترامهم من العامة أن ينسب لهم الكرامات وإقامة الأضرحة لمن مات منهم.

وأظهرت الدراسة أن العلماء في السودان الغربي ازداد عددهم وحظوا بمكانة أحسن في عهد بعض الملوك المشهورين الذين حكموا الممالك السودانية الإسلامية، فقد كان منسي موسى وهو من أعظم سلاطين مالي صديق للعلماء الوافدين إلى مملكته، قال عنه ابن بطوطة: "يحب البيضان ويحسن إليهم"، تعلم اللغة العربية وأحبها، مثلما كان رجلا عادلا وصالحا حسب شهادات العمري و القلقشندي والسعدي، تميز بسخائه مع، فأغدق الأموال الطائلة على الفقهاء والعلماء، ومنح لأحد العلماء سبعين مثقالا من الذهب، وأعطى للعالم والمهندس المعماري والشاعر الأندلسي أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجين أربعة آلاف مثقالا.

وفي مملكة سنغاي عرف الأسقيا محمد الكبير حبه للعلماء، فقد كانوا يتمتعون بحرية تامة داخل بلاده، ويستعين بآرائهم في مجال الحكم، واسترشد في حكمه بمجموعة من النصائح التي قدمها له الفقيه والعالم محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني بعد إجابته على مجموعة من الأسئلة وجهها له.

الفصل الخامس أثر الحياة العلمية على تطور الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا .

مقدمة الفصل .

المبحث الأول:أثر الحياة العلمية على نظام الحكم والعمران:

أ- نظام الحكم .

ب- 1- بلاط الحكم وتقاليده:

2 - جهاز الإدارة وتنظيمه:

الوزارة:

الولاة.

جـ - القضاء .

د – العمران.

المبحث الثاني:أثر الحياة العلمية على الحياة الاجتماعية والعمران :

أ-الحياة الاجتماعية:

1-العادات والتقاليد:

2-العادات القديمة وتعاليم الإسلام الجديدة :

-المعتقدات .

3-القيم الأخلاقية والاحتفالات الدينية:

3-1- القيم الأخلاقية .

3 -2-الاحتفالات الدينية.

ب - المعاملات التجارية :

خاتمة الفصل :

مقدمة الفصل:

عرفنا أن الحضارة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا أخذت في الظهور في القرن السابع، وقد أسهمت في النهضة العلمية حواضر السودان الغربي في عدة منجزات لعل أهمها التراث العلمي، بحكم أن الجانب العمراني والاقتصادي انتهى بانتهاء تلك الفترة الزمنية (ق 08-10هـ/14-16م)، ماعدا بعض المباني التي ما تزال شاهدا على تلك الحقبة التاريخية .

ولإدراك قدر التطور والنهضة العلمية، لا بد من التعرف على الحال الذي كانت عليه غرب إفريقيا قبل ظهور الإسلام أو في القرون التي سبقت الفترة التي حددتها للدراسة.

لقد كانت إفريقيا جنوب الصحراء عامة تعيش في ظلمات الجهل واستبداد الحكام وسيطر النظام القبلي وخرافات السحر، و المظاهر الطبيعية على المعتقدات التي ظلت تقيد الإنسان الإفريقي لعدة قرون، حتى وصف بعض المؤرخين الأوروبيين الإفريقي في تلك الحقبة التاريخية بالإنسان البدائي.

لقد قامت في بلاد السودان الغربي نهضة شاملة ذات تنظيم خاص وأنماط من النظم السياسية والعمران والحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ونظم الحكم .

وبعد أن تناولت بالدراسة الحواضر والتبادل العلمي بين السودان الغربيوالعالم الإسلامي ومؤسسات التعليم ومظاهر الحياة العلمية، وبروز عدد كبير من العلماء العرب والسودانيين كنتيجة لانتشار الإسلام، وازدهار الحضارة الإسلامية في هذه المنطقة الكبيرة من إفريقيا.

فهل كان لكل هذا الأثر على تطور الحواضر الإسلامية من نظم الحكم القائمة على الشريعة الإسلامية، والنظام القضائي وقدرته على معالجة المشاكل التي تفرزها الحضارة، وكيف انعكس ذلك على العمران وتنظيم المدن، التي كانت آهلة بالسكان،

وما هي الأعراف والقيم التي كانت تحكمهم، وكيف أثر الإسلام على المعاملات التجارية باعتبار أن التاجر حامل لراية الإسلام .

هذه الأسئلة هي ما ستكون خلاصة الفصل السادس الذي يحمل عناصر الدولة الثلاث: الأرض والشعب والدستور (القانون)[1].

لقد كان للحياة العلمية أثر في تطور مناحي الحضارة في مختلف حواضر السودان الغربي، نتيجة المكانة التي حظي بها العلماء والفقهاء ومن ورائهم طلبة العلم.

ازداد تأثير العلماء والفقهاء بعد أن أصبحت مملكة مالي ثم سنغاي ذات نظام إسلامي خالص فأسندت مهام إدارية و قضائية وشورية للعلماء، فأثروا بذلك على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتطورت الحواضر من الناحية العمرانية بفعل زيادة السكان ونمو العمارة.

وقد أوردت كتب الرحالة والمؤرخين مظاهر هذا التأثير، وسردت معلومات مستفيضة حول نظام الحكم بين القرنين الثامن والعاشر والرابع عشر والسادس عشر ميلادي، وأبرزت الحياة السودانية وكيفية إكتسابها الثوب الإسلامي، فقد روى ابن بطوطة وأحمد بابا التنبكتي ومحمود كعت وعبد الرحمان السعدي وغيرهم، تلك الصبغة الخالصة التي طبعت نظام الحكم الإسلامي في مالي وسنغاي خلال فترة هذه الدراسة.

وقد أفاض المؤرخون و الرحالة في سرد الحياة التاريخية، و المظاهر الاجتماعية التي جاءت بها العادات و التقاليد التي صوبها الأئمة والعلماء والفقهاء وحتى الحكام من أمثال منسى موسى أعظم سلاطين مملكة مالي، و الأسقيا محمد الكبير أشهر ملوك سنغاي.

[1] حسن جبر: المرجع السابق، ص 81.

- فكيف أثرت الحياة العلمية على خلق تقاليد جديدة في نظام الحكم قائمة على استشارة العلماء، وسماع فتوى الفقهاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي وضعته الشريعة الإسلامية.

-هل ساهمت الحياة العلمية في تطور الحواضر من حيث العمران، وحياة الناس في المدينة وتنظيماتها كيف كانت المدينة الإفريقية من حيث الهندسة ومواد البناء و المساحة.

- لماذا تأثرت الحياة الاجتماعية بالصبغة الإسلامية أكثر في الفترة (08-10هـ، 14-16م)، وهل لها علاقة بالعلماء والتزام الحكام بالدين الإسلامي.

- هل انعكس نشاط العلماء، وانتشار العلوم على تطور التجارة والمعاملات التجارية على النمط الإسلامي، هذا ما سيتناوله هذا الفصل.

المبحث الأول:أثر الحياة العلمية على نظام الحكم والعمران:

أ- نظام الحكم .

1- بلاط الحكم وتقاليده:

لقد وجه الإسلام نظام الحكم وحدد مهام الحكام، والقواعد التي يبني عليها حكمه، إذ نجد في وظيفة ملك السودان الغربي الزعيم الديني، فالملك كان من ناحية على رأس الجهاز الحاكم، ومن ناحية ثانية على رأس الجهاز القضائي، ومن ناحية ثالثة يرأس قوات الدفاع، كما كان المشرع في دولته، فكانت كلمته قانونا، وتنتقل هذه الوظائف والإلتزامات والواجبات والمزايا إلى من يخلفه[1].

كان طابع الحكم السائد في الممالك الإسلامية في السودان الغربي، استبدادي والملكية مطلقة وفيها استغلال الرعايا لصالح الأسر الحاكمة[2] ، فالحاكم مقدس لدى السودانيين، وربما جاء هذا التقديس من العادات التي توارثوها من العهد الوثني، حيث كانت المعتقدات هي المسيطر على سلوك الإنسان، وقد بقى شيئا منها حتى القرون المتأخرة، ولعل القضاء على تلك السلوكيات كان من واجب العلماء، فساهموا في الحد منها جيلا بعد جيل، فكانت مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين من الممالك التي حسن نظام حكمها وكان الأقرب إلى الأنظمة الإسلامية السائدة في ذلك العصر.

وتشير الروايات التاريخية إلى القداسة التي كان ملوك مالي يحضون بها إذ يقول ابن بطوطة في وصف هذه الحالات، خاصة لمن أراد أن يقابل السلطان أو يكلمه[3].

ورغم هذه السلطة المطلقة فقد كان يساعد السلاطين مستشارين وموظفين، منهم نائب الملك ومستشاريه الذين يتمتعون بشرعية كبيرة بين جميع الرعايا، سواء

---

[1]. أحمد طاهر:المرجع السابق ، ص 77.

[2]. Monteil Vincent : Op.Cit, p149.

[3]. ابن بطوطة:المصدر السابق،ج2، ص 358.

المسلمون أو غير المسلمين بغض النظر عن أنهم من أهل البلاد أو الوافدين عليها طالما يعتنقون الإسلام، وهذا بغرض المحافظة على سلطة الحكم ومدها حتى يستظل بظلها أبناء الإمبراطورية أو الذين يعيشون على تخومها[1].

ونظام الحكم وراثيا على الأغلب، والقاعدة العامة في وراثة العرش هي تولية الولد الأكبر للسلطان الراحل، كما وجدت قاعدة ولاية الحكم لابن الأخت أو ابن البنت، وهذا شيء كان سائدا قبل وبعد انتشار الإسلام، وقد أشار ابن بطوطة إلى العادات الغريبة التي وصف بها المناطق التي زارها في رحلته فقال :«لا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه »[2]، وفي نفس الوقت وصفهم بأنهم يؤدون الصلاة و يحرصون على تأديتها في المسجد خاصة صلاة الجمعة ووصفهم بأنهم مسالمون، لكن نظام الوراثة هذا بقي إلى أن أضعفه الإسلام خلال حكم إمبراطورية سنغاي خاصة في عهد الأسيقيين.

ورغم نظام الوراثة إلا أنه لم يمنع قيام الثورات والنزاع على الحكم، فقد حدث زمن السلطان موسى الثاني (728هـ/1387م) أن استبد وزيره ماري جاطة، وأطلق عليه اسم «الصندكي»[3] أي رئيس العبيد في لغة الماندينغو.

وعموما فقد كان لمالي عادات وتقاليد شرقية وإسلامية بصفه خاصة نقلت إلى مالي مع الإسلام، ونتيجة للاتصال التجاري والثقافي بالعالم الإسلامي، ومنها ما يتعلق بأمور السلطة من شعار ومواكب وجلوس ووسائل تسلية[4].

1. أحمد طاهر: المرجع السابق ، ص 80.
2. ابن بطوطة: المصدر السابق،ج2، ص 351.
3. القلقشندي: المصدر السابق،ج5، ص 286.
4. محمد فاضل علي باري، سعد إبراهيم كريدية: المرجع السابق ، ص 95 .

وفي سنغاي كان النظام السياسي أكثر تعقيدا من مثيله في مالي، فعلى رأس هذا النظام يقف الإمبراطور الذي يتلقى لدى تتويجه ختما وسيفا ونسخة من مصحف القرآن الكريم[1].

وبالنسبة لتقاليد بلاد الحكام في ممالك السودان الغربي، فقد تشابهت من حيث تنصيب الملوك وإقامة الحفلات واستقبال الضيوف، ولم تكن لتخالف عما كانت عليه في البلاد الإسلامية الأخرى، لأن المستشارين المسلمين الذين جاءوا إلى غرب إفريقيا قد عملوا على ترسيخ ما تركوه في بلادهم، وهو الذي يستند إليهم في المشورة والرأي بسبب اتساع الرقعة التي يحكمها، وبذلك امتزج نمط الحكم السوداني بالأنماط العربية الإسلامية التي لوحظ تطور وجودها رويدا رويدا مع خضوع المنطقة للمؤثرات العربية الإسلامية[2].

وبلاط السلطان ضخم فيه ألوان من الترف والبذخ، وفي الاستقبالات توجد مراسيم تحدد بدقة ما يلبسه الموظفون من الأكسية وما يضعونه على رؤوسهم من الأغطية، وكل من يراه يتحتم عليه أن يخلع غطاء رأسه ويسجد ويذري التراب على رأسه وجسده[3].

وقد تحدثت كتب الرحالة والمؤرخين عن تقاليد البلاط وطريقة الجلوس، والاستقبالات، فقد وصف القلقشندي[4] بلاد وملك مالي، ووصف السعدي[5] بلاد ملك سنغاي.

[1].نفسه محمد فاضل علي باري، سعد إبراهيم كريدية:المرجع السابق ، ص 333.
[2]. مطير سعد غيث أحمد، المرجع السابق، ص 308.
[3].إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 333.
[4].القلقشندي،المصدر السابق،ج5، ص 288،289.
[5].عبد الرحمان السعدي:المصدر السابق، ص 81-100-114.

فكانت تقاليد البلاط توحي بعظمة السلطان، وتجعله مهابا لدى الرعية، وظهوره أمام العامة كان قليلا، ولا يظهر إلا على حصانه المطهر، والحرس من حوله وضاربوا الطبول من أمامه[1].

والإدارة كانت دقيقة، والولاة لم يكونوا من الأمراء والملوك السابقين للولاية، بل كان يعينهم ويغير الملك من بين رجاله، ومن هنا سيطر على دائرة المملكة ما دام الجيش خاضعا له[2].

ويحرص السلطان على عقد الاجتماعات الدورية في القصر للمشورة وتقصي أحوال الرعية، والتأكد من تنفيذ توجيهاتهم الصادرة إلى الجهات المكلفة بالتنفيذ، وفي عهد الأسقيا محمد الكبير أنشا مجلسا للشورى يضم الوزراء وحكام الأقاليم لمناقشة شؤون مملكته، وسار خلفاءه على نفس المشورة [3].

وحرص حكام مملكة سنغاي على التشبه بالخلفاء والحكام العرب والمسلمين في طريقة تصميم قصورهم، وقاعات الاستقبال التي عادة ما يلحق بها قاعة كبيرة يجلس فيها الملك إلى جانب ضيوفه.

والملاحظ أن النظام الإداري تطور منذ مملكة غانا، ثم مالي لكنه عرف تعديلات كبيرة خاصة في عهد الأسقيا محمد الكبير الذي سار بالبلاد بخطوات متميزة، وازدهرت الإمبراطورية في عهده سياسيا واقتصاديا وعلميا[4].

وتعد مراسيم تنصيب الملوك من أهم الأعمال الإدارية التي يوليها السلطان اهتماما خاصا وقد يكون هذا راجع إلى رغبة الحاكم الجديد في أن تبدأ مهابته منذ تنصيبه، فيكتسي ذلك طابع الأبهة والعظمة لدى موظفيه أو عامة الناس.

---

[1]. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ، المرجع السابق، ص 57.
[2]. إسماعيل العربي، نفس المرجع، ص 334.
[3]. عبد الرحمان السعدي: المصدر نفسه، ص 139.
[4]. الهادي المبروك الدالي: قبائل البرابيش ، المرجع السابق، ص 28.

ففي اليوم الذي ينصب فيه ملك جديد يبدأ الحفل في القصر الملكي، حيث يدخل الملك ويجلس على كرسي العرش ويضرب أمامه على الطبل، وتقدم إليه شارات السلطنة وهي عبارة عن قميص مزركش ولباس على الرأس يشبه التاج، وقد أضيف إلى ذلك السيف والبردة، وهذا التقليد هو الموروث منذ عهد الدولة الأموية ثم العباسية وما بعدها حيث الحكام يتبركون ببعض حاجيات الرسول (ص)، وتأكيدا منهم في أنهم خلفاء ه .

وبعد ذلك يتقدم إلى الملك رؤساء المقاطعات وقادة الجيش وأفراد العائلة المالكة ليقسموا أمام القاضي والعلماء على الإخلاص والطاعة للملك الجديد على المصحف[1].

ونلاحظ أن ممالك الدول مالي و سنغاي حرصت على أن تتخذ مظهرا إسلاميا*، يتمثل في خروج حكامها إلى الحج، وحرصوا على الإتصال بالدول الإسلامية والتشبه بها في نظم الحكم واتخاذ الكتاب من أصحاب العلم والمعرفة، والاستعانة بالعلماء والفقهاء، وإنشاء المساجد وتشجيع الحركة العلمية، وإيفاد الطلبة لمراكز العلم في البلاد العربية الإسلامية[2].

ومن المؤكد أن العلماء كانت لهم مكانة خاصة، سواء خلال حكم دولة مالي أو سنغاي، فباستثناء عهد سني علي (1464-1492) الذي اشتهر بإنزال أشنع أنواع التعسف بالطبقة المثقفة، ونتج عن ذلك هجرة واسعة للعلماء والطبقة النيرة إلى بير (ولاتة)[3] ، فإن العلماء قد وجدوا المكانة المرموقة لدي باقي الملوك.

ففي عهد الأسقيا محمد الكبير الذي نجح في دفع الحركة العلمية وتنظيم البلاد وإعطاء الحكم مظاهره السياسية والإدارية، ومنح تنبكت دورا دينيا وعلميا بارزا

---

[1] .محمود كعت: المصدر السابق، ص 106، عبد القادر زبادية مملكة سنغاي ،المرجع السابق، ص 63.

[*] . نتيجة تمسك الحكام بالمظهر الإسلامي إدعى بعض الكتاب الأوربيين أن الأسلام كان ديانة الطبقة الحاكمة والزعماء،ولم يكن دين الشعب، أنظر: J.Spencer Trimingham: The influence of islam Op-Cit,p11.

[2] .محمد محمد أمين،تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى،معهد البحوث والدراسات الإفريقية،العدد 513، القاهرة،1977، ص 82.

[3] .محمد الغربي، المرجع السابق، ص 58.

للعلماء الذين يجلسون إلى بلاط السلطان، فأثروا على مجريات الأمور، وكان ذلك من أسباب بطش المغاربة أثناء غزوهم للسودان الغربي بأكابرهم وشيوخهم[1].

ويوضح لنا أن كل هذا أن تلك البلاد الإفريقية تمتعت بمظاهر حضارية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كما مرت مالي بدورها في القرن الرابع عشر قبل ذلك[2].

2- جهاز الإدارة وتنظيمه:

- الوزارة:

كان الوزير في عهد مملكة مالي يلقب بـ «الصندكي» وللصندكي أهمية كبرى في الحكومة المركزية، فقد يحدث أن ينفرد بالأمر ويستبد بجميع الأمور تقريبا[3].

وفي مملكة سنغاي وجدت وظائف قائمة حول الملك، و أصبحت أكثر انتظاما مع مرور الزمان حتى نهاية حكم سنغاي ، و من هذه المناصب :

كيمي : مدير الميناء ،هيكوي : مسؤول أمن السفن ، يوبوكوي : مسؤول السوق ، كاري تيا : موزع السروج ، الكوراباندا مونديو: المتصرف في ضواحي العاصمة ، الباراي كوي : رئيس البرتوكول ، الوناي فورما : وزير الأملاك الحكومية ، لاراي فارما : وزير المياه ، ساوفارما : وزير الغابات .

إلى جانب هؤلاء أوجد الأسقيا وظيفة كنفاري التي عهد شغلها إلى أخيه عمر مزباغ ، وهو منصب مهم لأنه نائب الملك و تحت تصرفه قسم من الجيش[4]، و لقد حرص خلفاء الأسقيا محمد الكبير على استمرار هذا التنظيم في الوزارة ، ربما لفاعليته في معالجة الأخطار التي تحدق بالمملكة .

1. محمد الغربي: المرجع السابق ، ص 59.
2. عبد الرحمان زكي ، المرجع السابق، ص 221.
3. القلقشندي،المصدر السابق ج5، ص 286.
4. عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي ،المرجع السابق، ص 99.

و الملاحظ أن بعض هذه المناصب وجدت في المشرق الإسلامي، و قد يكون الأسقيا محمد اخذ عنها خلال رحلته إلى الحج، أو أشار عليه بها بعض معاونيه من العرب المتواجدين في سنغاي، فقد كان للممالك الإسلامية في غرب السودان عادات شرقية وإسلامية انتقلت مع الإسلام، نتيجة الاتصال التجاري والثقافي بالعالم الإسلامي[1].

- الولاة:

لقد نظمت الأقاليم على نحو يثير الإعجاب، فالحدود المترامية الأطراف لمملكة مالي وسنغاي يلزمها التنظيم الجيد لمواجهة مخاطر الانفصال و تمرد القبائل المحلية في الداخل أو الوثنية من الحدود الجنوبية، و قام التنظيم الإداري على المستوى الإقليمي فألغيت الطريقة القديمة في توكيل رؤساء القبائل، وبقي العرف القائم على الاحتفاظ بأولادهم كرهائن، فقسمت الإمبراطورية إلى ولايات، وعهد بكل ولاية إلى والي، و قد اختير الولاة في عهد الاسكيا محمد من بين أقربائه المخلصين[2] .

في عهد مملكة مالي كانت الوحدة الإدارية في تنظيم هذه الدولة المترامية الأطراف هي «الدجو» أي القرية، وتؤدي القرية هنا دور المدينة، ومجموعة القرى وضواحيها تعرف باسم «الكافو» (KAFO) في لغة الماندينغو ومعناها «الإقليم» أو المقاطعة ، ومجموعة الكافوات تكون ما يعرف عند مالي باسم «الديامانا» أي الولاية ، بل أن لقب منسى «MANSA» أو «ماسا» «MASSA» كان يطلق أصلا عند الماندينغو على حكام هذه الولايات، ولقب بهذا اللقب كذلك رؤساء القرى المؤسسون وهو لقب قديم يرجع إلى العهد الوثني[3].

---

[1]. محمد فاضل علي باري، سعيد إبراهيم كريدية: المرجع السابق، ص 95.

[2]. محمد الأمين عوض الله : المرجع السابق ، ص 69.

[3].Monteil Vincent : Op.Cit, p202.

وكانت هنالك عدة ألقاب تطلق على حاكم الولاية في عهد مملكة مالي تختلف حسب فترات الحكم وتوالي السلاطين، مثل لقب «كي» «kai» ومعناه ملك وطني خاضع لمنسى مالي وهو أعلى لقب لحكام الولايات ويطلق أيضا عليه لقب «كي مل».

وفي عهد مملكة سنغاي أخذت ألقاب الولاة أسماء محلية، يظهر كما جاءت من اصطلاحات الناس في مناطقهم، فوالي ولاتة كان يسمى «شا» ووالي تغازا يسمى «فا» وهنالك ألقاب أخرى مثل «كوي» و«مندزو» و«فارما»[1].

وهكذا نجد أن تنظيم الولاية يبدأ بالقرية كنواة للوحدة الإدارية، تليها المدينة وهي تتكون من مجموعة القرى، والولاية تعني مجموع هذه المدن[2]، فكانت مالي مقسمة إلى عدة ولايات.

ولم تختلف سنغاي أيضا عن هذه التقسيمات الإدارية ، فقد كانت مقسمة إلى ست ولايات هي: **بالاما، دندي، بانجو، هاريباندا، كورما، ولاية نهر النيجر**[3].

ب- القضاء :

كان تأثير الحياة العلمية على النظام القضائي واضحا، فكل الكتب التاريخية التي تناولت الموضوع، تؤكد على فعالية الأحكام القضائية، ونزاهة القضاة وحنكتهم وتفقهم في الدين، وهذا من أهم العوامل التي ساهمت في إرساء نظام الحكم وانتشار الأمن، وقلة مظاهر الإجرام والسرقة في الحواضر، فكانت الأحكام القضائية تطبق على العامة والقادة، حتى أن بعض القضاة كانوا أشداء في أحكامهم وتعاملهم مع الحكام، ويرجع هذا إلى انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي إبتداءا من الطبقات العليا، ثم استمر انتشاره بعد ذلك حتى وصل إلى العامة[4]، ومادامت الطبقات العليا متمسكة بالدين فهي

---

[1]. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ،المرجع السابق ، ص 60.

[2]. الهادي المبروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية، وعلاقاتها الخارجية مع المغرب من القرن 13-15م، ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1993.

[3]. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ،المرجع السابق، ص 34.

[4]. جلال يحيى،تاريخ إفريقيا الحديثة والمعاصر،ط1،المكتب الجامعي الحديث،الإسكندرية،1999، ص 29.

محترمة للقضاء وأحكامه، ولا يوجد من ذوي السلطان من يتدخل أو يضغط على القاضي.

وقد حرص السلاطين وحكام السودان الغربي على إشاعة العدل والأمن والالتزام بالكتاب والسنة وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية[1]، فأشار كل من العمري والقلقشندي وابن بطوطة، إلى مجالس السلطان القضائية ومواكبة النظر في المظالم ، فهناك قضايا تستأنف للنظر أمام السلطان نفسه خاصة إذا تعلق الأمر بالتأمر على الملك أو بعض القضايا التي لا يبت فيها القاضي على المستوى المحلي لحساسيتها، ومثل هذه القضايا ينظر فيها الملك في مجالسه[2]، وهذا دليل واضح على اهتمام ملوك مالي بإشاعة العدل والمساواة بين الرعية، إذ أن وظيفة القضاء مهمة ورفيعة.

أما في مملكة سنغاي فلم تكن نظم القضاء تختلف عن مملكة مالي، غير أن الأسقيا محمد الكبير قد أدخل بعض التعديلات والإصلاحات الحديثة، التي جعلت مملكة سنغاي تتفوق في إدارتها على مملكة مالي[3] ، فكان للقاضي هيبة ونزاهة جعلته يقف في أحكامه أمام الملك نفسه .

أما عن نظام المحاكم ففي مالي كان يتكون من محكمتين:المحكمة الملكية التي يرأسها الملك، وتختص في فصل جرائم الخيانة، ويتم انعقادها برئاسته شخصيا، والمحكمة الثانية وهي محكمة القاضي الذي يعينه الملك، ومهمة المحكمة الأخيرة النظر فيما يقع من جرائم العامة والمنازعات بين الأهالي، وكانت الطرق المتبعة في المساءلة تتم بطابع العنف والتعذيب لاستنطاق المذنب، وقرار المحكمة يعلن على الملأ، والعقوبة

[1]. مسعود خالدي:الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء،بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين،الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين،رسالة دكتوراه، ص 391.

[2]. العمري :المصدر السابق،ج4، ص 67،القلقشندي:المصدر السابق،ج5، ص 288،ابن بطوطة:المصدر السابق، ص 690.

[3].الأمين محمد عوض:المرجع السابق، ص 76.

حسب الجريمة فهي تتراوح مابين السجن والجلد، وقد تصل العقوبة إلى الموت أو مصادرة الأملاك [1].

وكان للقاضي مكانة مرموقة ففي عهد ففي عهد مملكة مالي كان الذي يتولى منصب القضاء، يمتاز بمصافحة الملك ويتصدر الحاضرين في المناسبات والأعياد الدينية ، ويصدق السلطان القاضي فيما يقوله[2]، وفي عهد مملكة سنغاي كان هو سيد القرار وبيده الحل والربط وحده[3].

ومن أمثلة تقدير حكام سنغاي للقضاة، هي استقبال الأسقيا محمد الكبير للفقيه القاضي محمود ابن عمر أقيت عند عودته من الحج[4] عام 915هـ/1508م، كما تحدثت المصادر التاريخية على أن القاضي محمود بن عمر أقيت قد نهر رسل الأسقيا محمد الكبير، وطردهم من تنبكت لتعديهم الحدود الشرعية، ولما تناهى الخبر إلى أسماع الأسقيا سار لمقابلة القاضي، معتبرا أن طرد رسله إهانة شخصية له، فبادر القاضي محمود بالقول: «هل نسيت أم تناسيت يوم جئتني في داري وأخذت برجلي وثيابي فقلت جئت أدخل في حرمتك واستودعتك نفسي أن تحول بيني وبين جهنم فانصرني، وأمسك بيدي حتى لا أقع في جهنم ، وأنا وديعتك فهذا سبب طرد رسلك[5]» فقال الأسقيا صدقت والله ، ثم رجع من حيث أتى.

ولعل الباحث يشده الانتباه عندما يقرأ عن هذا الإجلال الكبير للقضاة، ويؤكد الدكتور زبادية بأن هذه المكانة لا مجال للشك فيها بحال، على الأقل في عهد الأسيقيين، ويبدوا أن القضاة قد فرضوا احترامهم على السلطة وعلى الجمهور من الاستقامة التي كانوا عليها، فلم يذكر المؤرخون عن أحدهم إخلاله بالواجب بأي شكل

---

1. الهادي مبروك الدالي:مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها، المرجع السابق، ص 64.
2. نفس المرجع، ص 65.
3. محمود كعت : المصدر السابق، ص 174.
4. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق ص 76.
5. مطير سعد غيث أحمد:المرجع السابق، ص 340.

من الأشكال، كما كانوا لا يتولون منصب القضاء إلا بعد إلحاح كبير من الملك ومن الأصدقاء ومن الجمهور أيضا، وذلك تهربا من مسؤولية القضاء الصعبة[1].

وظروف تولي القاضي المنصب في حواضر غرب إفريقيا لا تختلف كثيرا عن ما عليه في باقي الدول الإسلامية الأخرى، وهو ما يؤكد لنا مدى التأثير الذي تركته الحياة العلمية، حتى تخرج من مدارس ومساجد تنبكت وغيرها علماء كانوا يضاهون أو يتفوقون على نزاهة غيرهم في بلدان العالم الإسلامي آنذاك.

فكان من آثار النهضة العلمية والازدهار الثقافي بروز فقهاء تولوا القضاء وأحسنوا خدمة الإسلام، فزاد انتشاره بين السكان وازدهرت الحياة الثقافية في عهد ملوك وسلاطين مالي وسنغاي الذين بذلوا الجهود لخدمة الإسلام[2].

ومما لاشك فيه أن القضاء كان أحد دعائم الاستقرار والأمن في مملكة مالي وسنغاي على حد السواء، فمتى كان الظلم من قبل الحكام أو الرعية سادت الاضطرابات وكثرت محاولات الاستيلاء على السلطة، ومتى كان القضاة يعينون على أساس العلم والأخلاق كان الفصل في القضايا التي ترفع إليهم سريعا ونافذا، وكان بذلك القاضي صاحب هيبة لدى الملوك والرعية، وكان لهم الفضل في دعم الاستقرار اللازم لازدهار الحياة العلمية في أي عصر من العصور، حتى كدت في دراستي أن أضع القضاء أبرز مظهر تأثر بالحياة العلمية، ومن المعالم الحضارية المشتركة بين إفريقيا وباقي دول العالم الإسلامي.

ɫ - العمران:

كان للإسلام أثره في مختلف أوجه الحياة الحضارية، وظهر ذلك بصفة خاصة في مجال العمارة والبناء، فعلى الرغم من الثروة المادية الهائلة في بلاد السودان الغربي، إلا أن فن العمارة كان في مراحله الأولى بسيطا ومتواضعا، فمنازل الملوك

---

1. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي، ص 74.
2. شوقي الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر، ط1، القاهرة، 1998، ص 15.

كانت تبنى من الحجر والآجر، وقد يأذن الملك لبعض أبناء الطبقة الغنية باستعمالهما في البناء[1].

تطور بناء المساكن في المجتمع السوداني بمرور الزمن، ففي بداية أمرهم كانوا يبنون منازلهم من أغصان الأشجار وجلود الإبل على هيئة خيام ثم تطور البناء فأصبح بالأحجار والطين والخشب العريض الطويل[2].

وكان الفن المعماري الأصيل لإفريقيا قبل الإسلام هو البناء المستدير المغطاة سطوحه بالأخصاص والقش في شكل هرمي لا أضلاع له،وربما يعود ابتداع ذلك إلى عامل التكيف مع المناخ حيث أن فصل الأمطار بالمنطقة كلها تحفل السحب فيه بأمطار غزيرة.

وقد كانت الحيطان تبنى بالطوب ونادرا ما تتخللها الحجارة،وكان بناء الذوات كثيرا ما يتميز باستعمال الآجر (الطوب المشوي)،في حين تبنى بيوت الفقراء والمتوسطي الحال بالطوب المجفف قد يخلط بالتبن أحيانا حتى يزداد صلابة،وقد وجدت لدى سكان إفريقيا الغربية عادة بناء حوش أو زريبة أمام المنزل لإيواء المواشي فيه ،أو لستر واجهة المنزل، وهي نفس الطريقة الموجودة في بلدان المغرب العربي[3].

ومع انتشار الإسلام، وازدياد روابط الاتصال بين السودان الغربي والعالم الإسلامي،أصبح الملوك والنبلاء يستخدمون البنائين من المغرب ليقيموا لهم القصور والبيوت على الطراز العربي المغربي الذي كان سائدا[4].

---

[1].زينب أحمد هاشم:المرجع السابق، ص 177.
[2].الهادي المبروك الدالي:التاريخ الحضاري، المرجع السابق، ص 26.
[3].عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي ،المرجع السابق، ص 52، عبدالقادر زبادية: الحضارة العربي،المرجع السابق، ص 52.
[4].نعيم قداح:المرجع السابق، ص 146.

وأقام التجار في المدن حوانيتهم على الطريقة المغربية في بناء مخازن البضاعة في أسفل دور السكن وقد قلدهم في ذلك الإفريقيون، وقد لعب المعماريون المغاربة دورا كبيرا في تخطيط مدينتي جني وغاو[1].

ولعل أهم مرحلة تاريخية شهدت قفزة نوعية في العمران وهندسته، كانت بعد رحلة سلطان مالي الشهيرة، فقد عاد منسى موسى من بلاده مبهورا دون شك بحال قصور القاهرة وعظمتها ،وقد اصطحب معه المهندس المعماري الشهير أبا إسحاق، فبني المسجد الجامع بمدينة غاو والذي لم يبقى منه إلا الحطام وجانب من المحراب.

وفي تنبكت بني المهندس أبو إسحاق الساحلي الجامع الكبير، وقصرا ملكيا، ولكن أجمل عمل أنجزه كان قاعة المجلس الشهيرة التي بناها في نياني وأودعها خلاصة فنه، وكان الملك يريد بناءا متينا محصنا.

بني المهندس قبة مربعة الشكل إستفرغ فيها إجادته، وكان صناع اليدين معاونيه، وأضفى عليها من الكلس، ووالى عليها بالأصباغ المشبعة، فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الإستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، فكافأه بإثنى عشر ألفا من مثاقيل الذهب[2].

وما من شك أن السلطان استعمل أكثر المواد شيوعا في هذه المنطقة من السودان، وهي الطين المضغوط، والمباني المشيدة بمثل هذه المادة في الأماكن المماثلة لنياني في موقعها من خطوط العرض تستدعي الترميم بشكل دائم ومستمر.

أما شمالي ذلك فإن قلة الأمطار تتيح صون المباني بشكل أفضل، وتلك حال مساجد جني، و تنبكت، وغاو[3].

1. نعيم قداح: المرجع السابق ، ص 146.
2. عبد الرحمان ابن خلدون: العبر، ج6، المصدر السابق، ص 267.
3. جبريل.ت.نياني: مالي والتوسع الثاني للماندانغ، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988، ص 161.

ونظرا لقلة الحجارة فقد استخدم الطين المقوى بالخشب، وهو ما نشأ عنه النمط الطريف من المساجد السودانية المقواة بالأخشاب، وازداد عما توالى على نياني من أعمال التخريب، وبعد أن تعرت الجدران من طبقة الحصى التي كانت تغطيها تحول البناء الذي أنجزه المهندس الساحلي إلى كومة من الطين والحجارة.

وهكذا تأثر العمران في حواضر السودان الغربي بالتطور العلمي والحضاري والثقافي وامتلأت الحواضر الكبرى بالشوارع العريضة ،والبيوت ذات السطوح العالية، والأبواب الضخمة ، و هي المظاهر الأساسية في مدن شمال إفريقية[1] ، ويؤكد مدى التأثير والتبادل بين الأقطار الإسلامية.

وتطور البناء بالأحجار والطين، وظهرت الهندسة المعمارية العربية، في البناء، وظهر نظام الأقواس والنقوش على الطراز الإسلامي،والإبداع الفني[2].

وتطور البناء عموما في إفريقيا جنوب الصحراء من الدور المبنية بالطين ولوح الخشب المحكم الالتصاق[3]، إلى بناء القصور والمساجد بمواد وهندسة جديدة أدخلها المسلمون إلى غرب إفريقيا، حيث يبدوا أن هندسة أبو إسحاق الساحلي قد اعتبرت أرفع الأنواع وقلدت إبتداءا من تلك الفترة [4].

وهكذا ندرك أن العمران من أهم مظاهر تأثير الحياة العلمية وعلى تطوره في حواضر غرب إفريقيا، حتى جعل بعض المؤرخين الأوروبيين يذهبوا إلى أن الإسلام هو الذي فتح باب التاريخ لإفريقيا، أما قبل الفتح الإسلامي فتاريخ إفريقيا لم يبتعد قط عن ضفاف البحر المتوسط والأحداث التي تعرضت لها القارة لم يصل صداها إلى العالم الخارجي إلا بعد الفتح الإسلامي[5].

---

[1].نعيم قداح: المرجع السابق، ص 146.
[2].الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري، المرجع السابق، ص 26.
[3].مارمول كربخال: المرجع السابق، ص 61.
[4].عبد القادر زبادية: الحضارة العربية ، ص 53.
[5].Alphonse Juilly :L'islam dans l'Afrique occidentales français –paris ,1952,pp 45-46.

المبحث الثاني:أثر الحياة العلمية على الحياة الاجتماعية والعمران :

أ- الحياة الاجتماعية:

1- العادات والتقاليد:

من المعروف أن العادات والتقاليد الاجتماعية وثيقة الصلة بتطور حياة الإنسان، ومن الصعب التحول منها بسهولة، ولعل التقاليد الإفريقية الأكثر بين الشعوب تمسكا بالطبيعة والغيبيات، فثقافة الزنوج وأدبهم الشفهي، والقصص الشعبية الواردة على حكايات الطبيعة والحيوان[1]، وغيرها من القصص المتوارثة عبر الأجيال، تؤكد أن الإفريقي قبل دخول الإسلام كان نمط الحياة الخاص به مرهون بالطبيعة وما تحويه من خرافات أو حقائق ظلت تقف في وجه الحركة الفقهية، والتطور الحضاري إلى غاية ظهور الإسلام.

ولهذا لم يشكك أحد في المعلومات التي ذكرها ابن بطوطة عن مالي ، والتي تناول فيها أوصافا دقيقة وتفصيلية عن ذلك الخليط العجيب من التعاليم والعقائد والعادات المحلية الذي كان سائدا .

وقد تراوحت ملاحظات وتعليقات ابن بطوطة بين الإعجاب الشديد بقواعد المن ومبادئ الحكم العادل التي كانت تسود أرجاء المملكة ، والسخرية والاستهزاء الشديد بالطقوس الاحتفالية المحلية [2] .

لذلك اغتنم بعض الباحثين الأوربيين هذه الآراء وتهجم على المصادر الإسلامية مدعيا أن المسلمين كانوا يسخرون من السكان"السود"،إذ يصف أحدهم أن المواقف السائدة من التقاليد لدى الغزاة -الذين شكلوا المجموعة الحاكمة في المجتمع الإسلامي- ، كانت تقف موقف الازدراء، نحو غير العرب بشكل عام وتجاه ذوي البشرة الداكنة

---

[1]. عدنان حداد: من روائع الأدب الإفريقي،ط1، دار البيروني للطباعة والنشر،2001، ص 33-52.
[2]. كولين ماكيفيدي : أطلس التاريخ الإفريقي ، ترجمة مختار السويفي ، ط1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، 1987 ص 101.

على وجه الخصوص ، وعبروا عن هذا في الأدب والوثائق والفن الذي قد نزل إلينا من العصور الوسطى الإسلامية... فهو يصور [الرجل الأسود] في شكل معاد للصور النمطية، وشيطان في القصص الخيالية، وهو وحشي في قصص السفر والمغامرة، وكسول، غبي، ينفث رائحة الشر وفاسق. وتؤكد الأدلة الموجودة في المصادر العربية والفارسية والتركية هذا الاتجاه . إلا انه بالرغم من هذه المواقف فإنهم ساهموا في تاريخ أفريقيا، خلال العصور الوسطى الإسلامية وقدموا حضارة في عملهم وخدماتهم[1].ولكن الوقائع التاريخية تكذب هذا الإدعاء وتؤكد مدى التآلف و التأثير الإسلامي على المجتمع السوداني دون تمييز على أساس اللون والجنس وربما كان ذلك في حالات نادرة كمعاملة العبيد على سبيل المثال.

وتبيّن الأبحاث والدراسات التاريخية أن المجتمع السوداني بدأ يتخلى عن العادات والتقاليد الإفريقية الخاطئة شيئا فشيئا ، وتمكن العرب من كشف مقدرة الإفريقيين للاستجابة والتطور ، فقد كان عصر القرن الرابع عشر ميلادي عندما كانت الحضارة الإسلامية لا تنافسها حضارة في أي بقعة على الأرض ، ولا تجد نظيرا لأراء المسلمين وأفكارهم وفنهم وعلومهم ، فادى العرب والبربر دورا رئيسيا في شمالي القارة وغربها [2] ، وأصبح السودان الغربي جزءا من العالم العربي عرف بكثرة مما جره ومدارسه التي كان يؤمها الشيوخ وطالبو العلم من الدول الخرى ، وقدموا مساكنهم للطلبة والمسافرين [3] .

2-العادات القديمة وتعاليم الإسلام الجديدة :

-المعتقدات :

[1] . B. Lewis: The African Diaspora and the Civilization of Islam, in M.I. Kilson & R.I.Rotberg, The African Diaspora (Harvard University Press, 1976), p48.

[2]. رولاند أوليفر ، جون فيج : تاريخ إفريقية ، ت عقيلة محمد رمضان ، ط1 ، الدرار القومية للطباعة والنشر ، دون تاريخ ص 29.

[3]. نفس المرجع ، ص 36.

كان سكان غرب إفريقيا يعيشون على عبادة الأسلاف ومثول أرواحهم بين الأحياء وتقمصها في الأشجار والجماد [1]، والحيوانات فجاء الإسلام بمفهوم حضاري معتمدا على نشر المعارف الصحيحة عن الكون ، والحياة ، وضرورة أن تكون المعتقدات مبنية على خدمة الإنسان ، وعدم التناقض في قيم الطبيعة وصيرورة التاريخ، وبعد القرن التاسع الميلادي بداية المشاركة الثقافية المتكاملة بين السودانيين والعرب على أساس الإسلام والمفهوم الذي يعطيه للكون ، وأمتزج السودانيين بالحضارة الإسلامية في معظم المجالات ومن بينها الثقافة الروحية الأساسية [2] ، أو المعتقدات فالأديان الإفريقية التقليدية تنتمي في معظمها إلى صنف الأديان المتعددة الآلهة ، فالأشخاص الخارقون في هذه الأديان هم أرواح مختلفة بما في ذلك أرواح الأجداد والمكان وظواهر الطبيعة ، ولما جاء الإسلام كان توحيد العقيدة أبرز تأثير عقائدي تركه ،وإن استمرت الممارسات التقليدية خلال القرون الأولى جنبا إلى جنب مع تلك العقائد الإسلامية كالتبرك بالأضرحة والاعتقاد في المحرمات المحلية ، على الرغم من أن الإسلام أصبح راسخ الجذور في المنطقة[3] .

فتخلى بذلك السوداني عن الاعتقاد في بعض الطلاسم والرسومات التي تدفع عنهم الشرك أو تجلب لهم الخير، مما هو متعارف عليه من السحر والشعوذة الكهانة [4].

وبدأ السوداني يؤدي الصلاة والحج ويصوم رمضان ويضحي الأضحيات في الأعياد ويتخلى عن السجود للآخرين، وأعطى الميت قدره بعدم المبالغة في تحضير جنازته ، وظهرت الأسماء العربية بدل الأسماء القديمة ، وتخلى عن السحر والكهانة

---

1. أحمد سويلم العمري : الإفريقيون والعرب ، ط 1 ، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة 1967 ، ص 67.
2. عبد القادر زبادية : الحضارة العربية ،المرجع السابق، ص 52.
3. A -Rahman I.Doi : Op.Cit,p 05
4. أحمد جروزا طاهر : أسس تعايش المسلم مع العادات والتقاليد الاجتماعية الإفريقية،مجلة علوم إنسانية السنة السابعة العدد 45 ،2010، www.ulumanl.com . 06.07.2010 .

والعرافة ، وحكايات الغول ، ووأد الأولاد خشية العار أو خوف الإملاق ، وأعطوا الزواج قدسيته وكرامته ، ولم يكن هذا إلا بمساعدة العرب[1] والمسلمين .

واختفت الكثير من المعتقدات الخاطئة ، بتغلغل الإسلام وتوقف الأفارقة عن أكل لحم البشر ، وتقديم القوانين البشرية ، وكان الناس عراة لا يغتسلون ، فأصبحوا بعد الإسلام يتأنقون بملابسهم من أجل الصلاة ، وشرعوا يغتسلون يوميا لأن الشريعة تتطلب منهم الطهارة ، بل أنهم أصبحوا يباهون مواطنيهم الوثنيين بملابسهم البيضاء النظيفة [2] .

وكان من الصعب على قبائل غرب إفريقيا رغم اعتناقهم الإسلام بان تهجر ما ورثته من عادات الآباء والأجداد منذ القدم [3]، ولعل هذا ما يفسر ما كتبه الرحالة ابن بطوطة عن مالي والخليط العجيب من التعاليم الإسلامية والعقائد والعادات المحلية التي كانت سائدة آنذاك .

ولما أمتزج الدعاة والمعلمين بالسودانيين عن طريق الزواج والمصاهرات لعبوا دورا لا يقدر في مجال التعليم ونشر الإسلام من جهة وإصلاح أحوال المسلمين الاجتماعية منها ، والعادات والتقاليد الخاطئة [4].

وفي عهد سنغاي – كانت كثير من المعارف القديمة الوثنية المستمدة من السحر بقي لها وجود حتى بداية عهد الاسيقيين سنة 1442 ، وقد أجتهد الأسقيا الأول الحاج محمد الكبير في القضاء على كل المعارف السحرية القديمة ، وأعتبرها أوهام لا تليق بدولة إسلامية متفتحة على العالم ، وتبين ذلك من الأسئلة التي أستفتى فيها الإمام المغيلي ، وأستنصحه بواسطتها ، فقد جاء في السؤال الثاني " فقد كان من صفات سني علي - الحاكم الذي سبقه في الحكم – أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ

---

[1]. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن : التقاليد الجاهلية في إفريقيا ، مجلة علوم إنسانية السنة السابعة ، العدد 45، 07.07.2010. www.ulumanl.com.2010.

[2]. نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 173.

[3]. جوان جوزيف : المرجع السابق ، ص 86.

[4]. أحمد بوعتروس : المرجع السابق 2009، ص 80.

المسلمين وكيف لا يعرف لذلك حقيقة إنما يقول ذلك بلسانه .... ويصوم رمضان ويتصدق كثيرا بالذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها ، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم، [1] وهذا يبين رغبة الحكام في إصلاح العقائد والمعارف التقليدية ، ومن الجدير بالذكر أن الأطباء ورجال الدين والقضاة ، والعلماء كانوا يعيشون في بلاط الملك وعلى نفقته الخاصة [2] ، وهذا ما دفع الطبقة الحاكمة إلى الالتزام بعقائد الشريعة الإسلامية قولا وعملا .

3-القيم الأخلاقية والاحتفالات الدينية:

-3-1- القيم الأخلاقية :

تقوم البنية الاجتماعية على عدة أسس وروابط في الحضارة الإسلامية ،واللغة والعقائد والعصبية والمساواة [3] ، وهذه الأسس أعاد بناءها الإسلام وقومها ، فاللغة أصبحت العربية ، تنافست فيها الأسر على تعليم أبناءهم بها ، وإن لم تكن لغة التخاطب فإنها لغة القيم الإسلامية ، ولغة الإدارة والمراسلات ، والتفقه في الدين أما العصبية فأخذت مفهوم جديد أرتبط بالدين ، القائم على المساواة بين الناس ، فاختلط العرب والبربر بالسودانيين وأصبحوا أمة واحدة، و ساهم الإسلام في المصالحة بين القبائل وجعلها مجموعة من الروابط المتنوعة الأكثر شمولا [4]، وكان عنصر المساواة الذي أوجده الإسلام ، وأجتهد الحكام خاصة في عهد سنغاي في تطبيقه عامل الوحدة الاجتماعية .

إن الإسلام لم يكن عقيدة فحسب ، بل هو قانون وعادات ومثل أخلاقية عليا ، ووحدة سياسية ، هو حضارة وبناء اجتماعي ، فغرست فكرة الأمة في قلوب المسلمين

---

[1]. عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي ،المرجع السابق، ص 135 .

[2]. جوزفين كام : المرجع السابق، ص 23.

[3]. ضيف الله محمد الأخضر : محاضرات في النظم الإسلامية والحضارة العربية ، ط1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1984، ص 138 .

[4] . Catherine Coquery-Vidrovitch: .Des frontières en Afrique du XIIe au XXe siècle Bamako, 1999، Publié par l’Organisation des Nations Unies pour l’éducation, la science et la culture،STEDI-MÉDIA, Paris.2005،p41.

السود لتحقيق الوحدة والإتحاد ، فقضى الإسلام على نظام سيادة المرأة وحل محلها الرجل كرب الأسرة وزعيم العشيرة ، وحارب العري وجاء بقيم احترام الابن للأسرة ، وحدد الإسلام تعدد الزوجات ، فقضى على الخلط بين الأنساب في المجتمعات الإفريقية التقليدية[1].

كما ورث الإفريقي عادات حميدة ، والتي وصفها ابن بطوطة في رحلته خلال حكم مملكة مالي قائلا :" فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحد في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ، ولا المقيم من سارق أو غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة ، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم بها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ، ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص لخلعه وغسله ونظفه وشهد به الجمعة ، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا يفك عنهم حتى يحفظوه "[2].

وقد أشار عدد كبير من المستشرقين المنصفين من أمثال سيرتوماس أرنولد وفانسنت ومونتاي ولوبون وهونكة إلى النقلة النوعية التي أحدثها الإسلام في تقويم وترقية الأعراف والقيم الاجتماعية في إفريقيا ، غير أن عدم الموضوعية في تقويم الآثار الإيجابية للإسلام في إفريقيا ظلت هي السمة الغالبة على معظم أعمالهم .

[1]. أحمد سويلم العمري : المرجع السابق ، ص 67.
[2]. ابن بطوطة : المصدر السابق ،ج2، ص 364 ، الأمين محمد عوض الله :المرجع السابق، ص 64.

وقد دل انتشار الإسلام بقيمه على أن هناك نواة لمبدأ أكثر رقيا إلى حد ما ، ومن الواضح أن هذا المبدأ كان يؤثر تأثيرا عميقا في طبيعة الزنجي ويجعل منه إنسانا جديدا ، ولعلك تدهش لو علمت أن هذا المذهب هو الإسلام [1].

-3-2-الاحتفالات الدينية:

لقد نشأ عن تأثير القيم الجديدة للإسلام ، من حيث المعنى ، ومظاهر الحياة اليومية ، بروز طرق جديدة في الاحتفالات بالمناسبات والأعياد الدينية .

لقد كانت الشعائر والطقوس الدينية السائدة في بلاد السودان الغربي قبل تعرضها لمؤثرات الثقافة الإسلامية ذات طابع وثني ، ولا يمكن أن يقال إن تلك الشعائر والطقوس قد انتهت نهائيا بمجرد اتصالها بمؤثرات الحضارة العربية الإسلامية ، ولكنها استمرت في أجزاء كبيرة من المنطقة .

ومن الاحتفالات التي نالت اهتمام السودانيين، وأعجبوا بها، وبقيت راسخة في المجتمع، الاستعداد لرمضان، والاحتفال بعيد الفطر والأضحى، وإحياء المولد النبوي الشريف.

- إحياء شهر رمضان : كان الصيام الفريضة الرابعة التي أوجبها الإسلام ، فهي تدريب النفس على المجاهدة والصبر، ولذلك ألتزم بها مسلمو السودان الغربي ، وأعطوا الشهر أهمية بالغة.

كان الأهالي يستقبلون رمضان بشتى أنواع الأطعمة والحلوى ، يكثرون من العبادة ، وفعل الخير ، والتردد على المساجد لأداء الصلاة في أوقاتها ، كصلاة الفجر والتراويح ، ويزور بعضهم البعض ، ويكثرون من قراءة القرآن ، وقراءة الشفا

[1]. مهدي ساتي : الإسلام والقيم الاجتماعية للجماعات الروحانية في إفريقيا جنوب الصحراء . www .mbark-inst.org2010.06.28

للقاضي عياض، وخاصة في مدينة تنبكت وجني وغاو[1] وربما كلفوا أحدهم بشرحه للأطفال لقاء أجر أو هدية [2].

وكان أهل السودان الغربي أشد كرما ، وأكثر صدقة في شهر رمضان ، فيأتي الأهالي إلى أبواب المساجد قبل الغروب بحبوب التمر وقطع الخبز والحساء ، ويوزعون ذلك على المحتاجين من الفقراء [3] .

وأهم ليلة في رمضان هي ليلة القدر حيث تحظى باحتفالات خاصة، كقراءة القرآن جماعيا ، والإكثار من الدعاء ، ويقوم القاضي في المدينة " يطبخ الطعام ويحمله فوق رأسه ، وينادي قراء القرآن وصبيان المكتب ويأكلون وهم قائمون ، يأكلون تعظيما لهم ....." [4].

وقد كانت تمنح كسوة سنوية للقاضي والمداحين ، بعد أن ينهوا جرد صحيح البخاري في نهاية شهر رمضان المبارك [5] ،ومن البديهي أن ينال الإمام أو المقرئ الذي يصلي بالناس التراويح نصيبه من المكافأة ، والشكر والثناء عليه ، وربما تجمع أموال خاصة بالمقرئين خلال شهر رمضان وخاصة من الطلبة المتميزين بالحفظ والصوت الجميل.

- إحياء العيدين ومولد الرسول (ﷺ) :

إن الاحتفالات الدينية تحمل تشابها بين ما يحدث في بلاد السودان الغربي ، والبلاد الإسلامية الأخرى كمصر والحجاز ، فنجد أن السلاطين وعامة الناس يهتمون باحتفالات العيدين، فتلبس الملابس البيضاء وسط التهليل والتكبير [6].

---

[1]. الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري، المرجع السابق، ص 27.
[2]. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق، ص 267.
[3]. مطير سعد غيث : المرجع السابق ، ص 378.
[4]. محمود كعت: المصدر السابق ، ص 180.
[5]. مطير سعد غيث : نفس المرجع ، ص 379.
[6].زينب أحمد هاشم: المرجع السابق ، ص 173.

وبمجرد رؤية هلال عيد الفطر ، يقصد العدول من الرجال للإدلاء بشهادتهم ، فتهتز المدن بالتهليل والتكبير ، وزغاريد النساء تعبيرا عن فرحتهم ، وفي الصباح ينطلق الرجال إلى المصلى ليؤدوا صلاة العيد ، وبعد الانتهاء من الصلاة يتصافح المصلون ويتزاورون ويتصدقون على الفقراء ابتهاجا بهذا اليوم [1]، ويسارع الناس إلى الطرقات مصطحبين الأطفال الذين يحملون الفوانيس المضاءة في تجوالهم لشراء لوازم العيد من أطعمة وملابس وهدايا ، أو تعلق الفوانيس لتنير الطريق طوال أيام العيد [2] .

وكانت العادة في ليلة عيد الأضحى أن تطلق المدافع من أبراج قصبة تنبكت ، كما يحدث في جميع مدن إفريقيا ، وعيد الأضحى له وقع في نفوس أبناء إفريقيا حيث يخرجون لأداء صلاة العيد [3] ، ويحتفل السكان بألعاب الفروسية ، وتعزف الموسيقى في الطرقات ، ويحضر الاحتفالات الشعراء الذين يعرفون (بالجلاد) ، ويتكلمون بالشعر أمام السلطان ، وهو عبارة عن وعظ وإرشاد له بأن يذكروه بمن كان جالسا قبله على سدة الحكم ، وعلى هذا المقعد الذي يجلس عليه اليوم ، فيعدون أعمال أسلافه السابقين من مآثر حسنة ، وينصحونه بالتحلي بالأعمال الطيبة حتى يذكر بها بعد مفارقة الدنيا، وهذا الوعظ الذي أسداه الشعراء للسلطان ، له ما يشبهه لدى ملوك الشرق العربي الإسلامي على أيدي الفقهاء ، وعلماء الأمة الإسلامية [4].

وبهذه الاحتفالات المتعددة والرائعة التي تغمر قلوب الصغار والكبار بالسعادة والفرح ، زاد تمسك أهالي السودان الغربي بالاحتفالات الدينية وتشجعهم على التمسك بشعائر الإسلام .

والاحتفال بالمولد النبوي الشريف يأخذ طابعا متميزا في جميع مناطق إفريقيا فيما وراء الصحراء ، وخاصة في المدن الكبرى مثل جني و تنبكت ونحوها يخرجون ليلة المولد النبوي إلى الشوارع يمدحون الرسول ، ويزينون المساجد ، ويرتدون أبهى

[1]. الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري المرجع السابق، 81.
[2]. مطير غيث : المرجع السابق ، ص 379 .
[3]. الهادي المبروك الدالي : التاريخ الحضاري لإفريقيا ، المرجع السابق، ص 83.
[4]. الهادي المبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها، المرجع السابق، ص 87.

ملابسهم وزينتهم ، وتكون حلقات المديح أمام أبواب المساجد ويمكثوا إلى الثلث الأخير من الليل أي إلى صلاة الصبح ، وما زال أهالي تنبكت يحتفلون بالمولد على نفس الطريقة التي كانت زمن حكم مالي وسنغاي والتي ذكرتها المصادر التاريخية [1].

ولا شك أن تمسك سكان حواضر غرب إفريقيا بالمذهب المالكي له دور في إعطاء هذه المناسبة حقها، فالمالكية عرفوا بصرامتهم في تطبيق سنة الرسول (ص) وربما فتواهم أكثر تشددا من المذهب الحنفي مثلا.

وقد أشار السعدي [2] أن أهالي تنبكت كانوا يتجمعون في الأعياد الدينية في الساحة (تسمى كلصخ) ، حيث يتخذوا موضعا لمدح الرسول (ص) ، ومن خلال قصيدة البردة ، ودلائل الخيرات [3]، وغيرها ، من القصائد التي كانت متداولة في الحواضر السودانية [4].

في نهاية دراسة عنصر الحياة الاجتماعية ، وتأثرها بالحياة العلمية، والحضارة الإسلامية بصفة عامة ، فإن الباحث لا يجد مبررا لدراسات بعض المؤرخين والكتاب خاصة الأوروبيين ، فقد وصفوا " سكان الأرض السوداء فطريون لأقصى درجة بلا إدراك ولا تجربة أو خبرة في أي شيء ويعيشون عيشة الحيوانات المتوحشة وبدون قانون وبدون نظام " ، هذه الصورة الهمجية كما صورها حسن الوزان في القرن السادس عشر والتي أتخذها كثير من المثقفين الأوروبيين كأحد المبادئ الأساسية المسلم بها دون تمحيص [5].

هذه الصورة النمطية التي تركتها بعض الكتابات عن السودانيين جعلت العامة ينظرون إلى الزنجي على أنه خليفة الإنسان البدائي في العصر الحالي ،أما المثقفين

---

1. الهادي المبروك الدالي: التاريخ الحضاري ، المرجع السابق، ص 85.
2. عبد الرحمان السعدي: المصدر السابق ، ص 59.
3. نفس المصدر ، ص 56.
4. أنظر الفصل الرابع (المناهج والمقررات).
5. كلود قوتية: إفريقيا للإفريقيين ، ترجمة كمال يونس ، ط1، دار المعارف ، القاهرة ،دون تاريخ ، ص 45.

وإن ينظروا عليه فبزاوية مائلة لا تعكس الحضارة التي وصل إليها سكان غرب إفريقيا على الأقل بين الفترة محل الدراسة (08-10هـ/ 14-16 م).

ب - المعاملات التجارية :

يتأثر النشاط التجاري بعوامل مختلفة ، منها الجغرافية والمنافسة والطبقية ومنها السياسية ، والقيم التي تحكم المجتمع .أهتم الإسلام بالمبادلات التجارية والمالية ، وأحكام البيع والشراء ، وطرق استثمار الأموال والمضاربة وأحكام الأمانات ،وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالتجارة، وبيان الحكمة من ذلك ، وعلاقته بالحياة ، ومطالب المجتمع [1].

ومع ازدياد انتشار الإسلام ، وبالتالي الثقافة والحضارة العربية في غرب إفريقيا ، قامت في المنطقة دولتين من أعظم إمبراطوريات العصور الوسطى - مالي وسنغاي – وحرصت أن تتخذ مظهرا إسلاميا واضحا تمثل في تشجيع الحركة العلمية، التي ساهمت في تطور التجارة السودانية المسبوغة بالأخلاق الإسلامية ، والقيم العربية المعروفة لدى التجار الذين وفدوا إلى حواضر غرب إفريقيا [2].

كان للحياة العلمية أثر على نظم التجارة في المعاملات ، والوسائل والطرق ، فأنتشر استعمال العملة كما هو السائد في بلاد المغرب وشاع استعمال المقاييس والمكاييل والموازين[3].

وفي أوائل عهد الأسقيا محمد الكبير أدخل نظام التفتيش على الأسواق لضمان سلامة المكاييل وعدالة البيع والشراء [4].

إن المعاملات التجارية كانت من أبرز تأثيرات الحياة العلمية وانتشار الثقافة الإسلامية ، فقد توافد التجار العرب المسلمون على المنطقة ، من مصر ، و غدامس ،

---

1. حسن جبر : المرجع السابق ، ص 289.
2. محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص 82.
3. نعيم قداح ، المرجع السابق ، ص 119.
4. زينب أحمد هاشم : المرجع السابق ، ص 99.

وفاس ، والسويس ، وتوات ، وغيرها ، وأنتقل مركز التجارة من ولاتة إلى تنبكت ، قال السعدي " كانت عمارة تنبكت خراب بير " (ولاتة) [1].

وخلال القرن الثامن الهجري - الرابع عشر ميلادي في عهد دولة مالي ، قويت العلاقات التجارية ، وأزدهر الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، وعم الرخاء الكثير من طبقات المجتمع سواء كانوا من الحكام أو من الرعية ، و جني أهل مالي الأموال الطائلة نتيجة الحركة التجارية الدءوبة [2].

وبلغت التجارة في عهد سنغاي، درجة عظيمة ، أكبر مما بلغته في أيام مالي ، إذ كانت سنغاي أكبر وأعظم [3].

ومع ازدهار الحياة العلمية ساد تنظيم محكم للمعاملات التجارية، وانتقلت التجارة من نظام المقايضة التقليدي الذي يعتمد على تبادل السلع، فكان التاجر يعرض بضاعته وينسحب ، ويقوم التاجر الثاني بنفس الطريقة ، وهو ما أطلق عليه بالتجارة الصامتة [4].

ونتيجة لازدهار النشاط التجاري ، وتضاعف حجم المبادلات ، وازدياد تأثير الحضارة الإسلامية على حواجز غرب إفريقيا ظهر نظام العملة ، وقد ذكرت كتب الرحلة أن العملة كانت متداولة ، فقد أشار البكري في القرن الخامس الهجري - الحادي عشر ميلادي إلى استعمال الدينار في تادمكة إذ يقول :" ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة " [5]، كما ذكر الحسن الوزان أنه أثناء مروره بمملكة سنغاي كان سكانها يتعاملون بالذهب لعظم مواردهم [6].

---

[1].عبد الرحمان السعدي : المصدر السابق ، ص 21.
[2]. الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها ، المرجع السابق ، ص 67.
[3]. زينب أحمد هاشم : المرجع السابق ، ص 98.
[4]. مطير سعد غيث أحمد : المرجع السابق ص 352، الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي ،المرجع السابق، ص 75 .
[5].البكري : المصدر السابق، ص 181.
[6].حسن الوزان : المصدر السابق ، ج 2، ص 170.

وأوجدت الحضارة الإسلامية في السودان الغربي المقاييس والمكاييل والموازين وأشار إليها بعض المؤرخين منهم محمود كعت وعبد الرحمن السعدي ، وأحمد بابا التنبكتي[1]، ولكنهم لم يحددوا مقاديرها بدقة ، فقد ذكروا الشبر والذراع والميل بالنسبة للمقاييس ، والحب والصاع ، والقنطار، والمثقال والدرهم والأوقية بالنسبة للأوزان [2] .

ومن النظم التجارية التي أدخلها الإسلام ، وكانت من نتائج ازدهار الحياة العلمية ، نظام الصكوك ، والمعاهدات، والمكاتبات التجارية، شهد بذلك الرحالة العرب والأوربيون ، وقد أوجد الإسلام في الدول الإفريقية لأول مرة نظام الضرائب العينية على البضائع المستوردة والمصدرة ، وأقيمت في المدن الإفريقية الأسواق في أيام معلومة تقليدا لأسواق المغرب العربي [3].

ومع ازدهار التجارة وتنظيمها انتشرت أخلاق لدى التاجر السوداني بفعل الأثر الطيب الذي تركه التاجر المسلم القادم من الشمال ، فقد كان التاجر أداة لنشر الإسلام [4]، وجاء العرب المسلمون تجارا وحاملين لمشعل الحضارة العربية الإسلامية [5]، وساهم التجار المغاربة في تغيير بعض العادات السيئة لأهل السودان ، منها الإغارة على القوافل التجارية ، وقطع الطريق ، والاستيلاء على ممتلكات التجار ، فأصبحوا يسعون إلى العمل والحصول على أرزاقهم بالحلال ، خاصة أن الدين الإسلامي يحث على ذلك.

وكان التاجر المسلم معروفا بنظافة ثيابه ، ومواظبته على الصلاة ، والطهارة ، والمعاملة الحسنة ، والصدق والأمانة ، مما ساهم في انتقال هذه الأخلاق إلى التاجر السوداني بعد اعتناقه الإسلام .

1. مطير سعد غيث : المرجع السابق ، ص 356.
2. عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي ،المرجع السابق، ص 198، 199، 200، الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي،نفس المرجع ، ص 76.
3. نعيم قداح : المرجع السابق ، ص 140.
4. رياض زاهر : المرجع السابق، ص 74.
5. نعيم قداح : نفس المرجع ، ص 141.

فالتاجر السوداني كان كريما ، ولم يقتصر على العامة بل حتى على السلاطين ، فقد وزع منسى موسى ذهبه وثروته على القاهرة ،بل كان ينثر الذهب أينما حل ، وفي المدن المقدسة استفاضت هداياه التي دلت على الكرم فليس من الصعب أن تصدق أنه حين عاد إلى القاهرة خلال رجوعه إلى وطنه ، كانت ثروته قد أتت إلى نهايتها مما سبب له الحرج ، فاستدان ولما عاد إلى تنبكت دفع دينه كاملا لورثته [1]، وهذا خلق ثاني أشتهر به السلطان ومن وراءه تجار السودان الغربي ، بل حتى المرأة شاركت في خلق الكرم بتزويد الوافدين بما كانوا يحتاجون إليه من غذاء ، فكانت تأتي بالدجاج واللبن والأرز ودقيق النبق إلى المسافرين والتجار [2].

وكان التاجر السوداني أمينا ، فإذا أودع التاجر العربي تجارته الرحبة - مكان يودع به التاجر تجارته – تكفل به أهل السودان بحفظها [3].

ويؤكد كعت الدرجة التي وصلت إليها مملكة مالي من السمة وكثرة الخيرات ، ولأهمية بعض السلع مثل القرع ، كان الذي يسرقه يقطع رأسه ولا تقبل فيه شفاعة ، وهي عادة موروثة لديهم منذ القدم [4]، وحد السارق في الإسلام هو قطع اليد طبعا لكن يبدوا أن عدم التساهل مع السارق هو الذي دفعهم إلى قتله ، أو ربما يبغض العادات التي بقيت موروثة من العهد الوثني ولم تتغير .

وهكذا يدرك الباحث أن الحركة العلمية سارت مع خط التجارة ، ومع أماكن تجمع التجار ، فكان انتشار الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي أثرا فعالا في دفع الحياة العلمية حيث ظهرت الحواضر مثل تنكبت وجني وغاو وغيرها [5].

[1]. زاهر رياض : المرجع السابق ، ص 78، 79.
[2].الهادي المبروك الدالي : مملكة مالي ،المرجع السابق، ص 75.
[3]. زينب أحمد هاشم: المرجع السابق ، ص 96.
[4]. الهادي المبروك الدالي: نفس المرجع ، ص 286.
[5]. جمال زكريا قاسم :المرجع السابق ، ص 40.

ومن المؤكد أن أثر الحياة العلمية كان واضحا في المعاملات التجارية، وهو ما جعلني أفرد له عنصرا مستقلا، فقد ورد في الأثر أن الدين المعاملة، وهذه لا تتأتى إلا نتيجة العلم ثم العمل به.

ولا يخف أن البيع والشراء يصحبهما دواما تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ولولا اتصال سكان غرب إفريقيا بالشمال عن طريق القوافل التجارية لما ازدهرت حضارتهم في وقت من الأوقات.

تلك الحضارة الإسلامية التي عرفتها مالي وسنغاي ،والتي لم يعرف السودان مثلها من الحضارات السابقة .

خاتمة الفصل :

لقد تعلم أهل السودان عن طريق اتصالهم بتلك الحضارة الزاهرة أشياء كثيرة لم يعرفوها من قبل ، فاعتنق غالبيتهم الدين الإسلامي ، وأجاد علماؤهم اللغة العربية وأسهمت طائفة كبيرة منهم في الكتابة في شتى أنواع التأليف في الأدب والدين والعلم والتاريخ ، كما برزت منهم جماعة من المصلحين الدينيين الذين عرفوا كيف يقضون على التقاليد الوطنية والعادات والمعتقدات الشريرة التي كانت متفشية بين الشعوب السودانية.

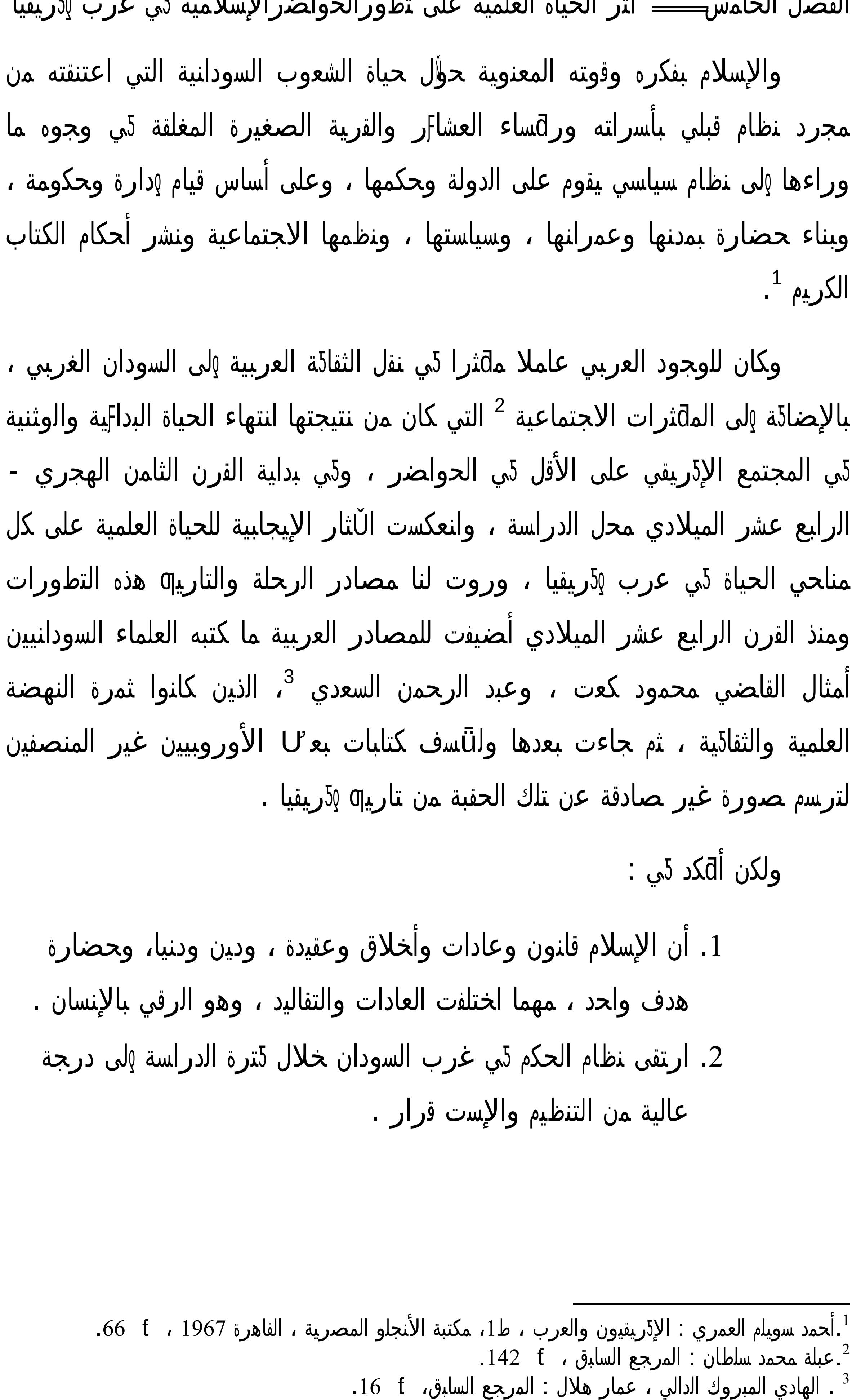
فحل مجتمع حضاري جديد مكان المجتمع البدائي القديم ، ولم يقف في سبيل نشر ذلك النور الحضاري سوى الغابات الاستوائية [1].

لقد كان قيام هذه الدول في شكله العام قائما على " الحكمة والموعظة الحسنة " وعلى قدرة الإسلام على استيعاب الأنساب السوداني [2].

---

[1]. عبد الرحمن زكي : المرجع السابق ، ص 232.

[2]. عبده بدوي : مع حركة الإسلام في إفريقية ، ط 1 ، الهيئة المصرية العامة للتأليف 1970، ص 187.



والإسلام بفكره وقوته المعنوية حوّل حياة الشعوب السودانية التي اعتنقته من مجرد نظام قبلي بأسراته ورؤساء العشائر والقرية الصغيرة المغلقة في وجوه ما وراءها إلى نظام سياسي يقوم على الدولة وحكمها ، وعلى أساس قيام إدارة وحكومة ، وبناء حضارة بمدنها وعمرانها ، وسياستها ، ونظمها الاجتماعية ونشر أحكام الكتاب الكريم [1].

وكان للوجود العربي عاملا مؤثرا في نقل الثقافة العربية إلى السودان الغربي ، بالإضافة إلى المؤثرات الاجتماعية [2] التي كان من نتيجتها انتهاء الحياة البدائية والوثنية في المجتمع الإفريقي على الأقل في الحواضر ، وفي بداية القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي محل الدراسة ، وانعكست الآثار الإيجابية للحياة العلمية على كل مناحي الحياة في عرب إفريقيا ، وروت لنا مصادر الرحلة والتاريخ هذه التطورات ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي أضيفت للمصادر العربية ما كتبه العلماء السودانيين أمثال القاضي محمود كعت ، وعبد الرحمن السعدي [3]، الذين كانوا ثمرة النهضة العلمية والثقافية ، ثم جاءت بعدها وللأسف كتابات بعض الأوروبيين غير المنصفين لترسم صورة غير صادقة عن تلك الحقبة من تاريخ إفريقيا .

ولكن أؤكد في :

1. أن الإسلام قانون وعادات وأخلاق وعقيدة ، ودين ودنيا، وحضارة هدف واحد ، مهما اختلفت العادات والتقاليد ، وهو الرقي بالإنسان .
2. ارتقى نظام الحكم في غرب السودان خلال فترة الدراسة إلى درجة عالية من التنظيم والإست قرار .

[1]. أحمد سويلم العمري : الإفريقيون والعرب ، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة 1967 ، ص 66.
[2]. عبلة محمد سلطان : المرجع السابق ، ص 142.
[3] . الهادي المبروك الدالي ، عمار هلال : المرجع السابق، ص 16.

3. تطور العمران في الحواضر إلى درجة لم يشهد غرب إفريقيا قبل ذلك التاريخ ، وانتقال التأثير الإسلامي عن طريق المهندس أبو إسحاق الساحلي ، والعرب والبربر الذين استقروا هناك .
4. ازدهرت الحياة الاجتماعية ، وعم الرخاء وانحصرت العادات السيئة وتحول المجتمع إلى النظام الإسلامي بقيمه ومعاملاته ، وانعكس ذلك على الاستقرار والابتعاد عن الصراعات القبلية والعرقية ، وهي التي مازلت اليوم تعرقل إفريقيا نتيجة لما أحياه الاستعمار بعد احتلال المنطقة ، وما زرعه من تفرقة بين عناصر الشعب الواحد .
5. كان التجار رسلا للإسلام في غرب إفريقيا، وكان التاجر السوداني بعد اعتناقه الدين خير مثال للأثر الطيب الذي تركته الحياة العلمية.

الخاتمة:

مما سبق دراسته يتضح أن الحياة العلمية كانت مزدهرة في حواضر ممالك غرب إفريقيا خلال الفترة (10،08هـ/16،14م)،وهي حقيقة تاريخية أكدتها المصادر التاريخية والوقائع التي وردت بها، منها مصادر الرحلة والجغرافيا مثل تحفة النظار لابن بطوطة ووصف إفريقيا لحسن الوزان، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار للعمري، أو كتب التراجم والتاريخ العام،مثل تاريخ السودان للسعدي وتاريخ الفتاش لمحمود كعت التنبكتي، والعبر لابن خلدون وغيرهم.

و من خلال البحث تبين أن واضعو لبنات تلك الحضارة علماء أفارقة، على خلاف ما يشاع من أن انتشار الإسلام كان بفعل عرب أو بربر فقط سواء أولئك العلماء الذين تعلموا في المنطقة، أو أولئك الذين رحلوا في طلب العلم ثم عادوا، أم التجار الذين يتنقلون بين المنطقة وفي أسواق مدنها وقراها واستقروا فيها ، إذ هناك فرق بين دخول الإسلام وانتشاره، فالأول يمكن أن يقوم به أي مسلم، والثاني يحتاج إلى معرفة لغات المنطقة لإيصال تعاليم الإسلام إلى أهلها والانتشار في القرى والأرياف لا الاكتفاء بالمدن الحضرية.

يؤيد ذلك عدد العلماء الذين حشدهم ملك «جني» كي يعلن إسلامه أمامهم، فقد جعل السعدي العدد (4200 عالم)، ويبعد المبالغة عن هذا العدد أن (جني) كانت تتكون مع توابعها من سبع آلاف قرية، كما ذكر السعدي نفسه(2). وحيث إن الإسلام للناس كافة فإن تاريخه وحضارته في المنطقة وفي غيرها صنعه – ولا يزال – مختلفَ الأجناس والشعوب أدلوا فيهما بدلائهم فذلك من طبيعة الإسلام، وشموليته، وعالميته، وواقعيته.

فقد تكلمت المصادر التاريخية عن الالتزام الشديد بتعاليم الإسلام في السودان الغربي – كأداء فروض الشريعة إلى أبعد الحدود، والمواظبة على الصلوات في الجماعة، وضرب الأولاد عليها، وازدحام المساجد بالمصلين، والحرص الشديد على حفظ القرآن، واستفتاء الفقهاء، والأمان في المساجد.

وأثبتت الدراسة وجود مفاهيم خاطئة كثيرة عن تاريخ الإسلام وأثره في هذا الجزء من أفريقيا دينياً، واجتماعياً، وثقافياً، وحضارياً، وهي مفاهيم لها دوافع مختلفة وجوانب عدة أتت من قبل بعض المثقفين الغربيين وأبناء المنطقة وغيرهم من الذين تأثروا بأولئك، وبخاصة المتغربين منهم واللادينيين والمسيحيين، وكذلك دعاة الزنجية، وبعض علماء الآثار الأفريقيين، والقوميين العرب،و ادعوا أن إفريقيا ليس لها تاريخ ولا حضارة قبل مجيء الرجل الأبيض في العصر الحديث وأطلقوا عليها اسم "القارة المظلمة".

إن صورة انتشار الإسلام عامة قد شوهت من قبل كثير من الدارسين، فأبرزت السلبيات (بل بالغوا فيها)، وطمست الإيجابيات؛ ولهذا لا بد من إبراز أسباب التشويه ومعالجتها، وإعادة رسم صورته على ضوء مفاهيم وتصورات أكثر استقامة وعدلاً، وبخاصة في ضوء المستجدات العلمية والبحثية المتعلقة بتاريخ المنطقة وحضارتها، وأثر الإسلام البارز فيهما، وكذلك حاجة بعض المصادر الأفريقية التي تناولت هذا التاريخ إلى إعادة فحص ومقارنة وتحقيق علمي؛ بسبب كون المطبوع منها من نسخة وحيدة ليست الأصلية.

وبينت المعلومات الواردة في المذكرة أنه في العصور التاريخية المختلفة ظهرت في ربوع تلك القارة عشرات من المجتمعات الإنسانية التي كانت لها حضارات وثقافات مختلفة، ولكنها حضارات أفريقية الأصل والجذور، والتي يمكن دراستها دراسة تحليلية لمقارنتها بالحضارات الأخرى القديمة التي كانت تزامنها في الزمان، وإن اختلفت معها في المكان.

فالعلم يحتل الميدان الأرحب في تكوين حضارة الشعوب ورقيها، ولاشك أنه كان السلاح الأمضى في غرب إفريقيا ،حتى نكاد نجزم أن مساهمة الحواضر الإسلامية في هذا الإقليم لم تكن تعرف لولا وصول الإسلام إليها، والمؤكد أنها إمتداد طبيعي لما

عرفته حضارة الإسلام، حتى وإن علمنا أن الشرق الإسلامي في هذه الفترة - محل الدراسة - بدأ مرحلة التراجع والانحطاط .

والحياة العلمية في غرب إفريقيا بين القرنين(08و10هـ/14و16م) حياة حافلة بالصفحات المضيئة التي لم يشر إليها الأوربيون وادعوا أن" الرجل الإفريقي ليس له تاريخ أو حضارة قبل الاستعمار الأوربي "[1]، وإن الباحث ليشعر بالفخر وهو يقرأ ماساهم به المسلم في بناء هذه الحضارة، وأنه لا يجب المقارنة في هذا الموضع بين ما فعله المسلمون في الأندلس وإفريقيا مثلا، أو بين هذا كله وما ساهم الأوربيون في حضارة القرن العشرين من إنجازات علمية وتقنية ، ولا نقول هذا من باب المن بل من الأنصاف، ولا من باب الاحتقار كما فعل الأوربيون، بل من باب إقرار فضل الإسلام على الإنسانية .

إن القارئ المسلم ليشعر بالفخر والاعتزاز وهو يتصفح أخبار تلك الصور الحضارية التي حفل بها التاريخ الإسلامي في حواضر غرب إفريقيا، فعلى الرغم من تدهور أوضاعه الحالية إلا أن الجوانب الحضارية بقيت شاهدة على أن المجتمعات الإسلامية قادرة على العطاء، فكانت الحياة العلمية واحدة من أبرز الظواهر الحضارية التي تميز بها تاريخ المسلمين في تلك البلاد .

وتشير الدراسات أن نشر العلم وتعميمه كان من أبرز السمات التي اشتهرت بها مملكة مالي وسنغاي، وقد عرف على الحكام المسلمين رعايتهم للعلم وإنفاقهم المال على العلماء والمؤسسات التعليمية، واحترامهم لتوجيهات القضاة و الفقهاء .

إن الكثيرمن أولئك السلاطين علماء وفقهاء، وإذا لم يكن السلطان نفسه عالما فقيها اتخذ أحد العلماء البارزين وزيرا يدير له الدولة وفق الشريعة، ولا بد من هيئة شورية على شكل لجنة الفتوى من كبار العلماء والفقهاء، وكان السلاطين والملوك يحترمون

[1]. محمود السيد :تاريخ إفريقيا القديم والحديث ،ط1،مؤسسة شباب الجامعة ،الأسكندرية ، 2006،ص06.

هؤلاء العلماء والفقهاء، ويزورونهم في بيوتهم، ويستفتونهم، ويشاورنهم في شؤون الدولة وما تتعرض له من أخطار، ويأتمرون بأمرهم.

لقد انتشل الإسلام الأفارقة من وحل الوثنية، وأبعدهم عن حياة البداوة والاقتتال بين القبائل، وساقهم إلى حياة جديدة، وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية في كثير من الأوقات إلا أن دور العلماء ومؤسسات العلم استمر في العطاء والتوجيه، وإن اختلف هذا الدور والتأثير من فترة إلى أخرى ومن الحواضر إلى القرى، ويجيء هذا البحث خطوة يرجى أن يلقي أضواء صادقة عن الحالة العلمية والثقافية خاصة والحضارية عامة في جزء هام من القارة الإفريقية .

ومن النتائج التي توصلت إليها أن تاريخ الصلات الحضارية بين حواضر السودان الغربي والأقطار الإسلامية يعود إلى قرون عدة قبل ظهور الإسلام، منذ أن سلكت قوافل التجارة طريقها عبر الصحراء، وقويت أكثر بعد ظهور الإسلام ،وترتب عليه تبادل الصلات الثقافية والعلمية، واستخدام اللغة العربية وانتشار المد الإسلامي، وارتحال طلبة العلم والعلماء إلى مختلف الحواضر الإسلامية المعروفة من فاس إلى تلمسان والقيروان وطرابلس والقاهرة والحجاز، ونتج عن هذا التواصل بروز كوكبة من علماء السودان الغربي تميزوا بغزارة التحصيل، وألفوا الكتب وألقوا الدروس والمحاضرات ، وكونوا الطلبة وأرشدوا عامة الناس وخاصتهم من الحكام والمسؤولين، وكانوا محل احترام من قبل السلاطين المتعاقبين على الحكم في مملكة مالي وسنغاي.

وعرف التاريخ الثقافي لحواضر غرب إفريقيا نشاطا كبيرا لمؤسسات التعليم التي بنيت في مناطق مختلفة، كان لها دور عظيم في نشر الوعي العلمي والثقافي، وعلى ترسيخ مقومات الشخصية الإسلامية والحفاظ عليها فكان المسجد مدرسة دينية ودار للتهذيب والضيافة، ومركز يجمع العلماء والطلبة، وهو مركز إشعاع علمي وحضاري يقوم على تدريس مختلف العلوم الدينية والعقلية، في مختلف المراحل

التعليمية، وهي بذلك تمثل جزءا مهما من الحياة العلمية والثقافية منذ دخول الإسلام إليها .

وارتبط العالم والطالب منذ ظهور الكتابة بالكتب والمكتبات التي تمثل عاملا و مظهرا أساسيا لتقييم مدى انتشار التعليم .

وكان الارتحال لطلب العلم سمة العالم الإسلامي كله، ولم يكن السودان الغربي ليشذ عن هذا، بالرغم من بعد المسافة التي تصل إلى ألاف الأميال وهو ما يفسر قلة الطلبة الذين توجهوا إلى حواضر المغرب والمشرق الإسلاميين .

وتبين من البحث أن رحلات الحج لملوك السودان، كانت لها فائدة ثقافية وسياسية كبيرة في بلدان وممالك جنوب الصحراء، فقد كانت مواكب الحج ضخمة، يتصدق الملوك خلالها بالأموال في المناطق التي يمرون بها، كما كانوا ينقلون مظاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى بلدانهم، ويتصلون بالعلماء والفقهاء فيستفيدون.

وانعكس التبادل الثقافي ومؤسسات التعليم على مظاهر الحياة العلمية بالإيجاب، واتسع التعليم وكثرت المدارس والكتاتيب، وارتفع عدد الطلبة وكثر حفظة القرآن وتمسك السودانيون بتعاليم الدين الإسلامي، رغم أن هذه الحواضر كانت تفتقر إلى معهد رئيسي كبير يلم شتات المثقفين في القرى والأرياف، فكان القليل الذي يستطيع السفر إلى فاس أو القيروان وغيرها طلبا للعلم والتبحر فيه .

و ظلت المدارس الموجودة في حواضر الممالك الإسلامية بغرب إفريقيا تحتفظ بخصائصها المستقلة عن المدارس المجاورة ولا تربطها علاقات تنظيم أو تسيير، وكانت حاضرة بحق تشبه إلى حد بعيد الجامعة الكبرى في غرب إفريقيا .

هذا ماجعل الحكم على الحياة العلمية في غرب إفريقيا بمنظور أندلسي أو عربي أوروبي، وما شهدته هذه المناطق من تطورات يجعلنا لا نزن الأحداث والتطورات بميزان العدل فعلينا قبل الحكم أن ندرس كيف كانت إفريقيا ؟وكيف تطورت؟ وما هي المدة الزمنية المستغرقة لبناء الحياة العلمية وتقاليدها؟ وهل ساعدت الظروف التاريخية والتطورات السياسية مملكة مالي وسنغاي على التطور الحضاري الكافي لنقارنه

بحضارة الأندلس؟ مثلا أم أن الكثير منها –التطورات التاريخية والسياسية – كانت تعيق التواصل الحضاري ، وماهي الظروف الطبيعية المحيطة؟، وهل كان النظام القبلي دافع للفكر أم تراجع بسبب تمسكه بالقيم التي ظل الإفريقي يقدسها ،حتى روى لنا الرحالة كابن بطوطة، وحسن الوزان بعضا منها، غاية في الغرابة وبعدا عن الحياة الإسلامية

وما استخلصته أن الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا، وما شهدته من تطورات يعد قفزة ايجابية كبيرة خاصة في الفترة محل الدراسة .

إن مظاهر الحياة العلمية في حواضر غرب إفريقيا قد تعددت و تطورت مع القرن السابع حتى غدت مع بداية القرن الرابع عشر ميلادي نموذجا خاصا في هذه الأقاليم .

إذ يرجع الفضل إلى الحركة والنهضة العلمية التي شهدتها تلك الحواضر في إخراج القارة بأكملها من عزلتها الحضارية التي عاشتها طيلة القرون التي سبقة الإسلام حتى عرفت بالظلام .

والملاحظ من الدراسة أن فئة العلماء والفقهاء ساهمت في تنشيط الحياة العلمية في الحواضر والمراكز الثقافية ، وتأثيرهم كان قويا وبارزا، سواء علماء السودان الغربي من أمثلة المؤرخ محمود كعت وقاضي تنبكت صاحب كتاب الفتاش ،وقد كان معاصرا للأسكيا محمد أعظم حكام مملكة سنغاي ومستشاره الخاص ،عاصر كعت الأزمات السياسية التي سبقت الغزو المغربي لبلاد السودان ،وركز في كتابه على ما كان يدور في بلاط الأسكيا.

ويعد المؤرخ عبد الرحمان السعدي من كبار علماء السودان الغربي وأشهرهم، وإن كان نشاطه يخرج عن نطاق دراستي(1596،1670) فإن كتابه ليؤرخ للفترة نفسها ،كما أن عمله يعد مصدرا مهما لتاريخ المنطقة ،وقد استعان كثيرا بمؤلفات أحمد بابا التنبكتي،ومحمود كعت ،لكن أسلوب كتابته أكثر وضوحا ودقة وأجمل في البناء ، رغم عبارات الإطراء والسجع والأسلوب الإنشائي .

وينبغي أن أشير هنا أن كثير من علماء حواضر غرب إفريقيا لم تكن كتب التراجم قادرة على رصد حياتهم وإنتاجاتهم الفكرية ،فاكتفت بترجمة مختصرة ،حتى

يخيل للقارئ أنها ليست لعلماء بل لأشخاص عاديين، وهذا راجع حسب رأيي إلى الأسباب التالية: الأول، أنهم علماء تخصصوا في علوم الدين، وبالتالي لم يكن لهم إنتاج معرفي سوى التمكن مما هو موجود من مؤلفات السابقين - وهنا نتذكر عصر الانحطاط في المشرق الإسلامي حين كتب المؤلفون الشروح -، والسبب الثاني: أن ما كتبوه قد أتلف بسبب عوامل تاريخية أو طبيعية أو أن منتوجهم المادي لم يرق إلى مستوى الذكر، والثالث: أن انشغالهم بالدعوة والتعليم والتنقل والترحال أضعف مجال التأليف، والعلم لا تقدر مكانته بما ينتجه فقط، بل ما يفيد به طلابه ومجتمعه، وقائم على على دوره في تلك الحقبة من الزمن، حتى وإن كان في إطار جغرافي وزمني محدود .

كما ساهم علماء البلاد الإسلامية في نهضة غرب إفريقيا فقد التقى ابن بطوطة بعدد كبير من الفقهاء والعلماء والقضاة، وأورد أسماءهم في رحلته المشهورة منهم: محمد بن عمر، والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان، وأبو حفص المسوفي والشيخ المزوري وسعيد بن علي الجزولي، والقاضي أبو إبراهيم الجاناتي، وجعفر بن محمد المسوفي، وأورد كل من السعدي وكعت عدد كبير من أسماء الفقهاء والعلماء والقضاة، أشهرهم علماء أسرة آل أقيت الذين تميزوا بعلمهم وثقافتهم في الدين وورعهم وتقواهم، وكثير منهم تولوا منصب القضاء في تنبكت أكبرهم: محمد بن عمر بن محمد أقيت (ت 828/1463) وأبناؤه الثلاثة محمد والعاقب وعمر ، وأحفاده منهم أبو حفص عمر وأحمد بن محمد سعيد وأحمد بابا صاحب كتاب نيل الابتهاج.

وبجانب أسرة آل أقيت برز عدد آخر من علماء وفقهاء المغرب الذين استوطنوا وعاشوا في السودان الأوسط والغربي منهم أند محمد، ومخلوف بن صالح البلبالي ومحمد بغيغ والتازختي وغيرهم.

ويعد محمد عبد الكريم المغيلي من أكبر العلماء وأشهرهم الذين تركوا آثارا واضحة في الحياة الثقافية والسياسية في السودان الغربي في عهد الإسكيا محمد الكبير ملك سنغاي، كما يعد أحمد بابا التنبكي من أشهر علماء آل أقيت الذين أثروا على الحياة الثقافية والسياسية في المغرب وبلاد السودان معا، فقد عاش بمدينة تنبكت ولكن

المغاربة نقلوه إلى مراكش ونفوه هناك بعد غزوهم لسنغاي، وأقام بها زهاء عشرين سنة يدرس في جامع الشرفاء.

ومما تبين في البحث أن الفقهاء والعلماء طوروا العملية التعليمية وألفوا الكتب وشيدوا المساجد وبنوا المدارس، فكان لهم الفضل في نشر العلم والثقافة العربية الإسلامية، وتقلدوا المناصب في الدولة أهمها منصب القضاء، وحولوا بعض المراكز الثقافية إلى منارات علمية في المنطقة تشع منها الثقافة العربية الإسلامية أشهرها جامعة سنكري في تنبكت تم تأسيسها سنة 854هـ/1450م والتي أصبحت تضاهي في مستواها العلمي القيرويين بفاس والأزهر بمصر.

وكان للفقهاء نفوذ كبير فباستطاعتهم تلطيخ سمعة حاكم مثل ما حدث مع "سني علي" أو تحسين صورته كما فعلوا مع الإسكيا محمد الأول. فالفقيه كان له تأثير على نفوس العامة لسموه العلمي وتفقهه في الدين، ولأخلاقه العالية ومنصبه في الدولة، ولهذا كان السلاطين يمنحون العلماء الامتيازات والهدايا ويزودوهم بالحراس لضمان سلامتهم، ووصل حد احترامهم من العامة أن ينسب لهم الكرامات وإقامة الأضرحة لمن مات منهم.

وهنا لا يفوت الباحث أن يشير إلى رحلات الحج ، التي كانت لها فائدة ثقافية كبيرة في بلدان وممالك غرب إفريقيا، بها إنتقلت مظاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى بلدانهم، من اتصال العلماء ببعضهم البعض ، وشراء الكتب ،واستشارة علماء وفقهاء المغرب والمشرق ومنهم من اصطحبوه إلى بلدانهم بعد عودتهم من أجل نشر الثقافة الإسلامية وتصحيح المعتقدات وبناء الدولة وتشييد العمران بها.

فالملك منسى موسى أحضر معه، بعد رجوعه من الحج، طائفة من مشاهير العلماء العرب عاشوا في مالي وتنبكت منهم المهندس المعماري والشاعر أبو إسحاق الساحلي الذي كان له الفضل في إدخال طرق جديدة في البناء والفن المعماري في المنطقة.

أما الإسكيا محمد الكبير أحضر معه بعد عودته من الحج أحد أشراف مكة المكرمة، يدعى أحمد بن عبد الرحمن بن إدريس، يصل نسبه إلى الحسن بن علي

رضي الله عنهما سنة 926هـ/1519م فأقام بالعاصمة "غاو" وحصل هو وأولاده على امتيازات وهبات كبيرة.

وكان الفقهاء والعلماء، هم من تولى كثير من المناصب الوزارية وعملوا كمستشارين للملوك وأشرفوا على تسيير الدولة.

ورغم أن السلطة في دول المنطقة كانت مطلقة إلا أن العلماء ساهموا في نشر مفاهيم إسلامية أثرت على أسلوب الحكم و منها مبدأ الشورى و البيعة، فقد كان بعض ملوك الدول الإسلامية السودانية يستعينون بالعلماء و الفقهاء لإدارة ملكهم، فنصبوا أكبر الفقهاء و العلماء كمستشارين ووزراء لهم لتسيير شؤون دولهم، و استعانوا بمجالس للشورى تتكون من الأعيان و أكابر البلاد في تنظيم أمور البلاد.

و إليهم يرجع الفضل في تطور النظام القضائي الذي أصبح محكم التنظيم، يعتمد في أحكامه على الشريعة الإسلامية ويتمتع فيه القاضي بالاستقلالية الكاملة، ، وقد وضحت ذلك في:" فصل علماء الحواضر" وأثرهم فكان اختيارهم على أسس علمية و أخلاقية، و يروي لنا ابن بطوطة أثناء رحلته إلى مالي إعجابه من حرص ملوكها على نشر العدل و الأمن في البلاد و هو ما يتشابه مع وضع أرقى الدول في عصرنا الحالي.

ولا يخفى أن البيع والشراء يصحبهما دوما تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ولولا اتصال سكان غرب إفريقيا بالشمال عن طريق القوافل التجارية لما ازدهرت حضارتهم في وقت من الأوقات.

تلك الحضارة الإسلامية التي عرفتها مالي وسنغاي ،والتي لم يعرف السودان مثلها من الحضارات السابقة .

لقد تعلم أهل السودان عن طريق اتصالهم بتلك الحضارة الزاهرة أشياء كثيرة لم يعرفوها من قبل ، فاعتنق غالبيتهم الدين الإسلامي ، وأجاد علماؤهم اللغة العربية وأسهمت طائفة كبيرة منهم في الكتابة في شتى أنواع التأليف في الأدب والدين والعلم والتاريخ ، كما برزت منهم جماعة من المصلحين الدينيين الذين عرفوا كيف يقضون على التقاليد الوطنية والعادات والمعتقدات الشريرة التي كانت متفشية بين الشعوب السودانية.

فحل مجتمع حضاري جديد مكان المجتمع البدائي القديم ، ولم يقف في سبيل نشر ذلك النور الحضاري سوى الغابات الاستوائية.

لقد كان قيام هذه الدول في شكله العام قائما على " الحكمة والموعظة الحسنة " وعلى قدرة الإسلام على استيعاب الإنسان السوداني.

والإسلام بفكره وقوته المعنوية حوّل حياة الشعوب السودانية التي اعتنقته من مجرد نظام قبلي بأسراته، ورؤساء العشائر والقرية الصغيرة المغلقة في وجوه ما ورائها إلى نظام سياسي يقوم على الدولة وحكمها ، وعلى أساس قيام إدارة وحكومة ، وبناء حضارة بمدنها وعمرانها ، وسياستها ، ونظمها الاجتماعية ونشر أحكام الكتاب الكريم.

وكان للوجود العربي عامل مؤثر في نقل الثقافة العربية إلى السودان الغربي ، بالإضافة إلى المؤثرات الاجتماعية التي كان من نتيجتها انتهاء الحياة البدائية والوثنية في المجتمع الإفريقي على الأقل في الحواضر ، وفي بداية القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي محل الدراسة ، وانعكست الآثار الإيجابية للحياة العلمية على كل مناحي الحياة في غرب إفريقيا ، وروت لنا مصادر الرحلة والتاريخ هذه التطورات ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي أضيفت للمصادر العربية ما كتبه العلماء السودانيون أمثال القاضي محمود كعت، وعبد الرحمن السعدي ، الذين كانوا ثمرة النهضة العلمية والثقافية، ثم جاءت بعدها وللأسف كتابات بعض الأوروبيين غير المنصفين لترسم صورة غير صادقة عن تلك الحقبة من تاريخ إفريقيا .

وبعد ما تناولت ممالك السودان الغربي ،وحواضره الكبرى ،ومظاهر الحياة العلمية من مؤسسات ومراحل التعليم ،وذكر العلماء الذين ساهموا بنشره وألفوا الكتب وسيروا القضاء وأشاروا على الملوك وبلغ صيتهم مختلف أنحاء الأقطار الأسلامية ، جاء الفصل الأخير ليوضح أثر الحياة العلمية على تطور الحواضر في غرب إفريقيا كخلاصة البحث تمكن الباحث والقارئ الحكم على مدى تطور السودان الغربي طوال فترة الدراسة ،ويكون الحكم عادلا ومنصفا إلا إذا تعرفنا على الحال الذي كانت عليه غرب المنطقة قبل ظهور الإسلام ،أو خلال القرون التي تلت.

فبعدما كان النظام القبلي يسيطر على تلك المجتمعات،وكانت العقيدة الوثنية قائمة على الخوف من مظاهر الطبيعة ،وتقديس بعض مظاهرها ،وبعد ما كان نظام الحكم على أسس بدائية أحيانا ، غريبة وظالمة أحيانا أخرى ،جاء الإسلام بنوره الذي لم يفرق بين جنس الإنسان .

لقد عرفت حواضر غرب إفريقيا تطورا شاملا وعميقا ،وتعلم أهل السودان الغربي أفكارا ونشاطات جديدة لم يعرفوها من قبل، فأعتنق غالبيتهم الدين الإسلامي ، وأجاد علماؤها اللغة العربية، وأسهمت طائفة منهم في الكتابة والإبداع ،وتراجعت التقاليد التي وصفها الأوربيون بالبدائية، وتقلص محيط الاعتقاد والاستسلام للطبيعة ،ودخلت نظم جديدة في الحكم، وطبقت أحكام الشريعة الإسلامية في البلاط، وحج بعض حكام مالي و سنغاي، وجلبوا معهم الكثير من التقاليد في الاستشارة والوزارة والقصر.

لقد تغيرت الحياة الاجتماعية للشعوب السودانية ، وتحول النظام القبلي القائم على الصراع إلى نظام اجتماعي متوازن في إطار الدولة ذات الحدود والقوانين التي أرست مبادئ العدل بين الناس ،واستقرت تلك العشائر وأشاعت أخلاقا وسيرا جديدة، وإن إختلف المؤرخون في درجة التأثير الإسلامي في تلك الأخلاق التي وصفها ابن بطوطة أنها غريبة ،ووصفها البعض بالإسلام السطحي بسبب بقاء بعض المعتقدات والاحتفالات ذات الطابع الوثني القديم ،لكن الحكم على جزء منه يجعلنا غير منصفين، كالذي يرى نصف الكأس الفارغ من الماء،فالحكم على الوضع ينبغي أن يكون متوازنا في الأسباب والظروف و الوقائع والحقائق.

إنعكست الأثار الأيجابية للحياة العلمية على المعاملات التجارية ،وأظهرت المصادر التاريخية النشاط التجاري الذي أدى دورا كبيرا في ازدهار الحواضر والنشاط العلمي ،فالرخاء الاقتصادي ساهم في تراجع الفقر وزاد إنفاق الأغنياء على المساجد والكتاتيب وطلبة العلم وأساتذتهم ومعلميهم.

إن جهل الكثير بالحضارة الإسلامية في المنطقة، وبدور شعوبها في الحركة الإصلاحية والعلمية والثقافية، وعلاقاتها السياسية والدينية والاقتصادية بالعالم الخارجي، وبعض من يهتم بها ينظر إليها بعين الاستصغار، ويتزود بمعلوماته المشوهة على أنها مسلمات أو بدهيات لا تحتاج إلى تمحيص وتحقيق، ذلك الاستصغار الذي لا ينقص من دور تاريخ منطقة بكاملها ، أو التأثير الإسلامي فيها، ولا يتورع عندما تضيق الأدلة التاريخية والنقلية عليه الخناق من وسم الإسلام فيها بنحو «إسلام أسود» أو «إسلام سطحي»،وأصبح الأفريقي اليوم معروفا أنه صاحب الأناشيد والرقصات التي تعبر عن الطقوس والأديان القديمة التي تبعث على الفرجة والشفقة في نفس الوقت ،والتي مازال متمسكا بها ،فهو إذا بدائي.

ومما وطد ذلك الجهل المعاصر: ما يسود وسائل الإعلام من تشويه متعمد للقارة بتصويرها – كلها – في صورة غابة مظلمة وحضارة وثقافة ضعيفة ومعيشة سيئة ، أو غابة للمتقاتلين لأتفه سبب، ولسان الحال يقول – في مقدمة سهلة –: إذا كان هذا شأنهم في القرن العشرين أو الحادي والعشرين فما عسى أن تجد عنهم في القرون السابقة؟ وتكون النتيجة الحتمية لهذه المقدمة عليك بعالم غير أفريقيا.

وحيث إن مجتمعها لم يكن ملائكيا ، فقد كان يعكر طوائف صفوه في أطوار وأماكن مختلفة؛ بسبب ضعف الوازع والمانع الدينيين، فالأول: يبعث على ملازمة الشرائع، والآخر يمنع من مخالفتها، وضعفهما في أي وقت ومكان، وعند أي جنس يعني وقوع بعض أفراده في المعاصي والمخالفات الشرعية بدرجات متفاوتة، وبقاء الكثرة على الحق؛ فمن الإجحاف أن يصير الإسلام بذلك «نموذجا أفريقيا» أو «إسلاما سطحيا» لم يحدث تأثيرا أو إصلاحا كما يريد له أولئك القوم على اختلاف دوافعهم؛ فتلك سنة الله في خلقه، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة على قلب أتقى رجل، لكن لله في خلقه شؤون، وللناس في النظر إلى أفريقيا عيون يعلو كثيرا منها غشاوة، وقلوب يرين عليها الهوى، وعقول لا تقودها البصيرة، وأقلام تسيل بالباطل.

وأجد نفسي من موقع الباحث أنني أريد أن أتوصل إلى حقيقة تاريخية صادقة ، لا أقول أن غرب إفريقيا عرفت أعظم حضارة في الكون ،ولا أميل مثل الجاحدين إلى أن القارة لم تعرف التقدم ،إنما أرى أن غرب إفريقيا ازدهر كباقي المناطق الإسلامية وإن بدرجة أقل ،فلا ينبغي أن ينكر الدارس تلك التطورات العميقة التي عرفتها أقاليم واسعة ،وضحى عليها عدد كبير من العلماء والرجال الصالحون ،وهنا أتذكر قول المصلح جمال الدين الأفغاني وهو يقول :"لا عز لقوم لا تاريخ لهم ،ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم من يحمي تاريخ رجالهم ،يموت العظماء وتبقى أعمالهم خالدة ، قوة تحرك ورابطة تجمع ونور يهدي ،فكل ما يتركه العظماء من ميراث هو أعمال وأفكار نعتز بها ونعتبر منها ونقتدي بها".

وأرجو أن تكون دراستي هذه موفقة في الإلمام بالموضوع، بالشكل الذي أرد فيه الجميل لأساتذتي في جامعة الجزائر الذين كان الفضل لهم في إرشادي،وأتمنى أن يجد كل قارئ وباحث ضالته فيه، وأن يكون جهدي إضافة لمكتبة تاريخ إفريقيا من حيث المحتوى وتعدد مصادر ومراجع البحث ،وأن أنال شرف طالب العلم عند الله ،وعند من ينتفع بهذه المذكرة، وبالله التوفيق ،والله من وراء القصد.

قال الله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات }[المجادلة: 11].

قائمة المصادر و المراجع

قائمØة المصØادر والمراجØع

المصØØادر

1. **البرتلي (أبو عبد اŸ محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي):** فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور ù تحقيق إبراهيم الكتاني ومحمد حجي ù دار الغرب الإسلامي ù بيروت ù لبنان ù ط2 ، 1428هù/ 2007م

2. **البكري أبي عبيد :** المغرب في ذاكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)دار الكتاب الأسلامي ، القاهرة ،بدون تاريخ،

3. **ابن بطوطة** (أبو عبد اŸ محمد بن إبراهيم اللواتي) (704هù-779هù/1304-1377م): رحلة ابن بطوطة (المعروف بù: تحفة النظار في غرائب الأمطار)،ج2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية ،الجزائر،2007.

4. **ابن خلدون: (عبد الرحمان): 732هØ-808هØ/1332م-1406م** تاريخ ابن خلدون –المعروف لكتاب (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ج6،ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1421ه/2000م .

5. **ابن خلدون**: المقدمة، ط1، دار الكتاب العربي،بيروت،لبنان،2008/1429.

6. **ابن فضل اŸ العمري** :مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ 2001.

7. **ابن عذارى المراكشي** : المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،دار الغرب الإسلامي 1980م ù 1326 هù /1908م.

8. **الإدريسي الشريف**: المغرب وأرض السودان و مصر و الأندلس (مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، طبع ليدن بريل،1863.

9. **حسن بن محمد الوزان الفاسي(888هـ / 1483م)**: وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي محمد الأخضر ج2 ، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.

10. القلقشندي: (أبو العباس أحمد بن علي): ت 821هـ/1418م

صبح الاعشى في صناعة الإنشا-تحقيق وتعليق نبيل خالد الخطيب –دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان- ط1 1407هـ/1987م.

11.**مارمول كربخال:** إفريقيا، الجزء الثالث، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي، عمار زبير، محمد الاخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، دار النشر للمعرفة –الرباط.

12. محمد عبد الكريم المغيلي : ت909هـ /1503م

أسئلة الاسكيا وأجوبة المغيلي-تحقيق عبد القادر زبادية، المطبعة الوطنية للنشر والتوزيع –الجزائر 1974.

13. المقري (أحمد بن محمد) ت 544هـ/1149

14. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب –ج2 – تحقيق إحسان عباس ت دار صادر – بيروت 1408هـ/ 1988م

15. المقريزي: (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي): 845هـ/1441م:السلوك لمعرفة دول الملوك-ج2 تحقيق محمد عبد القادر عطا– دار الكتب العلمية – بيروت – 1418هـ /1997م.

16. ياقوت الحموي (شهاب الدين ابو عبد الله) ت626هـ /1299م

معجم البلدان –دار الكتب العلمية- بيروت-1990.

17. **اليعقوبي: (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن حياة واضح)ت 626هـ/ 1299م:** اليعقوبي: البلدان، جزء من تاريخ اليعقوبي،ج1، دار صادر، بيروت، 1977،1397.

المصادر الأفريقية

18. **أحمد بابا التنبكتي:(ابو العباس سيدي احمد بن احمد بن احمد بن عمر** بن محمد أقيت) 1036هـ / 1626م.
نيل الإبتهاج بتطريز الديباج (جزئين)، تحقيق علي عمر،ط1،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،2004/1422.

19. -كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج،دراسة وتحقيق محمد مطيع ،ط1،وزارة الأقاف و الشؤون الدينية،المملكة المعربية،1421هـ/2000م.

20. **أبو بكر** احمد **المصطفى المحجوبي**: منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور، دراسة وتحقيق وتقديم، الهادي المبروك الدالي،ط1، 2001 ، بدون مكان.

21. **التونسي (محمد بن عمر):(ت1222هـ / 1807م):**
تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، حققه خليل محمد عساكر مصطفى محمد مسعد وراجعه مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر والترجمة، 1965.

22. **السعدي (عبد الرحمان بن عبد الله)(ت1065 هـ/1655م):** تاريخ السودان، طبع هوداس، مكتبة أمريكا والمشرق ،باريس،1964.

23. الخطيب البغدادي: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم، تلخيص وترتيب سامي الصقار، ط1، دارالمريخ، الرياض 1401 – 1981.

24. **مجهول: (ولد سنة 1112هـ / 1700م):**

تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ، نشره هوداس ، باريس،1966.

25. **محمد بلو (بن عثمان بن فودي)(ت 1195-1253هـ / 1781-1837م):**
إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور-إدارة الوثائق والمكتبات لوزارة الأوقاف القاهرة-1383هـ/1964م.

26. **محمود كعت (بن الحاج المتوكل كعت الكرني التنبكتي الوعكري)(ت925هـ / 1519م**):
تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس ، طبع هوداس ودولافوس 1964.

27. **الشنقيطي**: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط والكلام على تلك البلاد تجديدا أو تخطيطا وعاداتهم وأخلاقهم وما يتعلق بذلك ،المطبعة الجمالية بالقاهرة 1339ه/1911.

28. **المراجع العربية**

29. **أحمد إبراهيم دياب:** لمحات من التاريخ الإفريقي الحديث، دار المريخ ،1970م، الرياض.

30. **أحمد سويلم العمري:** الإفريقيون والعرب ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ،1967.

31. **أحمد محمد مصباح أحمد:** تاريخ العلاقات العربية الإفريقية، دار الصناعة والنشر، ط1،2001.

32. احمد طاهر : إفريقيا ، فصول من الماضي و الحاضر ، ط1 ، دار العارف ، القاهرة 1975.

33. **أحمد شلبي:** موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج 06، ط7، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1984.

34. **إسماعيل العربي:** إسماعيل العربي : الصحراء الكبرى وشواطئها ، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983.

35. **الأمين محمد عوض الله:** العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغاي، دار المجتمع العلمي جدة1399هـ/1979م.

36. **جلال يحي:** تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 1999.

37.

38. **حسن أحمد محمود:** الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، 2001.

39. حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني. ط1، القاهرة 1991.

40. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط5، دار الجبل بيروت، 2001.

41. ضيف الله محمد الأخضر : محاضرات في النظم الإسلامية والحضارة العربية ، ط1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984.

42. **حورية توفيق مجاهد:** الإسلام في إفريقيا مكتبة الأنجلوالمصرية 2002م.

43. جمال احمد طه: مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين (448هـ/1065مالى 668هـ/1229م) ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الاسكندرية (بدون تاريخ).

44. **زاهر رياض :** مصر وإفريقيا، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1،1976.

45. **عطا الله شوقي وعبد الله عبد الرزاق:** تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة والتوزيع ،القاهرة 1996.

46. شوقي الجمل،عبد الله عبد الرزاق إبراهيم: دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحدث والمعاصر،ط1،القاهرة،1998.

47. عبد الرحمان زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية ، ط1، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، 1961.

48. **عبد القادر زبادية:** مملكة سنغاي في عهد الاسيقين 1493-1591 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1971.

49. الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ،1989.

50. **عبد الجبار ناجي** : دراسات في تاريخ المدن العربية والإسلامية ، ط1، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، لبنان 2001.

51. **عبد الحكيم العفيفي** : موسوعة 1000مدينة،ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،200/1424.

52. **عبد السلام عبد العزيز فهمي** : نصاب الصبيان ومسيرة ستة قرون في تعليم الغة العربية للمسلمين غير الناطقين بها ط1 جامعة أم القرى ،المملكة العربية السعودية 1405.

53. **عبد الحميد بكري** : النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن التاسع الهجري إلى القرن الرابع عشر ، ط1 ، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، الجزائر ، 2007.

54. **عزالدين عمر موسى**: دراسات إسلامية غرب إفريقية، ط1، دار الغرب الأسلامي ،بيروت، لبنان،2003.

55. عبده بدوي : مع حركة الإسلام في إفريقية ، ط 1 ، الهيئة المصرية العامة للتأليف 1970

56. **علي أيوب ناجي:** لمحات عن الإسلام في نيجيريا، بين الأمس واليوم، دار الكتاب الحديث، الكويت.

57. **نعيم قداح**: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ،1974.

58. **مطير سعد غيث أحمد:** الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي (خلال القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة/ السادس عشر والسابع عشر للميلادي) –ط1 دار الكتب الوطنية –بنغازي ليبيا 2005م.

59. **محمد محمد زيتون**: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية ط 1، دار المنار بالقاهرة 1408-1988.

60. **محمد الصالح حوتية** : توات والازواد ،ط1 ،ج1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والتراجم ، القبة ، الجزائر،2007.

61. **محمد عبد الفتاح إبراهيم** : افريقية من السنغال إلى نهر جوبا ، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1961.

62. **محمد فاضل علي باري سعيد إبراهيم كردية** : المسلمون في غرب افريقيا تاريخ حضارة ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت 2007.

63. **محمد عوض محمد:** المغرب والسلالات الإفريقية، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ،1970.

64. **محمد الغربي:** بداية الحكم المغربي في السودان الغربي-معهد البحوث والدراسات الإفريقية-القاهرة.

65. **منير الدين احمد** : تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم ترجمة وتلخيص وتعليق، سامي الصقار، ط1، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية 1981م-1401هـ.

66. **سعيد مرسي احمد سعيد إسماعيل علي** : تاريخ التربية والتعليم ط1 ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1982.

67. **فرج محمود فرج**: إقليم توات خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 2007.

68. **الهادي مبروك الدالي:** التاريخ السياسي والاقتصادي فيما وراء الصحراء (من نهاية القرن حتى نهاية القرن 18م)، الدار المصرية اللبنانية ط1،1999.

69. **الهادي مبروك الدالي** :مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا (من القرن 13 حتى القرن 15م) ط1، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان،1993م.

70. **الهادي مبروك الدالي** : قبائل البرابيش ، دراسة وثائقية، ط1، دار الكتب الوطنية بـ طرابلس 2002م.

71. الهادي الدالي، عمار هلال: دراسة حركات التبشير والتنصير بمنطقة إفريقيا فيما وراء الصحراء، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2002.

72. شوقي عبد القوي عثمان: التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك، ط1، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 2000.

73. عدنان حداد: من روائع الأدب الإفريقي، ط1، دارالبيروني للطباعة والنشر،2001.

74. فؤاد سزكين: محاضرات في تاريخ العلوم، ط1، جامعة الأمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض 1989/1399.

75. يحيى بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن (16-20م) دار هومة ، الجزائر ، 2001.

المراجع المعربة

76. **أرنولد توماس:** الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسين إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية،1970.

77. جوان جوزاف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء ، ترجمة مختار السويفي، ط 1، دار الكتاب المصري ، القاهرة ،1984.

78. جوزفين كام: المستكشفون في إفريقيا ، ت السيد يوسف نصر ، ط1 ، دار المعارف ، 1983 دون مكان للطباعة.

79. رولاند أوليفر، جون فيج : تاريخ إفريقية، ت عقيلة محمد رمضان، ط1، الدرار القومية للطباعة والنشر، دون تاريخ.

80. **فيليكس ديبوا:** تنبكت العجيبة، ترجمة عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، مراجعة شوقي عطا الله الجمل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003.

81. كلود قوتييه: إفريقيا للإفريقيين، ترجمة كمال يونس، ط1، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ .

82. كولين ماكيفيدي : أطلس التاريخ الإفريقي ، ت مختار السويفي ، ط1 الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1987 .

83. كلود قوتية : إفريقيا للإفريقيين ، ترجمة كمال يونس ، ط1، دار المعارف ، القاهرة ،دون تاريخ.

84. بوفيل: الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا-وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، ترجمة زاهر رياض، المكتبة الأنجلوالمصرية، 1968.

الدوريات والمجلات والندوات

85. جمال زكريا قاسم: العلاقات العربية الإفريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، العدد 547، 1977 .

86. جمال زكريا قاسم : العلاقات العربية الإفريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار ، مجلة البحوث والدراسات الإفريقية العدد 547، القاهرة ، 1977.

87. محمود خيري : العلاقات العربية الإفريقية ، مجلة البحوث والدراسات الأفريقية،العدد 513 ، القاهرة 1977.

88. أحمد إبراهيم دياب : علماء بلاد السودان الغربي في القرنيين السادس عشر والسابع عشر وآثارهم العلمية، ودور العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، معهد البحوث والدراسات العربية، الخرطوم 28 / 30 يوليو/تموز 1973/ f 148.

89. عزالدين موسى: انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي، ندوة الدروس الحسينية، وزارة الأوقاف المغربية ، 1406هـ/1986.

90. محمد محمد أمين: علاقات دولة مالي و سنغاي في عصر السلاطين المماليك (1250 – 1517)، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد 390، القاهرة، 1975 .

91. محمد محمد أمين: تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى، مجلة البحوث والدراسات الإفريقية،العدد 513، القاهرة،1977.

92. سكيني مودي سيسوكو : نزعة تومبوكتو في وحدة العالم الأفريقي مجلة الثقافة الإفريقية ، الجزائر 1969.

93. سكيني مودي سيسوكو: سنغاي من القرن الثامن عشر إلى القرن السادس عشر ، تاريخ افريقيا العام ، المجلد4، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988.

94. حسين مهدي صالح : جنى من المملكة الوثنية إلى الملكة الإسلامية ، مجلة البحوث والدراسات الإفريقية ،العدد513، جامعة القاهرة،1977.

95. مسعود عمر محمد علي : تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي، ط1، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا، 2003 .

96. عبد القادر زبادية : ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو ، خلال القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد7- 8 ، 1977.

97. ولتر ماركوف، هارموت تيمسوفسكي: إفريقيا على ضوء العلوم التاريخية ، مجلة الثقافة الافريقية ، الجزائر 1969.

98. عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين (1493-1591) مجلة الاصالة العدد 58 ، الجزائر 1978.

99. عبد الجليل التميمي : كتاب نيل الابتهاج في تطريز االديباج " المجلة المغربية للتوثيق و المعلوما ت العدد 03مارس 1985 تونس.

100. دهينة عطا الله : العلاقات التجارية بين المغرب والسودان مجلة الاصالة العدد 26 ، دون تاريخ.

101. جبريل.ت.نياني: مالي والتوسع الثاني للماندانج، تاريخ إفريقيا العام، المجد الرابع،اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988.

- الانترنيت:

102. ولد حمادي : ولاته ، حاضرة العلم وحاضنة الدين ومنارة الثقافة في موريتانيا، جريدة الراية 2010،/08/07موريطانيا .www.ereyde.com

103. د.مجاهد توفيق الجندي :أروقة الأزهر ،www.drmarzouk.com

104. عبد العلي الودغيري: اللغة العربية الماضي والحاضر والمستقبل ، *www.biblioislam.net*

105. علي يعقوب : اللغة العربية وآدابها في دولة سنغاي الاسلامية مجلة علوم انسانية ، السنة السابقة ، العدد 45 .www.ulum.nl ’2010.

106. علي يعقوب : المناهج والمقررات التعليمية في الجمهورية النيجيرية ، مجلة علوم انسانية ، السنة السابقة ، العدد 45 ، 2010.

107. WWW.ULUM.N

108. حسن عبد الخالق:الإمام المصلح، محمد بن عبد الكريم المغيلي، الملتقى المغربي للقرآن الكريم.

a. www.maroco-quran.com

109. أحمد جروزا طاهر : أسس تعايش المسلم مع العادات والتقاليد الإجتماعية الإفريقية،مجلة علوم إنسانية السنة السابعة العدد 45 ،2010 .

110. www.ulumanl.com

111. موسى عبد السلام مصطفى أبيكن : التقاليد الجاهلية في إفريقيا ، مجلة علوم إنسانية السنة السابعة ، العدد 45، 2010.

112. www.ulumanl.com

113. مهدي ساتي : الإسلام والقيم الإجتماعية للجماعات الأرواجية في إفريقيا جنوب الصحراء . www.mvbark-inst.org2010.06.28

114. محمد المنوني: لتكامل الثقافي بين المغرب وإفريقيا في العصر الحديث من خلال المصادر العربية " مجلة دعوة الحق، العدد الثاني، السنة التاسعة والعشرون" وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط ، المغرب،1426.2005.

115. Jackson, Mississippi. Sankore University: Rediscover the Glory *.www.muslimmuseum.org/SankoreUniversity.aspx*

116. Lisa Lindsay: The Influence of Islam on West Africa. www.spice.stanford.edu.com.

117. Constant Hamès: « Les manuscrits arabo-africains : des particularités ? », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, p99-100 novembre 2002.

118. Yattara El mouloud et DIALLO Boubacar Séga :Le Mali précolonial . *www.histoire-afrique.org*.

119. (Faculté des Lettres, Langues, Arts et Sciences Humaines (F.L.A.S.H) - DER Histoire- Archéologie, université de Bamako,).

120. Diallo Boubaca Séga." professeur d.HistoireUniversité de Bamako "L'empire songhoy. *www.histoire-afrique.org.*

121. Sambe, Bakary (IEP. Institut d'études politiques. Lyon. France): L'Islam dans les relations Arabo-africaines. www.arabpsynet.com.17.12.2010.

122. A.Rahman I Doi: spread of Islam in west Africa–www-Islamic-com

123. الرسائل العلمية

124. أحمد بوعتروس : الحركات الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء فيما بين القرن الثالث عشر هجري ، التاسع عشر ميلادي ،ط1، دارالهدى الجزائر 2009.

125. عبلة محمد سلطان: العناصر المغاربية في السودان الغربي، دورها السياسي والحضاري منذ ظهور المرابطين حتى نهاة دولة سنغاي، رسالة دكتوراه، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1999.

126. محمد الأمين عوض الله : العلاقات بين المغرب الأقصى و السودان الغربي في عهد السلطنتين مالي و سنغاي ، رسالة ماجستير ،ط1 المجمع الإسلامي، جدة ، العربية السعودية ، 1989.

127. مسعود خالدي:الجاليات العربية والبربرية في إفريقيا جنوب الصحراء، بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين،الحادي عشر والسادس عشر للميلاديين، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة،2005 .

128. زينب احمد هاشم : علاقة مصر بالدول الإسلامية في حوض نهر النيجر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين ، رسالة ماجستير ، قسم التاريخ ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية القاهرة ، 1982.

129. عبد الحميد جنيدي : مدينة تنبكت ودورها الحضاري خلال القرن 10ه/16م ، مذكرة ماجستير، معهد التاريخ،جامعة الجزائر،2010.

130. المراجع الأجنبية:

131. Alfonse Gouilly : l'islam dans l'Afrique Occidentales française, Paris 1952.

132. Barth H : Voyage et découverte dans l'Afrique septentrional et central pendants les années , 1845, 1855 , Edition 1863,Paris.

133. Basil Davidson : l'Afrique ancienne T1-français Maspero- Paris-1973.

134. -Baumann-Westermann : les peuples et les civilisation de l'Afrique ,paris 1928.

135. -Cheikh Awta diop : Nations negres et culture, Paris, Edition africaine, 1995.

136. Delafosse M : Traditions historique et légendaires du soudan accidentel- paris 1973 (Traduit d'un manuscrit arabe)

137. Delafosse M : haut Sénégal-Niger, paris, 1912.

138. George peter mundock : its peoples and their culture history GRAW-HILLE, Book company, INC, NewYork , 1959.

139. Aboubakr Ismaïl Maïga.- La culture et l'enseignement islamiques au Soudan Occidental de 400 à 1100 h sous les empires du Ghana, du Mali et du Songhay ; traduit par : Mahibou Sidi Mohamed en collaboration avec Diouldé Laya Library of Congress , Edition, 2003.

140. Yattara El mouloud: L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du VIIIème au XVIème siècle.www. histoire-afrique.org.

141. Jean suret canal : Afrique noire occidentale et centrale édition social- Paris .

142. Jean Suret-canal : Afrique noire, géographie civilisations histoire ،éditions sociales, Paris,1973.

143. Lang Dierk : le diwan des sultans de Kanem –borno-

weisbade N-1977.

144. Mungo Park: Voyage dans l'Intérieur de l'Afrique, Editions la Découverte, Paris ,1996.
145. Monteil Vincent : les empires du mali- Paris 1930.
146. Monteil Vincent : l'islam noire-Paris 1912.
147. Joseph Cuoq : Les musulmans en Afrique, Paris-1975.
148. Marty : Etudes sur l'islam et les tribus du soudan, paris 1920.
149. Mauny : tableau géographique de l'ouest africain au moyen age-Paris, 1961.
150. G. P. Murdock, Africa, its Peoples and their Culture History .New York, 1959. www .wikipedia.org12.11.2010 .
151. Le Chatelier : L'Islam dans l'Afrique Occidentale – Paris-1899.
152. Palmer (Richmond sir) : the Bornu Sahara and Sudan london -1936.
153. J.Spencer Trimingham: The influence of Islam upon Africa –London,1968.
154. J.Spencer Trimingham: Islam in west Africa –London-1970.
155. Robert Cornevin : histoire des peuples de l'Afrique noire –Paris 1962.
156. W.E.F Ward : A history of afrique –george auen and unwin London.
157. Urvoy: histoire des population du soudan – librairie larose, Paris 1936.

158. B. Lewis, 'The African Diaspora and the Civilization of Islam', in M.I. Kilson & R.I.Rotberg, The African Diaspora (Harvard University Press, 1976).

159. Catherine Coquery-Vidrovitch: Des frontières en Afrique du XIIe au XXe siècleBamako, 1999، Publié par l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture.Stedi-Media, Paris.2005.

160. Maurice Delafosse: Les Noirs De L'afrique, Collection Payot, Payot et Cie, Paris, 1922, Édition numérique réalisée le 11 avril 2010.

161. Djibril Tamisir,G,Surt-canale: Histoir de L'afrique Occidentale, edition pre'sence africaine.

المøøلاحøø5

ملحق رقم 01



غرب إفريقيا سنة1500 .تظهر هذه الخريطة إمبراطورية سنغاي في أوج قوتها .(عهد الامبراطور Askia محمد)

en.wikipedia.org/.../Islamic_Golden_Age

الملحق رقم02 :خريطة حواضر غرب إفريقيا



المرجع:

Maurice DELAFOSSE: LES NOIRS DE L’AFRIQUE. Collection Payot, Payot et Cie, Paris, 1922 . Édition numérique réalisée le 11 avril 2010.

ملح5 رقم03: خريطة التوزيع القبلي في غرب إفريقيا

نموIP الأجازة

قال الإمام الزموري: عبد اŶ بن أحمد بن سعيدÛ كان بقيد الحياة عام 1484Û وقد أجاز بكتاب الΊفا للقاضي عياf كلا من عمر بن محمد أقيت من تنبكتÛ والفقيه المختار من تنبكتÛ كما أن أحمد ابن القاضي تبادل المΊيخة مع أحمد بابا التنبكتيÛ فθخPP كل منهما عن اŎخرÛ وفي هIP يقول العالم السوداني عن ابن القاضي"... وحضرت إقراءЫ للفرائf Û وكان قد انفرد بمعرفتهاÛ بحيث لا يعرف له نظير في IPك Ί رقا وغرباÛ وكان يطير فيها طيران الباز في جو السماءÛ ويتصرف فيها تصرف الحوت في البحر"Û ثم يضيف: "وقد استجازنيÛ وقرأ علي Ίيئا من البخاريÛ وΊيئا من تواليفيÛ فθجزته".

المرجع . محمد المنوني: لتكامل الثقافي بين المغرب وإفريقيا في العصر الحديث من خلال المصادر العربية Û مجلة دعوة الح5Û العدد الثانيÛ السنة التاسعة والعΊرونÛ وزارة الأوقاف والΊؤون الإسلاميةÛ الرباط Û المغربÛ1426.2005.

ملحق رقم 04

دورا لأوقاف والصدقات في تنبكت

- " يبدو أن الأوقاف والصدقات كانت العامل التمويلي الهام في ازدهار حركة التعليم في تنبكت خلال القرن 10هـ/16م، فمعظم المصاحف والمخطوطات التي بقيت من تلك الفترة تحمل في طياتها ذكرا بتوقيعها على الجوامع من طرف أشخاص كانوا يبتغون من وراء ذلك وجه الله، كما كان تعيين الأئمة والمدرسين وترتيب الجرايات لهم يتولاه القاضي، وهو ينفق على ذلك الأوقاف والصدقات التي كان يتلقاها بسخاء كبيرمن المحسنين، ومعظم الجوامع التي قامت في تنبكت في تلك الفترة كان بناها أفراد موسرون في شكل أوقاف للصلاة والتعليم، فمسجد سنكري مثلا (بنته امرأة واحدة أغلالية ذات مال كبير في فعل الخير)، وكذلك الجامع الكبير فقد بناء من ماله الخاص الحاج موسى صاحب مالي، وصومعته على خمسة صفوف."

المرجع : عبد القادر زبادية :الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، ص 70.

ملحق رقم 5

جدول ملوك السودان الغربي

1- ناري فامغان بن الإكواى 597-615 ھØ / 1200-1218 م
2- دنجارام توما 615-628 ھØ / 1218-1230 م
3- سنديتا (ماري جاطة) المؤسس الحقيقي لدولة مالي 628-653 ھØ / 1230-1255 م
4- ولي (علي) بن ماري جاطة الأول 65– 669 ھØ /1255-1270 م
5- ولي (علي) الثاني بن ماري جاطة -673 ھØ /1270-1274 م
6- خليفة بن ماري جاطة 673-674 ھØ / 1274 – 1275 م
7- أبو بكر بن بنت ماري جاطة 674-684 ھØ / 1275-1285 م
8- ساكوري (مغتصب) 684-700 ھØ / 1285-1300 م
9- قو بن ماري جاطة 700-705 ھØ / 1300- 1305 م
10- محمد بن ماري جاطة 705-710 ھØ / 1305-1310 م
11- أبو بكر بن أخت ماري جاطة 710-712 ھØ / 1310-1312 م
12- منسا موسى (الأول) بن ابي بكر 71-738 ھØ / 1312-1337 م
13- مغان (الأول) بن موسى 738-742 ھØ / 1337-1341 م
14- منسا سليمان (أخو موسى) 742-762 ھØ /1341-1360 م
15- كاسا أو قنتاين سليمان (عزل) 762 ھØ /1360-
16- ماري جاطة الثاني (حفيد موسى) 76-776 ھØ /1360-1374 م
17- موسى (الثاني) بن ماري جاطة الثاني 776-789 ھØ/1374-1387 م
18- مغان (الثاني) أخو موسى الثاني 789-790 ھØ /1387-1388 م
19- صندكي(مغتصب) ' زوج أم موسى الثاني790-793 ھØ /1388-1390 م
20- مغان الثالث 793 ھØ / 1390 م -
21- محمد الأول 886 ھØ /1481 م -
22- محمد الثاني 941 ھØ /1534 م -
23- محمد الثالث 1008 ھØ / 1599 م -
24- ماما مغان 1081 ھØ /1670 م -

المرجع:

1- إبراهيم علي طرفان ' دولة مالي الاسلامية " – ţ – 121/122 .

2- Montiel vincent :l'empir de mal P30.

- 3-مادهو يانكار : الوثنية و الاسلام – ţ – 451

الملحق رقم 06

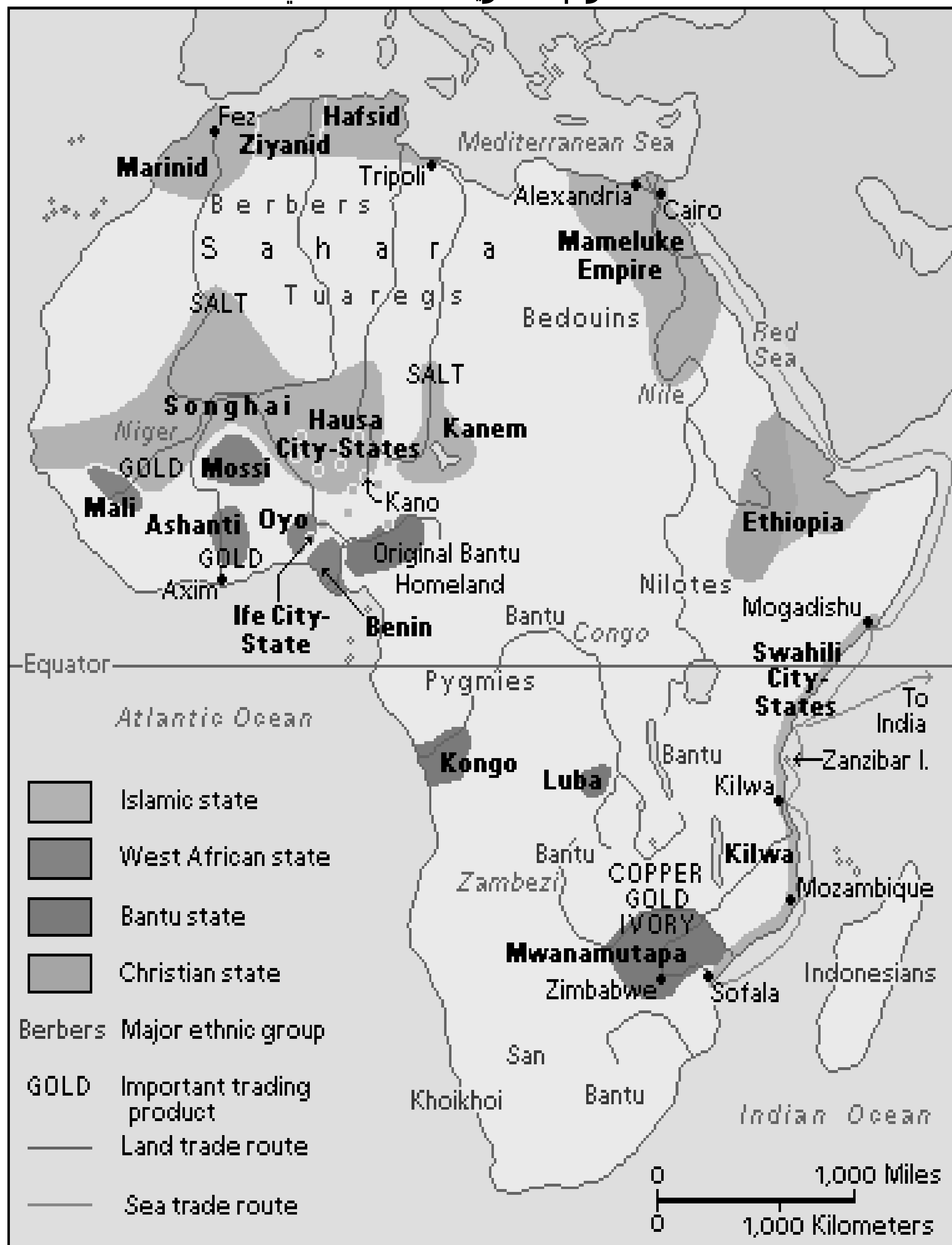
أسرة الاساقي الحاكمة في غاو ما بين (898-1000 هـ / 1492-1591 م)

1-الإسقيا موسى (أني محمد الكبير)	935-938 هـ /1529-1531 م
2- الإسقيا محمد (الثاني) نبكن	938-944 هـ /1531-1537 م
3- الإسقيا اسماعيل	944-947 هـ / 1537-1540 م
4- الاسيقيا اسحاق الاول	947- 956 هـ / 1540-1549 م
5- الإسقيا داود	956-990 هـ / 1549-1582 م
6-الإسقيا الحاج محمد الثالث	990-997 هـ / 1582-1588 م
-/ الإسقيا إسحاق الثاني	997-1000 هـ / 1588-1591 م
7-الاسقيا محمد غاو (تولى الحكم بعد سقوط سنغان)	1000-1001 هـ /1591- 1592 م

المرجع :

- عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين (الملحق) – ص – 233
- مادهو بانيكار: الوثنية و الاسلام – ص – 452 .

ملحق5 رقم07 خريطة مملكة سنغاي



المصدر: *en.wikipedia.org/.../Islamic_Golden_Age*

ملحق 08



هذه المخطوطة هي جزء من كتاب
الرسم على اليسار .لتدريب علماء الفلك
يوضح دوران الموسمية لوحظ في
سماء الليل

المرجع: http://www.muslimmuseum.org/LegacyOfTibmuktu.aspx



وثيقة إنشاد القصيدة على الشريعة الإسلامية باعتبارها مساعدة للطلاب تحفيظ القرآن.

ملحق رقم 09. ممالك غرب إفريقيا



المصدر *en.wikipedia.org/.../**Islamic**_Golden_Age*

ملحق رقم 10

الخط المغربي السائد في غرب إفريقيا خلال القرنين (08 و10 هـ/14و16م)

المرجع : مجلة معهد المخطوطات العربية - العدد 49. / 16 ربيع الأول / 1428 هـ الموافق 3 / أبريل / 2007 م

*www.**wadod.net/books**.*

الفهرس